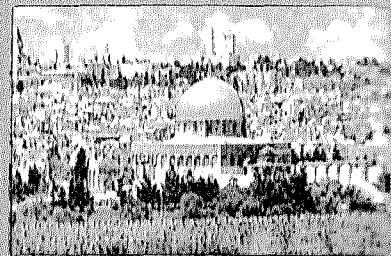
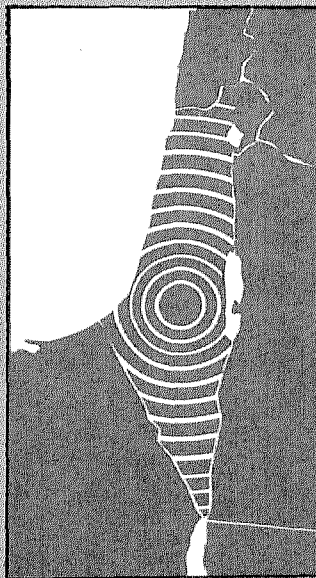
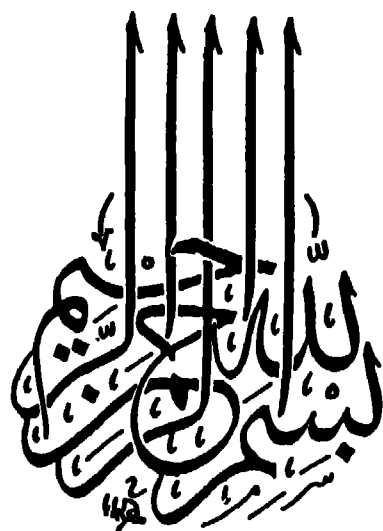


كيف ضاعت فلسطين

د. عيسى الماضي



مكتبة المعلم - الكويت



كيف ضاعت فلسطين

دراسة للمؤثرات الاقتصادية والثقافية والسياسية
في ضياع فلسطين

الدكتور / عيسى بن محمد الماضي
كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مكتبة المعلا
الكويت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ٢١٩٨٨

مكتبة المعلا

ص.ب : ١٩٦٧٣ خيطان 83807 الكويت

تلفون : ٤٧٣٧٨٢٨

الإهداء

إلى كل من جاهد بسلاحه وقلمه ولسانه
لإعادة أرض الأنبياء
ومسرى الرسول صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

قبس من أي الذكر الحكيم

يقول سبحانه وتعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (آل عمران : ١٦٩-١٧٣) .

— المقدمة —

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد :

فإن نكبة فلسطين بصورتها عام ١٩٤٨ وما تطورت إليه عام ١٩٦٧ حيث استُكْمِلَ تشريد شعبها وأخرجوا من ديارهم ثم قتلوا تقتيلاً عام ١٩٨٣ في مذابح صبرا وشاتيلا في بيروت وقبلها بسنين قليلة في مخيم تل الزعتر ، علاوة على الهجمات الإسرائيلية المتكررة على مخيماتهم في صور وصيدا وبيروت والأردن وسورية مستعملة أنواعاً من الأسلحة الحديثة والعرب حولهم واجمون يتفرجون ويتنهدون ولشفاهم يعضون كل هذه الحوادث تجعل المسلم الواعي يرجع الفكر في الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج^(١) فإذا عُرِفَتْ أمكن توقُّعها حتى لا تحدث نفس النتائج في بلد آخر ، ولا شك أن ضياع فلسطين ومن قبلها شرق أوروبا والأندلس وديار كثيرة من أيدي المسلمين هو دلالة على التراجع المستمر للمسلمين أمام قوى الكفر التي تستهدف المسلمين أنفسهم بل دينهم لأن التاريخ والمعارك التي خاضوها مع المسلمين قد علمتهم أن قوة المسلمين في دينهم لأنهم أصحاب رسالة سماوية ، وتاريخ الأديان يخبر أن الشعوب والأقوام المكلفة برسالة سماوية إذا تخلت عما كلفت به أصبحت مطمئناً ونهباً لشعوب أخرى ولعل حكمة الله سبحانه اقتضت أن يدب الوهن في الأمم التي تتخلى عن مقومات قوتها في مبادئها كدليل على صحة هذه المبادئ ونكاية لها في الدنيا يقول سبحانه وتعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكى ونغشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾^(٢).

(١) لم يعرف التاريخ على مر عصوره وإلى الآن نكبة حَلَّتْ بِشعب مثل النكبة التي حلت بالشعب الفلسطيني سواء في أسبابها أو أطوارها أو نتائجها .

(٢) سورة طه آية ١٢٤-١٢٦ .

ولا شك أن كل مسلم يؤمن أن ضياع فلسطين كان قدراً من الله ولكل قدر حكمة ولعل المصائب التي تلحق بالمسلمين هي تحذير من الله سبحانه إلى وجوب العودة إلى الإسلام لأنه لا سعادة للمسلمين بدونه ولعل هذا يكون برهاناً على صحة الإسلام بل اعجازه إذ لو صلح حال المسلمين بغيره لكان غيره مثله سواء ومن يستعرض تاريخ المسلمين إلى اليوم يجد أن المصائب تختلف عليهم حسب قربهم أو بعدهم عن الإسلام ولعل العصر الحديث منذ القرن التاسع عشر يشهد أكثر من غيره على ذلك فقد عجزت القوانين الوضعية أن تحقق أبسط مفاهيم الحياة الكريمة للمسلمين وأصبحت المفارقة واسعة بين حالتهم في العصر الحديث وحالتهم في العصور الماضية حتى في عصور الضعف والانحطاط سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات وعندما تقرأ مشاهد للعزة والأثقة والشجاعة وغيرها من القيم في العصور الماضية وتلتفت لحالنا اليوم يخيل إلينا أنها ضرب من الخيال والأساطير ، والحقيقة أن مسلم الأمس هو نفسه مسلم اليوم ولكن المؤثرات التي واجهت ذلك وعليها نشأ غير المؤثرات التي واجهت هذا المسلم وعليها ينشأ ، فعلينا أن لا نستفزع النتائج بل ننظر إلى الأسباب التي أوصلت لهذه النتائج . وقد علمنا الرسول ﷺ هذا المنهج في البحث بقوله (يأتي زمان على أمتي يسب الرجل أباه فاستفزع الصحابة ذلك كيف يسب الرجل أباه فقال الرسول الكريم بأن يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه) .

ولا شك في أن قتال الباغي وحد الحراية وغيرها من الحدود على صرامتها لا تعتبر ظملاً لأنها نتيجة لعدوان المعتدين وتجاوزات العصاة لحرم الله ويحدثنا التاريخ أن عمار ابن ياسر رضي الله عنه كان يقاتل إلى جانب الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في معركة صفين فقتل فسبب هذا حرجاً لجماعة معاوية وفرج جماعة علي لأن الرسول ﷺ قال لعمار « تقتلك الفئة الباغية » ولكن معاوية بدهائه استطاع أن يخرجها بأن الفئة الباغية هي التي أتت به للقتال أي أن معاوية لم يناقش النتيجة أي القتل بل ناقش الأسباب ولعل في عفو عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن السارق عام الرمادة وكذلك عفو عن المرأة التي رفض الراعي أن يسقيها الماء إلا إذا مكنته من نفسها وقد فعلت لشدة عطشها فأقام الحد على الراعي ولم يقمه عليها كل هذا مراعاة لأسباب السرقة أو الزنى وما أحوجنا أن نستفيد في حياتنا من القواعد التي بنى عليها ديننا لأنها خلاصة الإسلام في مقاصده .

وفي هذا البحث المتواضع سرت على هذا النهج فدرست المؤثرات - أي الأسباب -

التي أوصلت إلى ضياع فلسطين من سياسية وثقافية واقتصادية ومع أن كل واحد منها يكفي لبحث كبير ولكنني ركزت على صلب الموضوع فيها بحيث تُكوّن مجتمعة لدى القارئ فكرة متكاملة في موضوعها (ولعل هذا اللون من الدراسة يعد رائداً في موضوعه حيث أُنِي لم أعثر على مثله فإن الذين كتبوا عن السياسة والاقتصاد والثقافة في فلسطين كانت كتابتهم منحصرة في المواضيع التي كتبوا فيها ولم يكن غرضهم بيان أثرها في ضياع فلسطين فكانت دراستهم وافية في بيان الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية فقط.) ، وقد اعتمدت على المصادر الأولية لهذا الموضوع كالدوريات التي كانت تصدر في ذلك الوقت والكتب وتقارير اللجان التي كانت ترفع مباشرة إلى الحكومة البريطانية في فلسطين وعلى المقابلات الشخصية التي أجريتها لمن عاصروا الأحداث ولم يخل البحث من الكشف عن قضايا جديدة أو التنبيه على أثر لم يؤخذ بالعناية لدى الباحثين وإني لأرجو لمثل هذه الدراسة النجاح بمشيئة الله لتبصر الأمة بأسباب علتها المسببة لأمراضها السياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية لأن علاج الأسباب كفيل بالقضاء على الأمراض والطبيب الناجح هو من يعالج مسببات الأمراض لا الأعراض ، لقد حان لأمتنا أن تنتبه إلى أسباب أمراضها فتعالجها معالجة جذرية تقضي على أصولها .

وقد أوصلني البحث إلى ثلاثة فصول رئيسية وهي :

الفصل الأول :

المؤثرات الاقتصادية : تكلمت فيه عن ثروات فلسطين الزراعية والحيوانية والصناعية والتجارية وقد كان واضحاً أن فلسطين بلد زراعي بالدرجة الأولى وأن الصناعة الموجودة فيها لا تزيد عن كونها يدوية وقد كان فيها بعض الصناعات الكبيرة المحدودة التي تركزت في المدن وكان لموقع فلسطين الجغرافي بين مصر وبلاد الشام أهمية تجارية كما تكلمت عن الحالة الاقتصادية قبل الاحتلال الإنجليزي حيث كانت فلسطين تابعة للحكم العثماني فقد كانت الحياة الاقتصادية متدهورة يسيطر عليها المتنفذون وقد كانت ميزانية الدولة تقع على من يفرض عليهم من الضرائب وهم المسلمون فقط نتيجة لنظام الامتيازات الذي أخرج المواطنين غير المسلمين من تبعية الدولة سوى التبعية السياسية وقد وصلت الفوضى الاقتصادية لدرجة أنه لم توجد وحدة للمكاييل والموازين وللعملة المتداولة فقد كان المكايال الواحد يختلف مقداره من منطقة إلى منطقة ، ولم تكن الحال

في فلسطين بأسوأ من غيرها من المناطق العثمانية الأخرى . وتكلمت عن الاقتصاد بعد الاحتلال حيث حدث شيء من الانتعاش من جهة وسوء حال من جهات أخرى فقد ظهرت الصناعات الآلية التي تغذيها رؤوس الأموال الكبيرة فانت الصناعات اليدوية التي كان يعتمد عليها قطاع كبير من الفلسطينيين مما جعلهم يتركون حرفهم ويعملون عمالاً في المدن . وقد كانت الحكومة البريطانية المنتدبة ترسل لجاناً لدراسة الأحوال الاقتصادية لتحسينها . انتهى بعضها بتوصيات موضوعية لم تنفذ الحكومة منها شيئاً وقد كان واضحاً منذ اليوم الأول الذي وضعت فيه فلسطين تحت الانتداب البريطاني أنها تقوم بتنفيذ البند الثاني من صك الانتداب وهو جعل فلسطين تعيش في ظروف اقتصادية وسياسية تمكن من إقامة الوطن القومي اليهودي فيها لذلك كثرت الضرائب وارتفعت رواتب الموظفين الانجليز فيها لدرجة الضعف عن أمثالهم من الموظفين الفرنسيين في سوريا ولبنان ، وقد وضحت هدف الانجليز من هذا الظلم الاقتصادي وهو دفع المواطن للتخلي عن أرضه لينتقل إلى المدينة عاملاً براتب يومي غير مضمون لا يكاد يكفيه فيعجز عن دفع الضرائب الباهظة على أرضه فيضطر لبيعها إلى اليهود وقد فشلت هذه الخطة وما تم بيعه كان من ملاكين سوريين ولبنانيين بصورة عامة ولا يتجاوز ٥% من مساحة فلسطين .

الفصل الثاني :

المؤثرات الثقافية : تكلمت فيه عن الحياة الثقافية في فلسطين إبان الحكم العثماني حيث كانت المدارس الحكومية قليلة جداً وكانت تستخدم اللغة التركية حتى في تدريس النحو العربي . وقد قرأتُ الكلام في هذا الفصل إلى أقسام :

الأول : التعليم تكلمت فيه عن نظام التعليم قبل الاحتلال البريطاني وقد كانت مدارس الحكومة العثمانية محدودة وفي المدن الكبيرة فقط والأمية هي الأصل وقد كان للرساليات التبشيرية والمدارس الملية أثر واضح في كثرة المتعلمين ولكنها كانت حرة في اختيار المادة والمنهج وبالطبع لم تكن تعلم من الدين الإسلامي شيئاً لذلك كان يتخرج منها أولاد المسلمين بعد السنين الطويلة من التعليم دون أن يستفيدوا شيئاً عن إسلامهم بل يتخرجون علمانيين وقد قويت هذه المدارس بعد الاحتلال الانجليزي أما مدارس الحكومة فقد زادت وخصوصاً المدارس الابتدائية . أما من يكلون تعليم الاعدادية والثانوية فهم قليلون جداً حيث لا يسمح للطالب أن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة إلا

من كان ترتيبه الأول أو الثاني أو الثالث في فصله وباقي الطلاب يخرجون للحياة العملية وقد كان واضحاً أن الانجليز يقصدون من هذه السياسة التعليمية هو تخريج أفواج من الموظفين والمستهلكين للبضائع الانجليزية ومع هذا فقد كان التعليم في فلسطين أفضل من غيرها من البلاد المجاورة فقد كان ٢٥٪ من الطلاب في الجامعة الأمريكية في بيروت من فلسطين والحق أن هذا يعود لكثرة الرسائل التبشيرية وكثرة المدارس المليئة لكثرة الطوائف غير الإسلامية في فلسطين ولهذا نلاحظ أن نسبة المتعلمين من غير المسلمين في فلسطين تفوق كثيراً مثلتها لدى المسلمين .

الثاني : الطباعة : تكلمت عن منشئها في القدس وأول ما طبع فيها الكتب الدينية وأن الرسائل التبشيرية أول ما طبعت عليها كتبها التعليمية ومن يلقي نظرة على أسماء المطابع ومنشئها يتبين له ذلك بوضوح ... إلى أن كثرت المطابع في مختلف أنحاء فلسطين كان لأغراض تجارية

الثالث : الصحافة : لقد انتعش النشاط الصحفي في فلسطين على يد الرسائل التبشيرية وخصوصاً بعد الاحتلال الانجليزي حيث بلغت الصحف إحدى وثمانين صحيفة حتى عام ١٩٢٩ كما كان لأبناء فلسطين مشاركة صحفية خارج فلسطين سواء بإنشاء صحف أو بالكتابة فيها .

الرابع : الأندية والجمعيات الأدبية : لقد نهضت بها الطوائف الدينية كما يظهر من أول جمعية في فلسطين باسم « سوسنة صهيون » أنشئت سنة ١٨٧٧ ومن استعراض أسماء الجمعيات نلاحظ بوضوح أن معظمها من إنشاء الطوائف والرسائل الأجنبية وقد تنبه المسلمون إلى إنشاء هذه الجمعيات متأخراً فتأسست جمعية تهذيب الفتاة الإسلامية وقد كثرت هذه النوادي والجمعيات كثرة ملحوظة بعد أن تحقق الجميع من فوائدها وشهرت بعض النوادي الأدبية التي كانت تضم الطبقة الممتازة من الأدباء كما يظهر من رسالة الأستاذ سليم سركيس إلى الأستاذ خليل بيدس التي أشاد فيها بما وجدته من نشاط أدبي تمثل هذه الجمعيات التي لا يوجد مثلها في دمشق .

الخامس : الإذاعة : تأسست الإذاعة في فلسطين مبكراً واختارت الشاعر إبراهيم طوقان لإدارة البرامج العربية وفي ٢٩ مارس ١٩٢٦ نقل الأثير لأول مرة صوتاً عربياً هو صوت إبراهيم طوقان وقد كان الناس يتطلعون لوضع الإذاعة في خدمة القضية الفلسطينية وقد أذاع على الناس تحقيقاً أدبياً أن السموأل الشاعر الجاهلي اليهودي كان ذا

نزعة مادية وأن هذه النزعة هي التي دفعته إلى إيثار الذبح لابنه خارج الحصن ولم يكن في الأمر عامل الوفاء وإنما كان ذلك طمعاً في مال جم وعده به امرؤ القيس إذا حفظ ما أودعه عنده من مال وسلاح وقد أذاع هذا التحقيق بنفسه في ٢٠ سبتمبر ١٩٣٦ فاهتاجت الصهيونية وظلت تدس له حتى انتهى الأمر بإقصائه . وتولى بعده الأستاذ عجاج نوحض الذي هدف من برامجه إلى خدمة القضية الفلسطينية حيث وضع سلسلة من المحاضرات موضوعها شخصية فلسطينية ، وأخذ يستدعي كتاباً وباحثين من فلسطين والبلاد العربية لالقاء المحاضرات والبحوث فاستقدم بشارة الخوري وعبد اللطيف الطيباوي والعقاد والملازني وغيرهم وهكذا نلاحظ أن الإذاعة سخرت منذ يومها الأول لخدمة القضية وقد قاومت سلطات الاحتلال ذلك بكل ما تستطيع . هذه هي العوامل المباشرة في نهضة فلسطين الثقافية وقد تفاعلت هذه العوامل مع عوامل داخلية أخرى فولدت نهضة تمثيلية كان رائدها عزيز ضومط الذي لمع اسمه في الأوساط الثقافية الألمانية حيث مثلت روايته « والي عكا » على مسرح بلدية (شترالسون) فنالت استحساناً كبيراً وقد عدوه في الطبقة الأولى من شعراء المانية وهو من أبناء حيفا وقد وضحت أن حكومة الانتداب لم تشجع التمثيل لأن كثيراً من المسرحيات ذات طابع سياسي وطني والذي يلاحظ أن النشاط التمثيلي قد استأثر بنشاط النصارى وذلك لطبيعة تعلمهم في مدارسهم المللية كما ظهر العنصر النسائي في التمثيل لأول مرة في تمثيل رواية « هاملت » لشكسبير التي قامت بها فرقة الكرمل التمثيلية في حيفا حيث مثلت فيها « آسيا خوري وثريا أيوب » .

وازدهرت الترجمة ازدهاراً واضحاً لكثرة الارساليات الأجنبية التي تعلم باللغة الفرنسية والانجليزية والإيطالية والروسية والألمانية واليونانية . إن أول ما ترجم كان من الكتب الدينية سنة ١٨٦٠ حيث ترجم مينا يوسف دباس « مرشد الأولاد » لفرنسيسكو سوافيوس وقد كانت مجلة النفائس التي يصدرها خليل بيدس تترجم القصص والروايات من مختلف اللغات وقد ترجمت عدة أعمال من العربية إلى اللغات الأخرى ومن أوجه نشاط الترجمة ما كان يفعله المجلس المختلط للطائفة الأرثوذكسية حيث أعضاؤه اثنا عشر عضواً منهم ستة من الرهبان وستة من العلمانيين وكان من بين العلمانيين الأستاذ خليل بيدس وكان البطريك يتلو خطابه في المجلس باللغة اليونانية ثم يقوم عضو من الأعضاء ويقرأ الترجمة العربية للخطاب . هذا ولم تقتصر الترجمة على القصص والمسرحيات بل تعدتها إلى طرق التربية المدرسية والنفسية . فقد ترجم الأستاذ أحمد سامح الخالدي عن

الانجليزية كتاب « الطريقة المنشورية في التربية والتعليم » طبع في القدس في ١٩٢٥ وترجم « أهمية التحليل النفسي » طبع في القدس ١٩٤٦ واعتمد في وضع كتابه « أركان التدريس » على كتاب « ارشادات المعلمين » الذي نشره مجلس التعليم البريطاني وطبع في القدس عام ١٩٣٧ وترجم كتاب « الحياة العقلية » لورد زورث كما كان لزوجته عنبرة الخالدي نصيب من الترجمة أيضاً . واحتلت الترجمة عن الفرنسية المرتبة - بعد الانجليزية - الثانية في النشاط الثقافي ويعد الأستاذ محمد روجي الخالدي من أوائل من عنوا بالترجمة من الفرنسية إلى العربية وكان لظهور الأستاذ عادل زعير فاتحة عهد جديد للثقافة العربية على الثقافة الفرنسية فنذ كان في باريس سنة ١٩٣٣ طالباً في الحقوق وهو ينقل الروائع من الثقافة الفرنسية إلى العربية في مختلف المجالات من أدب وسياسة وغيرها فقد ترجم سبعة وثلاثين كتاباً .

وقد خصصتُ عنواناً بارزاً لأثر الإرساليات التبشيرية في الحياة الثقافية في فلسطين وضحت فيه أن الحياة الثقافية في فلسطين قد صبغت بأهداف المدارس التبشيرية فظهر من يفصلون الدين عن الدولة ومن يدعون إلى الرابطة العلمانية . هذا وقد كان النشاط الثقافي في فلسطين يختلف فنونه مظهراً للنشاط التبشيري سواء بمدارسه أو بعثاته الطبية والاجتماعية .

وقد جعلت الفصل الثالث في الحياة السياسية تكلمت فيه عن النظام الإداري في فلسطين زمن الدولة العثمانية ولم تكن فلسطين بمحدودها المعروفة الآن تتبع نظاماً إدارياً واحداً بل قسم منها يتبع ولاية بيروت وقسم آخر يتبع ولاية دمشق وفي عام ١٨٨١ أنشئت متصرفية القدس وصارت تتبع وزارة الداخلية في العاصمة العثمانية مباشرة وقد كانت البلاد تدار من الوطنيين الفلسطينيين سواء في حكم البلاد أو في جمع الضرائب وعلى رأسهم اقطاعيون محليون إلى أن جاء السلطان محمود فجعل مسؤولين أتراك متنفذين فساءت الأحوال لتقرب الوصوليين إليهم . ثم تكلمت عن المسألة الشرقية التي تعني أطباع الدول الغربية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية - الرجل المريض - بحجة حماية الأقليات الدينية وتحرير الشعوب وقد ظهرت المسألة الشرقية واضحة بعد ثورة اليونان على السلطنة العثمانية وبعد حرب القرم عام ١٨٥٣ وبعد ثورة البلغار على السلطنة وقد كانت الأقليات تمارس سلطة الدلال على السلطنة كما يظهر في تقدير اليهود لمهوباتهم من قبل المسلمين في صفد والتي لم يناقش الأمير خليل الشهابي الوالي العثماني صحة المبالغ الخيالية

بل أمعن في أهل صفد عذاباً وتشريداً حتى مات الكثير منهم تحت التعذيب وأرسل وجوههم إلى سجن عكا وقد قرر المبالغة في المنهوبات جرمانوس بحري مبعوث محمد علي باشا لدراسة هذه المنهوبات وأخيراً لم يجد محمد علي باشا بداً من الاذعان لمطالب قناصل بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا وأمر ببيع أملاك المسلمين في صفد لتعويض اليهود عن منهباتهم ، هنا وقد أيقظت المسألة الشرقية شعوب المنطقة ونبهتهم إلى أسباب غلبة الغرب عليهم فنهم من دعا إلى وجوب اقتفاء الغرب في الصناعة والفكر ومنهم من دعا إلى تعلم الصناعة والاحتفاظ بالفكر الإسلامي وهم علماء الإسلام عامة وتكلمت عن الجامعة الإسلامية وبينت أهميتها بالنسبة للدولة العثمانية لأنها الرابطة الوحيدة التي تجمع الشعوب العثمانية . وقد كانت إسلامية الدولة العثمانية مثيرة لعداء الدول الأوروبية لها في الدرجة الأولى كما كان السلطان عبد الحميد يلوح بعضا الجامعة الإسلامية كلما أهدق بدولته خطر الدول الطامعة التي كانت تحكم بعض الشعوب الإسلامية فكانت تخاف من ثورة هذه الشعوب إذا سمعت ببناء الخلافة الإسلامية للالتفاف حول العلم النبوي وقد كشفت لأول مرة - فيما أعلم - عن عزم اليابان للدخول في الإسلام كما ظهر مما نشرته صحيفة « ثمرات الفنون » التي كان يصدرها الشيخ عبد القادر القبانى في بيروت وبطلب من اليابان أصبحت الصين تعامل المسلمين فيها على قدم المساواة مع البوذيين . ويبدو أن الخلافة الإسلامية كانت حقيقة مخفية أمام الدول الطامعة في الدولة العثمانية لذلك أخرت اقتسامها للسلطنة ما لا يقل عن نصف قرن ولكن السلطنة العثمانية لم تستفد منها في جمع وتقوية الشعوب الإسلامية نفسها . ولعل الحالة السيئة التي وصلتها الدولة العثمانية سدت عليها طرق الاستفادة من كل الفرص التي تملكها فلم تستطع أن تستفيد من عطف المسلمين عليها في نهضتها بل ظلت الخلافة الإسلامية مجرد قضية معنوية تلاشت عند أول امتحان لها وهو سقوط دار الخلافة بسقوط السلطان عبد الحميد ومجيء حزب الاتحاد والترقي إلى الحكم وهو معروف بعلاقته بالماسونية . ثم تكلمت عن السلطان عبد الحميد الذي يعد بحق أقوى سلاطين آل عثمان فقد شهد له معاصروه بالحنكة والسياسة مع التقوى وقد استطاع أن يؤخر اقتسام ممالك السلطنة مدة حكمه حيث وصل إلى الحكم بعد خلع عمه السلطان عبد العزيز الذي أغرق الدولة بالديون الكثيرة وقد أوليت اهتماماً خاصاً للسلطان عبد الحميد لأنه يمثل الوجه الإسلامي الأخير لدولة الخلافة وتكلمت عن المؤثرات الخارجية على سياسته وهي أربع مؤثرات .

الأول : الخطر الأوروبي .

الثاني : تدخل الدول في شؤون السلطنة .

الثالث : الوعي القومي عند عناصر الدولة .

الرابع : فراغ الخزانة .

كما تكلمت عن سياسته الداخلية التي تمثلت في المظاهر التالية :

أولاً : السلطة العليا إلى المايين .

ثانياً : النضال بين السلطان والدستوريين .

ثالثاً : سياسة التفرقة بين العناصر .

رابعاً : الخلافة والاتحاد .

وقد كان السلطان مسوقاً بسياسته الداخلية بسبب من المؤثرات الخارجية ولهذا شهر عند عامة المثقفين بالطاغية لأنه فوت الفرصة بأجراءاته الإدارية على الدول الطامعة التي أرثت نار الحقد لدى جملة المثقفين العرب الذين درسوا في مدارسها وتربوا على مناهجها فأصبحوا يرددون في صحفهم ونواديهم أن السلطان عبد الحميد طاغية وسفاح وقد كان من الواضح لدى العناصر العثمانية التي بقيت متمسكة بالرابطة الإسلامية أن الذين يرددون هذه الاتهامات هم من الذين درسوا في المدارس الأجنبية التي كانت تقوي عنصر الانفصال بتكوين حالة مظلمة للسلطان ورجاله من جهة وإثارة التمرعات العرقية والعنصرية من جهة أخرى ولكن المنصفين من الذين عاصروا الأحداث شهدوا للسلطان بعدم تفرقه بين عناصر شعبه وعطفه عليهم مثل الأستاذ محمد جميل ييههم ومن هوية الذين ذموا السلطان عبد الحميد تتبين مقاصدهم فالأستاذ ولي الدين يكن كان عضواً في حزب الاتحاد الترقى وقد نقاه السلطان إلى سيواس وله قصائد ألقاها في حفل نيازي في القاهرة احتفالاً بسقوط السلطان عبد الحميد وقد صرح فيها بفضل الماسونية وملك الانجليز على اسقاط السلطان كما اعترف بأنه كان يخلتلق التهم والافتراءات ضد السلطان حتى يشوه صورته ويؤلب عليه وعلى أية حال لم أجد مثقفاً واحداً بثقافته الإسلامية قد هاجم السلطان عبد الحميد بل نجد الذين يؤيدونه من العلماء وذوي الثقافة الإسلامية وبهذا نستطيع أن نتبين شخصية السلطان عبد الحميد وشخصية أعداءه وشخصية محبيه . ثم تكلمت عن السلطان عبد الحميد والقضية الفلسطينية وجعلته شهيداً الأول لأنه عارض بشدة محاولات اليهود المتكررة والمغرية في الحصول على فلسطين وطناً قومياً لهم مع حاجة

الدولة إلى المال والعون ولكن عاطفته الإسلامية لا تقبل المساومة ولذلك عمل اليهود على سقوط السلطان عبد الحميد العقبة الأولى أمامهم والعقبة الثانية قيصر روسيا لذلك عملوا على اسقاطه لأنه كان يعد نفسه حامياً لقبر المسيح وقد نهجوا لاسقاط السلطان عبد الحميد عدة طرق منها إثارة القلاقل والفتن الداخلية عليه وتشويه صورته أمام الرأي العام العالمي وتفسير تمسكه بالإسلام بأنه رجعية وتحنط واغراء الدول الأخرى بالدولة العثمانية حتى لا تدعها تفكر في اصلاح نفسها وبناء قوتها وتوجيه نشاط الماسونية التركية نحو الاستيلاء على السلطة وتم لهم ما أرادوا وبذلك سقط الوجه الإسلامي لتركية وظهر وجهها العنصري القومي ونادى الاتقاليون بالتركك فثار عليهم ما تبقى لهم من القوميات التي يحكونها وَجَّ بِتركيا بالحرب العالمية الأولى وأخيراً انهزمت منع المانيا واخْتُلت وصدر وعد بلفور وكان لليهود ما أرادوا وأقاموا دولتهم المزعومة ، رحم الله السلطان عبد الحميد فقد ضحى بعرشه ولم يضح بفلسطين فانطلقت قصائد الشعراء ومقالات الأدباء بين مشفق وشامت وتكشفت كثير من الحقائق حيث جاهر أعضاء الاتحاد والترقي بامسويتهم وبقي الخلقون للسلطان عبد الحميد أوفياء له . ثم تكلمت عن الحركة العربية الحديثة وضحت فيها أن لا فرق بين العربية والإسلام كما تمثل في نظام الولاء وفي عدم التفريق بين المسلمين مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم .

ولم يظهر العرب عداءهم للدولة العثمانية بصورة سافرة إلا بعد أن أعلن حزب الاتحاد والترقي الدعوة الطورانية التي أدت إلى تفتيت الدولة العثمانية حيث أخذت كل قومية تقوي نفسها حباً في بقائها أمام الدعوة الجديدة كما أخذت الدول الطامعة تقوي روح الاستقلالية مدفوعة بأطباعها المختلفة ، ولما دخلت تركيا الحرب حاولت جمع شعوبها بالدعوة إلى المساواة بين رعاياها ولكن الفرصة قد فاتتها حيث وطئت نفسها على الثورة وساعدت الحلفاء ولما خسرت الدولة العثمانية خسرت كل شيء ونحن لا ننكر أن بداية الوعي العربي تمثل بمحركات الاصلاح التي اتخذت الدين قاعدة لها مثل دعوة الاصلاح التي قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية أما في القرن التاسع عشر فقد اتخذت من توضيح الإسلام بروح عصرية والاستفادة من المدنية الغربية كما يظهر في حركة عبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده وأخيراً اتخذت طابع الحركة القومية المعروفة لدى الأمم الأخرى وقد كان واضحاً لدى المؤرخين أثر الفكر الأوروبي في القومية العربية الحديثة وأنها مستفادة من تجربة الأوروبيين القومية ويبدو أن السلطان عبد الحميد قد تنبه لهذا الوعي ففكر في اقرب العرب وجعلهم خاصته ولكن القوة الغربية المؤيدة

لدعاة القومية كانت أقوى من خطط السلطان وجاءت قضية التريك لتزيد في الدعوة القومية قوة وتأيداً حتى أصبح الاستقلال عن الدولة العثمانية مطلباً إسلامياً وقومياً .

ولما اشتركت تركيا في الحرب العالمية الأولى إلى جانب المانيا أوقفت الأحزاب القومية نشاطها المعادي وأرسل الشريف حسين العلم النبوي إلى جمال باشا الوالي التركي على سوريا وسيرت تركيا حملتين فاشلتين بمساعدة الألمان لتخليص مصر من الانجليز وبقي الشريف حسين يتربص الموقف حتى ظهر واضحاً أن مستقبل الحرب للحلفاء وعندها ثار على الدولة العثمانية أملاً بعود الانجليز الذين قدموا له ورقة بيضاء مذيلة بالختم البريطاني ليكتب عليها ما يشاء من شروط ومطالب . وكان انضمام الشريف حسين للحلفاء تجسيدا للمشاعر العربية التي بنيت على أسس ثقافية واجتماعية أسهمت في تكوينها جهود الحلفاء عن طريق سفاراتهم وبعثاتهم التثويرية كما أن القيادة العربية كانت تتطلع إلى حياة أفضل بمساعدة الحلفاء المعروفين - يومئذ - بنزعتهم للتقدم والحرية ومع هذا فقد وجد تيار إسلامي مضاد لثورة الشريف حسين ، لا يسوّغ مناصرة الكفار على المسلمين منهم مصطفى كامل وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وشكيب أرسلان وغيرهم فقد كانوا يكتبون القصائد في تحريض السلطان على الشريف حسين ذاكرين ما كان يلاقيه الحجاج من مصاعب لأنه لم يستطع أن يضبط الأمن في ربوع الحجاز وقد أكد كثير من التحق بثورة الشريف حسين أنه قد غرر به الانجليز وخدعوه مثل المغفور له رمضان باشا الشلاش والرئيس السوري السيد الحكيم والنجل الأكبر للشريف حسين والحقيقة أن وقوف الشريف حسين إلى جانب الحلفاء لم يكن السبب في انتصارهم لأن مصير المعركة قد تقرر على الجبهة الألمانية الروسية وباشتراك أمريكا ضد المانيا وقد كان الرأي العام العربي معاً ضد تركيا ولم تكن بريطانيا وفرنسا قد مارستا تجربة في الشرق الأوسط ولو لم يشترك الشريف حسين مع بريطانيا المنتصرة في الحرب للحصول على الاستقلال لكان اللوم عليه أشدّ بحجة أنه قد ضيع فرصة العمر أمام العرب في الاستقلال .

وإن تركت الدولة العثمانية سوف تقسم أمام الدول المنتصرة فلم يكن هناك مفر من النتيجة المحتومة ولكنها كانت درساً عملياً لمن تعلموا في البلاد الغربية ومدارسها وارسالياتها فأعطوها ثقمتهم وولاءهم باسم الحرية وإذا بها تمارس كل صنوف الاضطهاد وكل ما ينسب للعثمانيين من ظلم واستبداد لا يساوي شيئاً من فظائنها التي كان ختامها إضاعة فلسطين وإقامة إسرائيل وقد أفردت عنواناً مستقلاً لضحايا فلسطين لأهميته وضحت فيه

الأسباب المباشرة وهي تبني بريطانيا - الدولة المنتدبة - لفكرة إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين وتنفيذها لها بل وضع فلسطين في أوضاع اقتصادية وثقافية وسياسية تمكن من إنشاء الوطن القومي كما جاء في البند الثاني من صك الانتداب والسبب غير المباشر وجود روسيا القيصرية والسلطان عبد الحميد ولما تم للصهيونية اسقاطها أصبح الطريق خالياً لهم وقد قامت في فلسطين عدة ثورات عام ١٩١٩ و ١٩٢٠ و ١٩٢٢ وقامت عدة مؤتمرات للفلسطينيين قرروا في جميعها رفضهم التعامل مع الحكومة البريطانية التي انحازت في تحقيقاتها عقب كل ثورة وأن الهجرة مستمرة وقرر المؤتمرون أن فلسطين هي الجزء الجنوبي من سوريا وقامت المظاهرات الصاخبة في وجه اللورد بلفور ١٩٢٥ لافتتاح الجامعة العبرية في القدس ولما سافر إلى دمشق استقبلته دمشق بمظاهرات صاخبة أيضاً وكانت ثورة ١٩٢٩ قمة في العنف حيث اشتبك الفلسطينيون مع اليهود في عدة مناطق من قرى فلسطين وقتل من الطرفين الكثير وكانت بريطانيا تزود اليهود بالسلاح والعصي وقامت المحاكمات بعدها لتحكم على عشرين فلسطينياً بالاعدام والسجن على ٨٠٠ منهم لعدة سنوات وحكمت على يهودي واحد بالاعدام لأنه مثل إمام جامع في حيفا مع أسرته وقد قضى الشرطي القاتل بعض السنوات في السجن ثم أطلق سراحه .

وقد كانت بريطانيا تكوّن لجناً لدراسة الوضع وتخرج بقرارات مخدرة وغير صريحة وسرعان ما تعود الثورة مرة أخرى حتى جاء عام ١٩٣٦ وأضرب الفلسطينيون فيه ١٨٦ يوماً دون أن يمارسوا الحياة العامة وقد كان له أبلغ الأثر على بريطانيا حيث لم تجد من تتعامل معه ولكن الاضراب أنهى بوساطة بعض الزعامات العربية . وفي مساء ١٩٤٨/٥/١٤ أعلن المجلس الوطني اليهودي قيام الدولة اليهودية (إسرائيل) وتولى دافيد بن جوريون رئاسة الحكومة وتولى فايتزمان رئاسة الدولة وبعد دقائق من اعلان قيام إسرائيل اعترفت الولايات المتحدة برئاسة هاري ترومان بهذه الدولة وكان الاتحاد السوفيتي ثالث دولة معترفة . وفي ١٩٤٨/٥/١٥ دخلت الجيوش العربية السبعة لتتخذ فلسطين وخاضت معارك مشرفة مع العصابات اليهودية ولكن سياسة التفاوض والهدنة أبطلت قوة هذه الجيوش ووقعت أربع اتفاقات هدنة بين مصر ولبنان والأردن وسوريا من جهة وبين « دولة إسرائيل » من جهة أخرى وضاعت فلسطين ﴿ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ صدق الله العظيم .

د. عيسى بن محمد الماضي

(الفصل الأول)

المؤثر الاقتصادي :

فلسطين بلد زراعي من الدرجة الأولى فقد كانت الحاصلات الزراعية هي عماد الاقتصاد الفلسطيني شأن باقي البلاد العربية وكان ثلث أهالي فلسطين يعيشون على الزراعة وتبلغ مساحة الأراضي الزراعية مليون دونم أي ثلث مساحة البلاد ومن أهم ثروات فلسطين :

١ - الثروة النباتية : وهي :

أ (الأحراج فقد كانت المساحة التي تكسوها الغابات حتى أواخر عهد الانتداب ٣٪ من مساحة البلاد .

ب (المزروعات أهمها الحمضيات التي كانت تزرع على الساحل وتقدر مساحتها بـ (٣٠٠) ألف دونم وقد قدر عدد أشجار البرتقال قبل النكبة بـ ١٥ مليون شجرة زاد انتاجها السنوي على ٧٠٠ ألف طن .

جـ) الحبوب وتعتمد في زراعتها على مياه الأمطار ويقدر متوسط ما تنتجه الأرض الفلسطينية من القمح والشعير والسمسم والذرة بـ ٣٠٦ ألف طن سنوياً .

د (الزيتون ويصل محصوله حوالي ٤٥ ألف طن سنوياً وقد ينخفض إلى ٥ آلاف طن .
هـ (الخضروات ومعظمها يعتمد في زراعته على مياه الآبار وفلسطين مكتفية ذاتياً منها ما عدا البطاطس - وتوجد فيها الفواكه بأنواعها والتبغ .

٢ - الثروة الحيوانية :

اهتم المزارع الفلسطيني بتربية الأبقار والأغنام والماعز ويقدر عددها بربع مليون رأس لكل منها وقد كان لقرى ومدن فلسطين الساحلية نشاط هام في صيد الأسماك خصوصاً سواحل بحيرة طبرية^(١) .

(١) جغرافية فلسطين ص ٤٤ .

٣ - الثروة المعدنية :

وأهمها الفوسفات والكبريت ومواد البناء وهي الصخر الكلسي والجير وهناك الأملاح المعدنية وأهمها ملح الطعام والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم وجميع الأملاح موجودة في البحر الميت .

٤ - الثروة الصناعية :

لم تنشأ في فلسطين صناعة معدنية لعدم اكتشاف الحديد والفحم الحجري وقد قامت صناعات خفيفة تعتمد على الخامات الموجودة في البلاد وأهمها استخراج الزيوت من الزيتون والسمسم وصنع الحلوى بأنواعها وطحن الحبوب وصناعة التبغ وصناعة الصابون والمنسوجات القطنية والحريرية وصناعة التحف الخشبية من خشب الزيتون وهناك صناعات أخرى مثل الأسلاك والأنابيب والمسامير وشفرات الحلاقة ولكن على نطاق ضيق^(١).

هذا وإن كانت الصفة الرئيسية للاقتصاد الفلسطيني قائمة على الزراعة ولكن الصناعة التي نشأت فيها لا يستهان بها بالنسبة للبلاد المجاورة^(٢).

٥ - التجارة :

كان لموقع فلسطين المتوسط بين ثلاث قارات أثر في نشاط التجارة فيها منذ أقدم الأزمنة وكانت تصل إليها البضائع من الشرق الأقصى ومن مصر والحبشة لتنقل منها إلى أوروبا وقد كانت القوافل العربية القادمة من اليمن والجزيرة العربية تلتقي في غزة منذ آلاف السنين^(٣).

وكان ميناء حيفا وعكة ملتقى قوافل الشرق ومنها تنطلق السفن محملة بالبضائع المختلفة إلى موانئ البحر المتوسط وقد كان لتجار حيفا وعكة وكلاء في فرنسا وإيطالية وأسبانية واليونان وكان التجار الأجانب من إيطاليين ويونانيين مسيطرين على التجارة الخارجية بفضل الامتيازات التي كانت تمنح لحكوماتهم . إلى أن صدر القرار السلطاني لعام

(١) جغرافية فلسطين ص ٤٣-٥٠ .

(٢) مجلة الطريق ج ١٦ ص ٢١ .

(٣) التعليم والتحديث في فلسطين ص ٣٥ .

١٨٥٦ والذي قبل وصاية الدول الأوربية على الأقليات المسيحية في الشرق^(١) ومنحهم بعض الامتيازات فأقبل المسيحيون الوطنيون على التجارة الخارجية وساعدهم على ذلك انتشار العلم عن طريق الارساليات الأجنبية واتقنهم للغات الأوربية . كما أن الضغط الأوروبي على الدولة العثمانية جعلها تقبل برسوم جركية زهيدة وقد استغل موظفو القنصليات الأجنبية من الوطنيين في المدن العثمانية والشرق عامة وكلهم من المسيحيين وظائفهم لاستيراد بضائع باسم القنصلية وبيعها باسمهم وذلك تهريباً من دفع رسوم الجمر أو الاسراع في ادخال السلع دون دفع رشوة وزاد من ثراء التجار المسيحيين اهتمام مصانع الحرير في مدينة ليون بالانتاج اللبناني السوري عامة خصوصاً ما بين ١٨٤٥-١٨٨٠ فكانوا هم الوسطاء لتصدير هذا الانتاج من خلال احتكاكهم بالأسواق الأوربية وقد أنشأت الارساليات المسيحية خصوصاً الفرنسية صفوفاً لدراسة العلوم التجارية .

وقد استفاد عدد كبير من العائلات المسيحية من الظروف المواتية التي مكنتها من الدخول في جميع المجالات الاقتصادية الممكنة^(٢).

هذا وقد كانت الحمضيات تشكل ٧٠٪ من صادرات فلسطين وهي عماد الاقتصاد الفلسطيني ثم الصابون والبطيخ والشعير والذرة والسمسم . أما الواردات فهي المنسوجات والآلات والمأكولات .

التجارة الداخلية :

بين المدن والقرى حيث كانت تقام أسواق أسبوعية مثل سوق الاثنين في اللد وسوق الأربعاء في الرملة ويسان وسوق الخميس في المجدل وغيرها^(٣).

طرق المواصلات :

يوجد في فلسطين مختلف طرق المواصلات فالسكك الحديدية تمتد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وهناك خطوط داخلية أخرى يبلغ طول هذه الخطوط ٥٨٣ كم وجميع هذه الخطوط أنشئت في العهد التركي وفي عهد الانتداب البريطاني لم يزد أي

(١) التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني ج١ ص ٢٥ .

(٢) التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني ج١ ص ٣٦-٣٧ .

(٣) تاريخ فلسطين ص ٣١٠ .

شيء وهناك موانئ مهمة في حيفة وياقة وغزة وكان في فلسطين ثلاثة مطارات هي مطار اللد ومطار غزة ومطار قلندية في القدس .

الاقتصاد الفلسطيني قبل الاحتلال الانجليزي :

كانت فلسطين معرضاً تجارياً لسلع و بضائع دول أوروبية شأنها شأن باقي البلاد العثمانية فقد كانت المعارض التجارية المتجولة تطوف الموانئ تعرض المصنوعات الغربية بأنواعها^(١) وكانت التجارة مقيدة بسلاسل الامتيازات الأجنبية ومغلولة بأغلال المذاهب الدينية التي كانت مدعاة للتدخل الأجنبي في شئون الدولة العثمانية وكان أصحاب المذاهب الدينية يمتنعون بامتيازات كثيرة ويعفون من دفع بعض الضرائب في حين أن المتوطن العثماني المسلم تقع على كاهله ميزانية الدولة العثمانية كلها فقد شاهد عالم الآثار لورنتس نفسه كيف أن أحد المشرفين على أملاك آل سرقق قرب الناصرة يهدم بمساعدة الجند بيت أحد الفلاحين لأنه لم يستطع دفع الديون إلى صاحب الأرض كما ألقى القبض على الفلاح وتركت أسرته في العراء وعلى الرغم من أن أكثر هذه الحوادث هذه جرى في حوالي سنة ١٨٨٠ لكن ظلت هذه الحالة كما هي حتى الحرب العالمية الأولى^(٢) وقد أدى هذا الوضع إلى العجز عن السيطرة على اقتصاد البلاد بشكل عام وفلسطين بشكل خاص لكثرة المذاهب الدينية وللأطماع الاستعمارية المركزة فيها لموقعها الاستراتيجي والديني الذي أفادها تقديساً من الأديان الثلاث .

ومن مظاهر العجز أنها كانت غير قادرة على نشر تقودها في مملكتها من توحيدها وترويجها بسعرها القانوني . لذا أخذ كل بلد يتداولها كما يريد وتفاوتت الأسعار وتعددت الموازين واختلفت المكايل .

فالمسافر الذي يزور فلسطين يحتاج إلى درس طويل واختبار كبير لمعرفة النقد وأسعاره وفهم الموزونات والمكيلات ... فكيف به إذا ساح في جميع الأقطار العثمانية^(٣) فإذا كانت الفوضى قد بلغت هذه الدرجة في الموازين والمكايل والأسعار .. فكيف تكون الحالة بالنسبة للجوانب الاقتصادية الأكثر أهمية ؟ أضف إلى هذا أن الضرائب كانت تُجبي

(١) مجلة النفائس العصرية ج٤ مجلد ٢ - ١٩١٠ - ٢٤٢-٢٤٤ .

(٢) تقلأ عن كتاب التعلم والتحديث في فلسطين ص٥٢ بتصرف .

(٣) تاريخ فلسطين ص٢٥٧-٢٦٠

بالمزاد العلني مما يعطي الوالي التركي في المدينة وأمراء الإقطاع في القرية الحرية في استرداد ما يدفعونه من أتاوات للحكومة من الفلاحين وزيادة ...

وتصور كتب الرحالة أوليفنت ماس حالة الفلاحين في العقدين الثامن والتاسع من القرن التاسع عشر أدق تصوير فقد حدثه الأهالي عن فقرهم الزائد وشاهد هو نفسه نفوذ الملتزمين واضطهادهم للفلاحين وتآمر شيوخ القرية مع الملتزم في افقار القرويين وسلب الأرض مع اعطاء الشيخ حصة منها^(١).

والرحالة أوليفنت أرسلته وزارة الخارجية البريطانية لدراسة إمكان استيطان اليهود في فلسطين فدعا بحماس لهذا التوطين على الرغم من تقديره للفلاحين العرب إلا أن النظرة الاستعمارية أوجت له بإمكان الاستفادة من هذه اليد العاملة في المزارع المقبلة وأما العنصر النصف الحضري فيمكن عزله كما حصل في الولايات المتحدة^(٢) وكندة .

الاقتصاد الفلسطيني بعد الاحتلال الإنجليزي :

لقد تبدلت الأحوال في فلسطين بعد الاحتلال الإنجليزي ونشطت الصناعة نشاطاً ملحوظاً وتركزت بأيدي عدد قليل من أصحاب رؤوس الأموال لأنها اتجهت نحو الاحتكار وتركيز الثروة وقد أصبحت نسبة عدد المشروعات الصناعية الكبيرة في فلسطين عام ١٩٣٧ ٢٧,٧٪ من مجموع الصناعات ونسبة المشروعات الصناعية الصغيرة ٧٢,٣٪ ونسبة عدد العمال المشتغلين بالصناعات الكبيرة ٧٣٪ وفي الصغيرة ٢٧٪ وقد بلغ عدد المؤسسات الصناعية في فلسطين عام ١٩٢٩ (٢٤٧٥) مؤسسة وزاد العدد إلى (٥٦٠٦) عام ١٩٣٧ وتضاعف رأس المال إلى خمسة أمثال وتضاعف الانتاج إلى أربعة أمثال .

وقد أصبحت فلسطين مركزاً لتوظيف رؤوس الأموال الأجنبية وأنشئت عدة بنوك منها البنك الإنجليزي الفلسطيني والبنك الصناعي وبنك العمل .

وقد كانت تشتترط هذه البنوك الاشراف على المؤسسات الصناعية لأجل مدها بالقروض اللازمة .

وبعد الحرب العالمية الثانية أنشئت مصفاة البترول في حيفا وقد تحسن الاقتصاد في

(١) المرجع السابق ص ٢٥٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥

أثناء الحرب الثانية نتيجة لاختفاء أملاح البوتاس التي تصنع منها المفرقات فتضاعف دخل الفلسطينيين منه وارتفع سعره إلى أربعة أمثال^(١).

وكان نصيب العرب من هذه الصناعات قليلاً فنسبة المشتغلين في صناعة الصابون العربية ٥% من السكان وقد كانت السياسة البريطانية تتجه إلى دعم الصناعات اليهودية عن طريق تهيئة الظروف الصعبة أمام الصناعات العربية^(٢) وقد بلغت أرباح شركة (تنوفا) التي كانت تحتكر الاتجار في المنتجات الزراعية في المنطقة اليهودية مليوناً من الجنيئات الفلسطينية وقد كانت الصناعات الفلسطينية تقع تحت السيطرة الملكية لرأس المال الأجنبي .

وقد كانت شركة بوتاس فلسطين الإنجليزية ومالكة لشركة فلسطين للكهرباء ، وكان الاشراف على مالية البلاد من عدة شركات بنكية معظمها انجليزية وكان المسيطر الفعلي على تداول النقد في فلسطين هو (بنك باركلينز) في لندن^(٣).

ولكن هذه النهضة الاقتصادية لم تستفد منها البلاد كثيراً لأنها كانت موجهة لخدمة القضية الصهيونية من أولها ومن جهة أخرى كانت استثماراً انجليزياً لأجل الربح وليس لانعاش البلاد وتقدمها إذ أن البلاد لم تكن تسير على سياسة اقتصادية سليمة ... إذ أن دخول السلع الحديثة سوق فلسطين وتقبل الناس لهذه السلع وما نتج عنه من تغيير في الاستهلاك أجبر العديد من المصانع على اقفال أبوابها وترك العديد من الحرفيين لعملهم ، كما أن السياسة الاقتصادية الاستعمارية أوقفت أبواب الأسواق العربية المجاورة أمام الصناعة الفلسطينية التقليدية ويؤكد تقرير سمبسون هذا الوضع وفي الوقت ذاته كانت البطالة منتشرة بكثرة آنذاك بين الصناع العرب^(٤) وتفاقت الحال بعد ١٩٣٠ إذ بدأت العصابات الصهيونية بتشريد آلاف العمال العرب لتشغيل العمال اليهود مكنهم وأكثرهم من المهاجرين الجدد ونتج عن هذا الوضع انخفاض في الأجور نتيجة المناقصة الكبيرة بين العمال .

ولتكوين صورة واضحة عن الوضع من مصادر أصيلة يستحسن الاعتماد على تقرير سمبسون عام ١٩٣٠ وشهادة جورج منصور أمام اللجنة الملكية عام ١٩٣٧ .

(١) مجلة الطريق مجلد ١٩ ص ٤٠٣ .

(٢) مجلة الطريق مجلد ٥ ص ٢٦-٢٧ .

(٣) مجلة الطريق مجلد جزء ١٦ ص ٦-٥ ، ٢١-٢٢ .

(٤) تقرير سمبسون ص ١٩٢ .

يقول الخبير سيمسون في تقريره « أمام هذه المعلومات المستقاة من مصادر مستقلة لا مناص لنا من الاستدلال بأن البطالة بين العرب في الوقت الحاضر أصبحت من المظاهر الخطرة في حياة البلاد الاقتصادية ولقد عرض علي أناس معلومات كثيرة من تلقاء أنفسهم عن حالة أجور العمال من العرب فظهر لي أن البطالة قد أثرت في مستوى المعيشة وهذا أمر طبيعي بين العمال غير المنظمين ويستدل من هذه المعلومات على أن أجرة الصناع الحاذقين والتجارين والنحاتين قد انخفضت نحو ٥٠٪ وأصبح الصانع الماهر يشتغل به ١٥ قرشاً إلى ٢٠ قرشاً في اليوم أما العامل والفلاح فيقتنع بثنائية إلى عشرة قروش وقال لي حاكم مقاطعة القدس إن أسعار العطاءات لمناقصة بلدية القدس في سنة ١٩٣٠ كانت نصف أسعار سنة ١٩٢٩ وقد نجم هذا النقصان في الأكثر عن سقوط أجر العامل العربي ومن يسمع أقوال العمال العرب يتأثر لأحوالهم ويرثي لهم فقد كان كثيرون منهم في الأيام السالفة يتمتعون بقسط وافر من البحبوحة والرخاء فساءت أحوالهم في السنوات الأخيرة^(١).

أما شهادة النقابي جورج منصور فكانت دقيقة وشاملة تعطي صورة عزنة لوضع الطبقة العاملة الكادحة ، فقد جاء في التقرير الذي قدمه :

« فقد قمنا بإحصاء آخر في شهر تشرين الثاني نوفمبر سنة ١٩٣٦ لألف عامل في يافا لمعرفة معدل دخل العامل الشهري فحصلنا على النتائج الآتية :

- ٧٠٠ عامل دخل العامل منهم الشهري يقل عن ٢,٧٥٠ من الجنيئات .
- ١٧٠ عاملاً دخل العامل منهم الشهري يقل عن ٤,٢٥٠ من الجنيئات .
- ٧٠ عاملاً دخل العامل منهم الشهري يقل عن ٦,٠٠٠ جنييه .
- ٤٥ عاملاً دخل العامل منهم الشهري يقل عن ١٢,٠٠٠ جنييه .
- ١٥ عاملاً دخل العامل منهم الشهري يقل عن ١٥,٠٠٠ جنييه .

وقمنا بإحصائية أخرى لمعرفة نسبة المدينين فوجدنا أن ٩٥٪ من العمال مدينون إما لأصحاب الأعمال أو لأصحاب الحوانيت .. وقد تساءلنا كيف يمكن للعامل أن يتدبر معيشته على الرغم من ضالة هذه الأجور فوجدنا أن الأسرة فيها عدد من المنتجين وهؤلاء جميعاً يتعاونون في الانفاق على البيت وإذا كانت الأسرة خلواً من الأفراد المنتجين فإن

(١) تقرير سيمسون ص ١١٤ .

المرأة وأطفالها يشتغلون خدماً في البيوت وأجرة المرأة الشهرية تبلغ من جنيه إلى جنيهين والولد من ٢٥٠ مليم إلى جنيه . أما تكاليف المعيشة في يافا فعالية جداً وقد قدرت الحكومة النفقات التي تحتاجها الأسرة المتوسطة من عشرين مادة غذائية ضرورية فوجدت أنها بلغت ٥,٥ من الجنيهات وإذا أضفنا إلى هذه ثلاثة جنيهات للسكن وجنيهاً ونصفاً للملبس وجنيهين للنفقات الإضافية (التسليّة/ المرض/ النقليات) وجدنا الأسرة المتوسطة تحتاج إلى (١١,٥٠٠ جنيه) على أقل تقدير وهذا معناه أن ٩٨٪ من طبقة العمال يعيشون في حالة دون المتوسط بكثير وهذا الرقم يفسر أيضاً السبب في اتخاذ العمال السراييب والتخاشيب مسكناً لهم والاكتفاء بالمواد الغذائية الفقيرة طعاماً لهم^(١).

ولا بد من القول أنه منذ اليوم الذي وُضِعَتْ فيه فلسطين تحت الانتداب البريطاني انتهجت في البلاد سياسة اقتصادية واجتماعية يمكنها من تطبيق نصوص وعد بلفور التي تلزم الدولة المنتدبة بوضع فلسطين في احوال تمكنها من إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين وكانت أولى تلك المحاولات أن عينت « هربرت صموئيل » مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين وهو أحد زعماء الصهيونية في بريطانيا . وتحت وطأة الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تعيشها البلاد أمرت الحكومة بتكوين «لجنة لدراسة أحوال المزارعين الاقتصادية في فلسطين . لتقدم تقريرها السنوي إلى جامعة الأمم^(٢)» برئاسة و.ج. جونسون . ل أندروز مفتش منطقة نابلس وأت . أ . ليز مفتش منطقة حيفا وغيرهم من كبار الموظفين الانجليز في فلسطين . وقد نشر الاعلان عن اللجنة في الجريدة الرسمية عدد ٢٥٨ المؤرخ في «آيار سنة ١٩٣٠^(٣)» . وقد تجولت اللجنة في مختلف أنحاء فلسطين وأقامت دراستها على القرى المذكورة في إحصاء ١٩٢٢ وعددها ٨٤٤ قرية وقد ورد في ذلك الإحصاء أن عدد سكان فلسطين يبلغ ٧٥٧١٨٢ نسمة منهم ٢٨٩٥٣٤ من سكان القرى عدا مناطق العشائر وتبين اللجنة أن معدل الزيادة السكانية في الريف بلغت $\frac{1}{3}$ ٣٣٪^(٤).

(١) الشهادات الأساسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين ص ٢٨٧-٣٠٢ .

(٢) النظام الاقتصادي في فلسطين سعيد حمادة المقدمة .

(٣) حكومة فلسطين تقرير اللجنة التي عينت لدرس حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين والتدابير التي تتخذها الحكومة بشأن الضرائب بالنسبة لتلك الحالة ص أ .

(٤) المصدر السابق ص ٥ .

ونحن لا يمكننا في هذا المقام أن نُفَصِّل ما أوردته اللجنة من مختلف التقارير عن أحوال المزارعين في الريف الفلسطيني ولذلك نكتفي بالإشارة إلى التقارير التي تبين المعوقات القائمة في طريق تقدم المزارع الفلسطيني وأهمها الضرائب الفاحشة ونظام ملكية الأراضي ثم إهمال الدولة للمزارع من حيث تقديم القروض إليه أو إرشاده للزراعة الحديثة والمنافسة الأجنبية لمحاصيله وقد ختمت اللجنة تقريرها بتوصيات أهمها :

أ - على الحكومة أن تعتمد إلى القيام بتجارب زراعية على مرأى من المزارعين تدرب القرويين على اتباع أساليب زراعية أفضل من التي يتبعونها الآن وأن تعين هيئة استثمارية لإيجاد الأسواق كما يعهد إليها باسداء النصح والمشورة للمزارع بشأن تصريف حاصلاته وبيعها .

ب - وجوب تأسيس هيئات تعاون في القرى يعهد إليها بإصدار قروض زراعية وبعدئذ شراء اللوازم الزراعية وتحسين الزراعة في القرى وإيجاد أسواق للحاصلات وتعيين خبير لاسداء النصح للحكومة بشأن الطرق التي تؤدي إلى تحقيق هذه الغاية .

ج - التخفيف قليلاً عن دافعي الضرائب في الأرياف اعتباراً من أول شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٠ بتزيل ضريبة العشر إلى ٧ ويرفع ضريبة الأملاك في المدن لتتلافى هذا النقص .

د - على الحكومة أن ترصد في سنة ١٩٣٠ مائة ألف جنيه فلسطيني لتوزيع قروض قصيرة الأجل على صغار المزارعين لتمكنهم من زراعة أراضيهم في الموسم المقبل^(١) .

هذا بعض ما أوردته اللجنة بخصوص المزارع العربي في فلسطين . ويجدر بنا أن نذكر ما أوردته اللجنة بخصوص المزارع اليهودي لتكون الصورة الاقتصادية شاملة .

ذكرت اللجنة تحت عنوان حالة المزارع اليهودي المالية قبل ١٩٢٩ :

(.....) ومن رأينا على العموم أن الدخل الاجمالي للمزارع اليهودي هو تقريباً ضعف

(١) تقرير اللجنة ص ٢٥-٣١ . بتصرف

المزارع العربي من أرض بنفس المساحة ومن الجهة الأخرى نجد أن ما ينفقه على الانتاج وعلى معيشته يزيد كثيراً على ما ينفقه المزارع العربي وبالتالي نرى المزارع اليهودي ملزماً بإيجاد مبلغ كبير من المال لتحسين أرضه ولدفع فائدة القروض التي استدانها ثم إن الزراعة اليهودية منظمة تنظيمًا جيداً كما أن لدى المزارع اليهودي طرق عديدة للاستقراض وبالإيجاز نرى حالة المزارع اليهودي ميسورة ولديه العدد والأدوات الزراعية لتحسين زراعته أكثرها مما هي ميسورة لدى المزارع العربي ومستوى معيشته أرفع وهو يتمتع بوسائل اجتماعية وثقافية مجهولة لدى المزارع العربي^(١).

عبء الضرائب على المزارع اليهودي :

جاء في تقرير اللجنة : « ... فإن ما يدفعه المزارع اليهودي من الضرائب بالنسبة إلى دخله الصافي أقل مما يدفعه المزارع بالنسبة إلى دخله الصافي وهذا رأي مزارعي اليهود في المستعمرات يؤيد هذه النظرية فقد أفهموا اللجنة أنه لا يعدون الضرائب نبذة مهمة من نفقاتهم بالنسبة لغيرهم^(٢) .

حالة المزارع اليهودي المالية في الوقت الحاضر :

لا مندوحة لنا عن القول بأن المزارع اليهودي كالمزارع العربي قد عانى من هبوط أسعار الحاصلات في المدة الأخيرة ومع ذلك قيل في إحدى المستعمرات أن هبوط الأسعار عاد بالفائدة وليس بالضرر على المزارعين ذلك لأن أسعار الحاجيات الأخرى هبطت أيضاً وأصبح في وسع المزارع أن يحسن مستوى معيشته مع هبوط قيمة حاصلاته .

ومثال ذلك متى ارتفع ثمن البيض يشعر المزارع أنه مضطر إلى بيعه جملة أما متى

(١) تقرير اللجنة التي عينت لدراسة حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين ص ٦٩ .

(٢) تقرير اللجنة ص ٧٠ أقول لأنه ليست الضريبة بحد ذاتها هو العبء بل مقدار دخل المزارع هو العبء فإن إسرائيل اليوم تتقاضى ٢٧٥ من الإيراد العام كضرائب ومع هذا فإن مستوى المعيشة في إسرائيل مرتفع جداً .

كان رخيصاً فإنه يبقيا له ولأسرته^(١)

أقول هذا صحيح بالنسبة للمزارع اليهودي لأنه يجد الوكالة اليهودية تسدد له نفقات معيشته الأخرى متى احتاج لذلك فإنه يفتبط لانخفاض الأسعار لأن الحاصلات ستكون من نصيبه ونصيب عياله أما المزارع العربي فليس له مورد آخر سوى حاصلاته .

كما أرسلت الحكومة الانجليزية أيضاً إلى فلسطين لجنة للمبحث في تشكيلات إدارة فلسطين وفي الطرق التي تؤمن زيادة الواردات ونقص النفقات . فكتب الأستاذ محمد عزة دروزة عدة مقالات في جريدة الجامعة العربية ثم جمعها في رسالة واحدة تحت عنوان « كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الانجليزية » وقد نوه في مقدمة الكتاب بالآمال المعلقة على اللجنة مشيراً إلى الضرائب الفاحشة التي يدفعها المكلف الفلسطيني والتي هي أكثر من ٦٠٪ من الانتاج العام طالباً موازنة الوضع المالي في سورية ولبنان لتشابه الظروف السياسية والاجتماعية والمعيشية والعمرانية مع غرض النظر عما في سورية من أرض واسعة ومدن كبرى مما يجعلها أقوى اقتصاداً ، من فلسطين ثم يدعو إلى المقايسة بين ما هو موجود في فلسطين وما هو موجود في سورية ولبنان من تشكيلات ومربيات ونفقات وإيرادات وضرائب وسكان وثروة وانتاج .

مقايسة بين ميزانيات سورية ولبنان وفلسطين :

يقول الأستاذ دروزة : « وأريد أن أقدم بعض نماذج لتري - أي اللجنة - كم أن الفلسطينيين معذورون حينما يعتقدون أنهم مظلومون جداً دون إخوانهم في سورية ولبنان وأن أعباءهم المالية أشد جداً من أعباء أولئك الإخوان ... أريد أن أقول أن عدد السكان في لبنان حسب آخر احصاء ٨٢٥,٠٠٠ نسمة تقريباً وسورية ١,٦٣٠,٠٠٠ نسمة تقريباً وفلسطين ٨١٦,٠٦٤ نسمة تقريباً كما جاء في الكتاب الأزرق سنة ١٩٢٩ عدا البدو الرحل وإلى هنا نرى أن عدد سكان فلسطين يتقارب مع عدد سكان لبنان .

إن اعتمادات نفقات الحكومة اللبنانية ١٩٢٩ (١,٠١٤,٧٨٤) جنيهاً فلسطينياً واعتمادات

(١) تقرير اللجنة ص ١٧ .

الحكومة السورية ١٩٢٩ (١,٨٠٨,٥٢٢) جنيهاً فلسطينياً ، واعتمادات نفقات حكومة فلسطين ١٩٢٩ (٢,٧٨٣,٦٤٦) جنيهاً فلسطينياً .

وإذا أنزلنا من هذا الرقم اعتمادات السكك الحديدية التي ليس لها مقابل في ميزانية لبنان وسورية البالغة (٣٩٢,١٩٢) جنيهاً فلسطينياً وكذلك دائرة المكوس والجمارك (٢,٣٢٤,٦٥٠) جنيهاً فإن الصافي لاعتمادات حكومة فلسطين عام ١٩٢٩ هو (٢,٣٢٤,٦٥٠) جنيهاً فلسطينياً أي أكثر من اعتمادات حكومة لبنان وأكثر من اعتمادات حكومة سورية التي سكانها ضعف سكان فلسطين بنسبة ٢٣٠٪ للبنان و١٢٩٪ لسورية وبمضاعفة هذه النسبة لتضاعف السكان تصبح ٢٥٨٪ وأظن أن هذه المقاييس اليسيرة كافية لتصوير الظلم الذي كان يقع على أهل فلسطين من جراء النفقات التي تتقاضاها منهم إدارة حكومتهم^(١).

أسباب الفروق بين نفقات سورية ولبنان وبين فلسطين :

أولاً : رواتب الموظفين :

في لبنان ٤٧ موظفاً فرنسياً رواتبهم ٢٠,٤٣٩ جنيهاً فلسطينياً ١٩٢٩ وفي فلسطين ٢١٣ موظفاً انجليزياً ما عدا الموظفين اليهود من الانجليز رواتبهم ١٦٠ ألف جنيه فلسطيني عدا ميزانية المندوب السامي وموظفي دائرته مع التخصيص الإضافي مبلغ ٨٧٤٠ جنيه فلسطيني فيكون مجموع ما يتقاضاه الموظفون الانجليز الكبار ١٧٠ ألف جنيه فلسطيني تقريباً فتكون نسبة الموظفين الانجليز في فلسطين إلى ما يوجد في لبنان ٤٥٣٪ وإلى ما يوجد في سورية ٢١٥٪ .

وإذا ضاعفنا النسبة تصبح ٤٣٠٪ أي .. أن راتب أعلى قاضي فرنسي في سورية ١٠١٤ جنيهاً فلسطينياً وهو أعلى راتب يتقاضاه موظف فرنساوي في سورية ولبنان على الإطلاق وأعلى راتب يتقاضاه قاضي فرنساوي في لبنان هو ٦٣٧ جنيهاً فلسطيني بينما راتب أعلى قاضي انجليزي في فلسطين ١٦٠٠ جنيه فلسطيني وفي الأملاك والأراضي راتب

(١) كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الانجليزية ص ٧٠ .

أعلى موظف في سورية ٦٧٣ جنيهاً في لبنان ٧٢٣ جنيهاً وفي فلسطين ١٤٠٠ جنية^(١) وهكذا يستمر الأستاذ دروزة في سرد فروق الرواتب بين سورية وفلسطين ولبنان ثم يقول الأستاذ دروزة :

« ويمكنك أن تقيس رواتب الموظفين الآخرين بهذا المقياس طبعاً وأحب أن يلاحظ القارئ أنني ذكرت الرواتب مجردة من العلاوات وبدلات السكن وبدلات الاغتراب وعليه أن يقدرها بما يتقاضاه الانجليزي والفرنسي من ذلك بحسب ما يوجد بين رواتبه من فرق عظيم ويكفي أن أذكر مثلاً واحداً على هذه العلاوات وهو أن السكرتير العام لفلسطين الذي يتقاضى ١٦٠٠ جنية فلسطيني يتناول أيضاً ١٢٤٧ جنيهاً باسم بدل اغتراب بينما لا يوجد إلا شيء زهيد جداً في ميزانيتي لبنان وسورية بصرف علاوات للموظفين الفرنسيين مثلاً تعويض سكني لرئيس محكمة ١٠٣٣ ليرة سورية وتعويضات أسرية ٩٨٣ ليرة لخمس قضاة فرنساويين في ميزانية ١٩٢٩ وكذلك يلاحظ أن دائرة المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان وما يتبعها من تشكيلات خاصة به وبوكلائه أو مندوبين له خارج بيروت التي هي المفوضية يتقاضى مخصصاتها من ميزانية الدولة الفرنسية لا من خزانة الحكومة الوطنية بينما تدفع مالية فلسطين كل شيء لكل موظف انجليزي سواء في ذلك دائرة المندوب السامي أو غيرها من الدوائر^(٢).

وبعد أن يوازن الأستاذ دروزة مديري الناحية والقائمية والأطباء وغيرهم بين فلسطين وسورية ولبنان يقول :

« وأظن أن هذه الأمثلة تكفينا مؤونة الموازنة من ذكر أمثلة ومقاييس أخرى للدوائر الأخرى فإن مقايسة الرواتب والدرجات في كل دائرة من دوائر فلسطين مع مثيلاتها من دوائر سورية ولبنان تؤدي بنا إلى النتيجة نفسها وهي أن رواتب فلسطين مع ملحقاتها مرة ونصف مرة ومرتين ونصف مرة أحياناً على مثيلتها التي في درجتها في سورية ولبنان ثم يستمر الأستاذ دروزة في عمل مقايسات بين لبنان وسورية وفلسطين في تشكيل الحكومة وعن موظفيها وفي الأمن العام ونفقاتها الفاحشة موازناً بين رواتب الإنجليز والفلسطينيين ممن هم في الرتبة نفسها وكذلك سائر دوائر الحكومة ثم تطرق إلى

(١) المصدر السابق ص ٨-١٠ . (يتصرف)

(٢) المصدر السابق ص ١٠-١١ . (يتصرف)

عجز البلاد المالي وأن هذا العجز يسد من الضرائب الفاحشة التي يدفعها الشعب ووازن بين سعر الحماجيات في فلسطين وسورية ولبنان وكذلك رسوم المحاكم الفلسطينية والسورية واللبنانية ثم يوضح الأستاذ دروزة في خاتمة التقرير مغالطة الانجليز عندما يواجهون بهذه الحقائق حيث أن الضرائب قد وصلت إلى ٦٠٪ من انتاج البلاد وهم يقولون أن النسبة نفسها تؤخذ أيضاً من الانجليز في بريطانيا بل وزيادة وعلى حد المثل « من ساواك بنفسه ما ظلم » يقول الأستاذ دروزة :

« إن هذه الحجة مغالطة إذ أن فلسطين يجب أن تقاس بأمثالها من حيث الظروف والثروة والمقدرة على الانتاج مثل سورية ولبنان » .

أما جزر بريطانية فإنها تجني لها خيرات امبراطورية تبلغ ٤٠٠ مليون نسمة وفيها من المصانع والمعامل والمشاريع ما يغذي أسواق هذه الامبراطورية العظيمة وهناك فرق بين إنسان يكسب ألفي جنيه فيدفع مائتين وألف جنيه ويبقى له ٨٠٠ جنيه تقوم بأوده وزيادة وبين رجل يكسب أربعين فيدفع منها ٢٤ جنيهاً ويبقى له ١٦ جنيهاً لا تكاد تبلغ كلفة قوته علماً بأن أكثر الأسر وهي أسر العمال والمزارعين لا يزيد معدل كسبها عن ٣٠ جنيهاً أو ٢٠ جنيهاً فأخذ ٦٠٪ من هذا الكسب الزهيد هو في منتهى الظلم والقسوة التي لا تجيزها أي عاطفة إنسانية^(١).

أقول ومن خلال هذه الظروف الاقتصادية الصعبة خطط الانجليز واليهود لامتلاك الأراضي الفلسطينية فقد كتب أوسبيكشين وهو من زعماء اليهود في إحدى مجلاتهم عن اقتداء اليهود للأراضي المقدسة فقال :

« ... فإن لم نستملك نحن أيضاً أراضي فلسطين ونستثمرها بإنشاء القرى فلا أمل في أن نجعل فلسطين وطناً لنا وستبقى عربية وليس صعباً على اليهود عاجلاً أو آجلاً أن يحتكروا التجارة والصناعة والتعليم أما امتلاك الأراضي فليس في وسعنا إنما هو منوط بالبائع إننا نرى العرب قد انتهى فكرهم إلى صالحهم وأصبحوا يشعرون بكيانهم ومن ثم

(١) كتاب مفتوح إلى الحكومة الانجليزية ص ٢٦-٢٧ بتصرف .

نحسب كل تأخير في امتلاك الأراضي الفلسطينية جرماً لا يغتفر ، إن مساحة الأراضي في فلسطين تبلغ عشرين مليون من الدونمات للحكومة ٣٠٪ ، ٣٥٪ أملاك الفلاحين ، ٣٥٪ للملاكين الأغنياء أما من إذن فئة الأفندية والأغنياء الذين لا يأبون بيع أملاكهم إن وجدوا ربحاً في بيعها وغايتنا خاصة امتلاك سهل أسدرلون « مرج ابن عامر » وساحل البحر والبلاد الممتدة بين يافا والقدس من هؤلاء الأفندية^(١) .

ومن هنا يظهر لنا أن مستقبل الأراضي الفلسطينية كان بأيدي الانجليز وكبار الملاكين وقد تسربت أملاك الحكومة وأملاك الأفندية من العرب خارج فلسطين أمثال سرسق وغيرهم إلى اليهود واشتروا أرض الناصرة من الحكومة^(٢) .

أما كيفية انتقال هذه الأراضي إلى سرسق وغيرها من العائلات فهي في منتهى الغرابة . حدثني الشيخ طه المولى المستشار الصحفي والثقافي لسفارة تشاد في بيروت في ١٩٧٥/١/١٣ فقال :

« إن الدولة العثمانية منذ أن بدأت الدول الغربية في التسلط عليها وحماية الأقليات الدينية فيها حتى إن هذه الأقليات كانت تعفى من دفع الضرائب وعندما كان يأتي محصل الضرائب لأخذ حق الدولة من المحصول الزراعي كان الفلاحون يتهربون من دفع هذه الضرائب بادعاء أن هذه الأراضي ليست ملكهم وهي ملك سرسق مثلاً وما هم إلا فلاحون لخدمة الأرض وكان الموظف المختص يسجل هذا في سجلاته حتى عرفت هذه الأراضي أنها ملك لهذه الأسر بصفة رسمية عند الدولة ولما خضعت فلسطين للاحتلال الانجليزي انتقلت هذه السجلات والقيود إليهم ولما بدأت المنظمات اليهودية في امتلاك الأراضي لتكوين مستعمرات لتثبيت أقدامهم توجهوا إلى هذه الأسر في لبنان والتي فوجئت بأن لها أراضي واسعة في فلسطين وتم البيع فما كان من الانجليز إلا أن طردوا هؤلاء الفلاحين الأبرياء من أراضيهم التي فوجئوا أيضاً ببيعها وليس لهم ذنب إلا سناجتهم » .

ويخبرنا أوليفانت في أحد كتبه أن بيت سرسق اشتروا عام ١٨٧٢ مرج ابن عامر بسعر ١٨ ألف جنيه ولم يدخل صندوق الدولة العثمانية إلا ستة آلاف جنيه بسبب

(١) تقيلاً عن مجلة المشرق عدد ٢ ص ٢٧ سنة ٢٣ شباط ١٩٢٥ .

(٢) تاريخ الناصرة ص ١٧ .

الرشوة والسرقة وقدر دخل هذه الأسرة السنوي من السهل وعن طريق استغلال الفلاحين ٢٠ ألف جنيه وقد اشترى هذا السهل الصندوق القومي اليهودي في أوائل العقد الثالث من القرن الحالي^(١).

وهناك بعض التجار الذين استغلوا الدعوة القومية والاصلاحية في سبيل أطباعهم ولو دققنا النظر في أسماء أعضاء الجمعية الاصلاحية في بيروت عام ١٩١٣ ، لوجدنا بينها أكثر التجار الكبار الذين أدوا أدواراً كبيرة في الصفقات التجارية والمالية وهي التي كانت قد ألحت في طلب اللامركزية وإحلال اللغة العربية محل اللغة التركية .

بل أن بعض رجال الجمعية العمومية مثل سليم علي سلام ومختار بيهم وآخرين استغلوا إيجابية الاتحاديين في الآستانة نحو مطالبهم بالحصول على التزام تخفيف مستنقعات الحولة ومساحتها ٥٠ ألف دونم وبعد الحرب طلب سليم سلام من الأمير فيصل التدخل - خلال إقامته في لندن - لدى الحكومة البريطانية لتثبيت هذا الالتزام وتنازل في ١٩٣٤ للصندوق القومي اليهودي مقابل مبلغ جسيم^(٢).

كما حدثني الشيخ طه الولي أيضاً بأن السيد سليم سلام لما عرض عليه الصندوق القومي اليهودي شراء أراضي الحولة بمبلغ مئة ألف ليرة اتصل بالمرحوم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وزعيم نضالها لأجل شراء الأراضي فأجابه المرحوم الحسيني بأن هذه الأرض ليست ملكاً له لأنه لم يشتريها بماله ولم يرثها عن آبائه وأضاف إلى ذلك أن صندوق الجهاد الفلسطيني لا يملك هذا المبلغ ولكن الصفقة تمت مع الصندوق القومي اليهودي^(٣).

وهناك عائلات سورية ولبنانية ومن كبار الموظفين والمتنفذين في الدولة العثمانية كانت لهم أملاك في فلسطين على اعتبار أن بلاد الشام بلد واحد في زمن الحكم التركي وقد كانت الحكومة التركية تأخذ عشر الانتاج والباقي يتقاسمه المزارع الفلسطيني مع صاحب الأرض ولما تنبه المواطنون إلى أهداف الصهيونية في فلسطين رفض هؤلاء أن يبيعوا أرضهم فاحتالت الحكومة البريطانية عليهم باصدار قانونين الأول - يقضي بأن لا يخرج المزارع من أرضه بسبب ولا بغير سبب وقد سمى الانجليز هذا القانون حماية المزارعين كما

(١) نقلاً عن التعليم والتحديث ص ٣٧ .

(٢) القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ج ١ ص ٩٥-٩٦ .

(٣) المقاتلة تمت في بيروت في ١٩٢٥/١٣ .

سمى القانون الثاني « قانون الضرائب » وينص على أن المطالب بضريبة الانتاج هو المالك أما المزارع فإنه معفى منها كليةً وهو بهذا يحرض المزارع على التنكر للمالك صاحب الأرض والامتناع عن دفع حصته من انتاج الأرض ، ولذلك وجد الملاكون السوريون واللبنانيون أنفسهم بلا أرض وهم مطالبون بدفع الضرائب عليها بالإضافة إلى أن معظمهم قد نزح إلى موطنه بعد أن أصبحت فلسطين دولة مستقلة وكذلك كل من سوريا ولبنان ، وهذه الطريقة الشيطانية استطاع اليهود أن يمتلكوا مليوني دونم^(١).

هذا وقد استطاع المجلس الإسلامي الأعلى شراء الأراضي التي كان يضطر أصحابها لبيعها لسبب ما ، وقد اشترى بمبلغ ٤٥٠ ألف جنيه بالإضافة إلى وجود جمعيات تأديبية كونها المناضلون الفلسطينيون لقتل كل من يبيع أو يتعامل مع اليهود في بيع الأراضي ولذلك فإن الأراضي التي انتقلت إلى اليهود كانت قليلة جداً - بالبيع - وإن معظم ما حصلوا عليه كان عن طريق المندوب السامي البريطاني حيث سجلت الأراضي التي تملكها الدولة باسمه لذلك كان يعطي منها ما يشاء لمن يشاء ، وقد سلكت إسرائيل نفس الطريق في تملك أراضي الدولة في الضفة الغربية عام ١٩٦٧م^(٢).

من هنا يتبين لنا بطلان الشائعة التي تقول إن الفلسطينيين باعوا أرضهم وهي أكذوبة أطلقها الصهاينة وتقبلها العرب^(٣) علماً بأن المزارع الفلسطيني يخاف أن يبيع أرضه لأنها مورده الوحيد ويخاف أن ينفق ثمنها على معيشته ثم يقعد ملوماً محسوراً لأنه

(١) راجع مذكرات د. وايزمن ص ٥٧ تعريب فتح الله محمد مشعشع ، نقلاً عن كتاب « اقترأها الصهاينة وصدقها العرب » فهد المارك ص ٤٧-٥٢ (بتصرف) .

(٢) أذاعت هيئة الإذاعة البريطانية في لندن في برنامجها « العلم هنا للساء » يوم السبت الموافق ١٩٨٢/٢/٥ ، ١٤٠٣/٤/٢٢ حديثاً عن كيفية امتلاك إسرائيل للأراضي في الضفة الغربية بعد ١٩٦٧ نقلاً عن مجلة التايمز اللندنية جاء فيه :

« لجأت الحكومة الإسرائيلية إلى امتلاك الأراضي في الضفة الغربية عن طريق القانون العثماني القديم الذي يخول السلطان امتلاك الأرض التي لم تسجل بوثائق رسمية ولم تكن الأراضي المسجلة بوثائق رسمية بأكثر من $\frac{1}{3}$ مساحة الأراضي ، وهي أراضي المدن لأن تسجيل الأراضي والحصول على وثائق بها كان من أصعب الأمور وأعقدها لدى الدولة العثمانية . واليوم فقد لجأت إسرائيل إلى امتلاك الأراضي في الضفة الغربية بهذه الطريقة حيث تعلن أنها ستملك الأراضي الفلانية فن كان عنده وثيقة بملكها فعليه أن يبرزها أمام المحكمة خلال ٢٢ يوماً من تاريخ الاعلان وهذه الطريقة تستطيع إسرائيل امتلاك ٥٥-٦٠٪ من الأراضي الفلسطينية » . هذا نموذج من الطرق الملتوية التي حاولت وتحاول إسرائيل اتباعها لتملك الأرض وطرد أهلها .

(٣) كما يقول الأستاذ فهد المارك رحمه الله في كتاب له بعنوان « اقترأها الصهاينة وصدقها العرب » .

لا يحسن الصناعة أو التجارة ، والذي تقوله - أيضاً - هل أخرج الفلسطينيون الذين باعوا أرضهم فقط لنقول هذا جزأؤهم أم كان الإخراج لجميع الفلسطينيين . علماً بأن إسرائيل لا تقول في المحافل الدولية أنها أخرجت الفلسطينيين لأنهم باعوا أرضهم بل لأن لها حقاً تاريخياً يمتد إلى أكثر من ألفي سنة ، ولأن تملك الأراضي لا يعطي المالك أي حق سياسي على هذه الأرض .

الفصل الثاني

المؤثر الثقافي :

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت البلاد العربية التابعة للخلافة تعيش أضعف عصورها الثقافية وإلى هذا يشير الأستاذ بطرس البستاني يصف حال الثقافة في زمانه سنة ١٨٥٩ وما قبلها في أسلوب تهكي حيث يقول :

« لو كلفت الوقوف أمام سيادتكم لأجل الكلام عن هذا الموضوع - الثقافة والتعليم نحو ثلاثين سنة قبل الآن لكنت أخجل ... لأنني حينئذ كنت التزم أن أجول في أسواق هذه المدينة - حتى لا أقول في كامل البلاد التي كانت في الأزمان السابقة مُرْصَعَةً لِلآدَاب وسريراً للتحدث - وأفتش باجتهاد على من يقدر أن يقرأ مكتوباً أو كما يقال « يفك الاسم » ثم يقول « وأما الآن فإنه يوجد أمور كثيرة تقوي آمالنا في المستقبل ومع إننا مدينون في أكثر هذه الأمور للغرب يمكننا أن نرفع رؤوسنا بما وجد عندنا من الثقافة مع قطع النظر عن مصدرها »^(١).

وفي هذا القول دلالة على مدى الجهل الذي وصلت إليه هذه البلاد وفيها إشارة إلى مطلع نهضة ثقافية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مدينة للغرب بالفضل والولاء - وكان من أهم بواعثها :

أولاً : التعليم :

كان التعليم في الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر يكن أن يكون دينياً فهناك معاهد دينية يتعلم فيها الصغار ومعاهد أخرى للكبار وكان بعضها ملحقة بالمساجد وبعضها مستقلاً في مبان مشيدة لهذا الغرض مع مساجد خاصة بها وكان أسلوب التعليم فيها قديماً لم يتغير منذ عدة قرون بل تقهقر إلى تعليم العلوم النقلية فقط ونتيجة

(١) مجالي الفرر لكتاب القرن التاسع عشر ص ٢٨ .

للاحتكاك بالدول الأوروبية في النصف الأخير من القرن الثامن عشر والأول من القرن التاسع عشر فقد تفتحت أنظار المفكرين إلى عدم كفاية هذا النوع من التعليم إذا ما أرادت الدولة أن تواكب حضارة العصر ولعل الضرورات الاجتماعية المتولدة عن هذا الاحتكاك هي التي أوجت بضرورة هذا التحديث للتعليم وليس « الترتيب المنطقي » .

كما إنه من المفروض أن الهزائم العسكرية المتلاحقة التي منيت بها الدولة العثمانية أمام الجيوش الأوروبية جعلتها تفكر في أسباب هذه الهزائم فوجد المفكرون أن السبب الأصلي يعود إلى اختلاف نظمها وتغير وسائلها عما في البلاد الأوروبية مما حل رجال الحكم على اقتباس هذه النظم والوسائل لجعل الجيش قادراً على الصمود أمام الجيوش الغربية الحديثة ولما كان تعليم الفنون العسكرية الحديثة يحتاج إلى معرفة الكثير من علوم الرياضة والطبيعة وشيء غير قليل من مبادئ التاريخ والجغرافية نشطت هذه العلوم في المدارس العسكرية أولاً فأنشئت الأعدادية العسكرية ثم الرشيدية^(١) العسكرية ليتمكن الطالب من التأهل بالعلوم الكافية ليلتحق بالمدارس العسكرية الاختصاصية التي تقوم مقام المدارس العليا التي كان مركزها عاصمة الدولة .

وقد أخذت البلاد العربية بنصيب وافر من هذه السياسة ولذلك رأينا الكثير من أبنائها يدرسون في تلك المدارس العسكرية الاختصاصية في العاصمة . أما المدارس التعليمية الحديثة « الملكية » التي لم تتسم بسمة عسكرية فلم تنشأ إلا لتخريج الموظفين الذين تحتاجهم الدولة في مختلف المصالح الحكومية .

هذه هي بواعث النهضة التعليمية الحديثة - بشكل عام - في مختلف الولايات العثمانية ومنها فلسطين وينبغي التنبيه هنا إلى أن التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية التي أنشأتها الدولة العثمانية في البلاد العربية كان يجري باللغة التركية بوجه عام وقواعد اللغة العربية كانت تدرس في هذه المدارس بقدر ما كانت تدرس وكما كانت تدرس في الولايات التركية لأنها كانت من جملة القواعد المستعملة في التركية فكان لا بد من معرفتها لفهم الأدب التركي وإتقان الإنشاء التركي^(٢). ونظراً لأن الرابطة التي تجمع الشعوب العثمانية هي الرابطة الدينية لذلك كانت سلطة الدولة وقوانينها موجهة

(١) أي الثانوية العسكرية .

(٢) حولة الثقافة العربية ساطع الحصري ص ٧-٩ .

إلى المسلمين مباشرة أما الطوائف الأخرى فقد ضعفت سيطرة الدولة عليها في المدة الأخيرة نتيجة لتدخل الدول الغربية في شؤونها الخاصة حتى جعلت من هذه الطوائف مركزاً لأطباعها أولاً ثم وسيلة للتدخل الاستعماري بحجة حمايتها ثانياً .

التعليم الطائفي في الدولة العثمانية :

يقول الأستاذ ساطع الحصري « إن السياسة الداخلية التي كانت متبعة في الدولة العثمانية تعد كل طائفة من الطوائف الدينية والمذهبية - من غير المسلمين - «جماعة قائمة بنفسها» فكانت تمنح تلك الجماعات امتيازات خاصة في كل ما يمت بصلة إلى الشؤون الدينية والمذهبية وكان الرئيس الديني - البطريرك أو الأسقف أو المطران يعد رئيساً للجماعة ويعمل بالاتفاق مع «مجلس ملّي» خاص يتألف من فرعين : أحدهما «روحاني» والثاني «جسماني» وكانت هذه المجالس العلمية بمثابة السلطة الشرعية في كل ما يتعلق بشؤون الكنائس والأديرة وفي كل ما يتعلق بالأحوال الشخصية وقد جعلت الدولة العثمانية شؤون التعليم من جملة الأمور المرتبطة بالأديان والمذاهب فحولت جميع الطوائف المسيحية والإسرائيلية حق تأسيس المدارس وإدارتها أيضاً .

ولهذا السبب أخذت الطوائف المختلفة تؤسس معاهد تعليمية خاصة بها وتدير هذه المعاهد كما يروق لها . وكانت هذه المدارس الطائفية في بادئ الأمر من نوع المدارس الدينية حقيقة غير أنها تبدلت بعد ذلك بسرعة وتحولت إلى « معاهد تعليمية عصرية » بكل معنى الكلمة وكانت هذه المدارس تسير على مناهج خاصة بها تختلف باختلاف أديان الجماعات ومذاهبها ولا تمت بأية صلة إلى مفاهيم المدارس الحكومية واتجاهاتها ، وكثيراً ما كانت تستلهم خططها ومناهجها من المدارس الأجنبية المؤسسة داخل البلاد العثمانية أو من المدارس العثمانية نفسها وذلك حسب العلاقات الدينية أو المذهبية التي كانت تربط الجماعة بتلك البلاد الأجنبية .

ولقد كانت الحقوق الممنوحة للجماعات في أمر التعليم تشمل « لغة التعليم » أيضاً فكان يحق لكل جماعة أن تعلم أبنائها باللغة الشائعة بينها فكان للأرمن أن يعلموا باللغة الأرمنية وللبلغار باللغة البلغارية ولذلك كان للمسيحيين العرب أن يعلموا باللغة العربية وهكذا نرى أن السياسة التي سارت عليها الدولة العثمانية في هذا المضمار أدت إلى نتائج غريبة جداً بالنسبة للبلاد العربية . فكان نظام الجماعات الذي ذكرناه خاصاً بغير

المسلمين فلم يتمتع المسلمون العرب بشيء من التنظيمات والامتيازات التي كان المسيحيون يتمتعون بها في أمور المدارس والتعليم .

ولذلك انحصرت المعاهد التعليمية المفتوحة أمام هؤلاء في المدارس الوقفية القديمة التي لم تنل أي حظ من الإصلاح وفي المدارس الرسمية التي كانت تعلم باللغة التركية في حين أن المسيحيين كانوا قد كونوا جماعات منظمة باسم القانون وأسسوا مدارس خاصة بهم وجعلوا اللغة العربية لغة التعليم فيها . ولهذا السبب انتشر التعليم العربي الحديث بين المسيحيين قبل المسلمين ولهذا السبب أيضاً كان معظم الكتاب والمؤلفين والخطباء الذين ظهروا في الولايات العربية في العهد العثماني مسيحيين على الرغم من قلة هؤلاء بالنسبة للمسلمين .

وما يلفت النظر أن المدارس الأجنبية أيضاً أثرت تأثيراً مماثلاً لذلك في هذا المضمار حيث أنها أخذت تهتم باللغة العربية بغية اجتذاب أبناء الشعب من جهة وتسهيل التأثير فيهم من جهة أخرى ، وبما أنها كانت في بادئ الأمر من نوع المدارس التبشيرية عامة التي تأخذ طلابها من غير المسلمين بوجه عام وبذا ساعدت على انتشار التعليم العربي بين هؤلاء أكثر من انتشاره بين المسلمين وقد أدت المدارس الأجنبية في العهد العثماني دوراً خطيراً في البلاد العربية حيث تأسست في بادئ الأمر على أيدي الرسائل الدينية وكانت كل واحدة من هذه الرسائل تعتمد على حماية دولة من الدول الأجنبية وتصبح واسطة لنشر لغة تلك الدولة بجانب تعليم العلوم المختلفة من جهة وتعليم اللغة العربية من جهة أخرى غير أن تأثير هذه المدارس لم يكن ينحصر في الطلاب الذين ينتون ويدرسون فيها بل كثيراً ما كان يتعدى ذلك إلى مدارس الجماعة نفسها لأن هذه المدارس الأجنبية كانت تزود تلك المدارس الطائفية بالكهنة والمعلمين والكتب المدرسية وكانت تواصل التأثير إلى درجة ترجمة مناهج الدروس وأساليب التدريس المتبعة فيها أيضاً .

وهكذا أصبحت المدارس الأجنبية من الأدوات السياسية الفعالة التي تستخدمها الدول لنشر لغتها في البلاد وبسط نفوذها على الجماعات . وقد كانت فرنسا أنشط الدول في هذا الباب فقد حسبت نفسها حامية الكاثوليك فأوفدت إلى البلاد العربية كثيراً من الرسائل الكاثوليكية وأنشأت بواسطتها كثيراً من المدارس الفرنسية كما إنها أخذت تحمي وتساعد وتوجه المدارس التي تنشئها الطوائف الكاثوليكية وأنشأت عن طريقها كثيراً من المدارس الفرنسية وأخيراً حاولت أن تجتذب إلى مدارسها أولاد المسلمين وأولاد

الطوائف غير الكاثوليكية أيضاً . ولذلك أوجدت «الرساليات العلمانية التي تلتزم «الحياة» في الأمور الدينية فلا تدخل في مناهجها أي دين من الأديان وتوافد على البلاد العربية في الوقت نفسه كثير من الرساليات البروتستانتية وكان بينها الايرلندية والدغارية والانجليزية والأمريكية .

وكانت الرساليات الإنجليزية والأمريكية أغناها وأنشطها بطبيعة الحال فصارت أداة فعالة لنشر اللغة الإنجليزية والثقافة الانجلوسكسونية في بعض البلاد العربية . ومن جهة أخرى أخذت روسية وهي تعد نفسها حامية الأرثوذكس تنشئ مدارس خاصة بالطوائف الأرثوذكسية وأنشأت مدرسة للمعلمين في الناصرة لتخريج وتنشئة المعلمين الذين تحتاج إليهم المدارس المذكورة وأخيراً اقتفت ألمانيا أيضاً أثر الدول المذكورة فأخذت تنشئ بعض المدارس الألمانية في بعض المدن العربية بغية تعليم لغتها ونشر ثقافتها وبسط نفوذها فيها وقامت إيطالية أيضاً بأعمال مماثلة لكل ذلك وأخذت تنشئ المدارس الإيطالية تارة بصورة مباشرة وتارة بوساطة الرساليات الدينية .

ويظهر لنا من ذلك كله أن المعاهد التعليمية القائمة في الولايات العربية في أواخر السلطنة العثمانية كانت في غاية من التنوع والاختلاف : فمدارس رسمية تعلم باللغة التركية ولا تبالي باللغة العربية ومدارس طائفية تختص بكل جماعة دينية ومذهبية على حدة تعلم باللغة العربية وتتأثر في الوقت نفسه بالمدارس الأجنبية التي تشاكلها في الدين والمذهب ، ومدارس أجنبية تنتسب إلى مختلف الدول الغربية تعلم لغة الدولة التي تنتسب إليها وتعني في الوقت نفسه باللغة العربية « وقد تجاوز مسيحيو الشرق مع هذه الرساليات الأجنبية خصوصاً من كان قريباً من الطوائف المسيحية الوطنية واستفادت اللغة العربية من المنافسة القوية بين الكتلركة الأوروبية والبرتستانتية والانجليزية والأمريكية والأرثوذكسية الروسية » .

« إذ سعت كل واحدة منها إلى اظهار تمايزها عن الدولة العثمانية » بمفهومها التركي بتشجيعها اللغة العربية . ولم تغير الرساليات الأجنبية من سياستها إلا عندما بدأت تدرك أن عليها الآن توجيه المسيحيين بعيداً عن فكرة العروبة ، وفي الوقت نفسه ربط بعض الفئات أو مجموعة بكاملها بالدولة الأم ، وقد سعت لتحقيق ذلك بعد تقسيم المشرق العربي أو كما سعت فرنسا من قبل لجعل هؤلاء مرتبطين ثقافياً وفكرياً ولغوياً ومادياً

بالدولة العربية^(١).

وفي الواقع أن الدولة العثمانية أرادت أن تغير من سياستها التعليمية بعد الانقلاب الذي حدث سنة ١٩٠٨م وحاولت أن تفرض رقابتها على المدارس الطائفية والأجنبية ، غير أنها لم تستطع أن تغير شيئاً من هذه الأوضاع تغييراً فعلياً لأن المدة التي مضت بين حدوث هذا الانقلاب ونشوب الحرب العالمية الأولى لم تتجاوز ست سنوات .
لذلك استمرت هذه الأحوال حتى انحلال الدولة العثمانية وانقراضها تماماً^(٢).

هذه هي أحوال التعليم في البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية ومنها فلسطين التي كانت تعد الجزء الجنوبي من سورية . وقد كانت بلاد الشرق العربي - سورية الكبرى والعراق متشابهة في أوضاعها التعليمية والاقتصادية مما أدى إلى تكاتف مشترك في العمل السياسي لتحقيق الأهداف المشتركة .

فثلاً عندما تأسست جمعية العربية الفتاة في باريس عام ١٩١١ كان من مؤسسيها محمد رستم البعلبكي وعوني عبد المهدي النابلسي وجميل مردم الدمشقي ومحمد الحصاني البيروتي وعبد الغني العريسي البيروتي ورفيق التيمي النابلسي وتوفيق السويدي اليفغاداي وانضم إلى هؤلاء بعد ذلك عدد كبير من المثقفين العرب من مدنيين وعسكريين وكانت هذه الجمعية أول حزب عربي يعمل بطريقة سرية ويدقق في الانتسابات وأدت هذه الجمعية دوراً خلال العهد الفيصلي إذ كان الأمير فيصل عضواً فيها^(٣).

نلاحظ أن أعضاء هذه الجمعية من فلسطين ولبنان وسورية والعراق وقد كان التعليم والتنقل متاحاً لجميع العرب في كل الولايات فالإمكانات التعليمية الموجودة في العراق يستطيع أن يستفيد منها الفلسطيني والسوري وغيرها ، لذلك كان واضحاً أن فصل أي قطر عن الآخر سوف يؤدي إلى نقص في مراحل وأوضاع التعليم المختلفة في كليهما وبما أننا في صدد بحث التعليم في فلسطين بمحدودها السياسية المعروفة^(٤) سنكتفي بذكر المدارس التي كانت موجودة ففي سنة ١٨٥١ أنشئت مدرسة صهيون الداخلية للصبيان في القدس

(١) التعلم والتحديث في المجتمع الفلسطيني ص ٦١-٦٢ .

(٢) حولة الثقافة العربية ص ١٢-١٤ .

(٣) المقتطف ج ٨-١ ، ١٨٨٢ ص ٤٧٠ ، ٤٧٥ ، ٥٣٢ ، ٥٣٧ .

(٤) الآن .

وقد خرجت منذ إنشائها حتى ١٨٨٣ - (٣٤٠) تلميذاً وفي سنة ١٨٥٥ أنشئت في القدس مدرسة المصلبة للروم الأرثوذكس بعناية كيرلس الثاني بطريرك أورشليم على نفقة دير الروم وكان في القدس أيضاً أربع مدارس لجمعية انتشار-الانجيل بين اليهود فيها (١٣٨) تلميذاً ، وثلاث مدارس لجمعية المرسلين الكنسية فيها (١٣١) تلميذاً وخمس مدارس للجمعيات الألمانية فيها (٣٣٩) تلميذاً ، وثلاث مدارس للروم الأرثوذكس فيها (٢٩٤) تلميذاً و(١١) مدرسة للاتين فيها (٧٦٥) تلميذاً ومدرسة للروم الكاثوليك فيها (١٠) طلاب وثلاث مدارس للأرمن فيها (٣٦٠) تلميذاً^(١).

أما مدارس نابلس فكانت ثلاثاً للمسلمين ومعلموها ثمانية عشر وتلاميذها (٥٣٦) تلميذاً وأشهرها الرشدية وفي نابلس للمسلمين مدرسة للبنات فيها معلمتان ومائة تلميذة ونحو اثني عشر مكتباً فيها (٤٦٠) تلميذاً أما معارف المسيحيين فكانت خمس مدارس للصبيان فيها ستة معلمين و(٩٥) تلميذاً كما كان للبنات مدرستان فيها معلمتان ٤٢ تلميذة وأقدم هذه المدارس أنشئت سنة ١٨٥٠ .

وفي جوار نابلس في جنين مدرسة فيها ٨٠ تلميذاً ومعلمان .

أما في عكة فقد أنشئت المدرسة الرشدية سنة ١٨٧٦ ، ويبلغ تلاميذها الخمسين ومعلموها أربعة وهناك خمسة عشر مكتباً للمسلمين فيها ٢٠٠ تلميذ وفي سنة ١٨٨٩ أنشأت الجمعية الأدبية الخيرية مدرسة بلغ عدد تلاميذها الخمسين وكان معلموها أربعة كما أنشأت الجمعية مدرسة للبنات ومدرسة للراهبات اليسوعيات فيها سبع معلمات ونحو من (١٥٠) تلميذة . هذا وكان للطوائف المسيحية أيضاً نحو من أربع مدارس للصبيان فيها سبعة معلمين ونحو من ٢٠٠ تلميذ .

أما فيما جاور عكة كحيفة وغيرها ففيها نحو من عشرين مدرسة وعشرين معلماً وأربعمائة تلميذ ... وقد أخذ طلب العلم يزداد ويتسع الاقبال على المدارس كلما تقدم الزمن من القرن العشرين .

أما صفد فقد أخذت المدارس تتكاثر فيها منذ ١٨٦٠ ففيها نحو من عشرة مدارس وخمسة عشر معلماً وثلاثمائة تلميذ أما طبريا ففيها ست مدارس وثمانية معلمين ومائتا تلميذ هذه صورة عن المدارس في هذه المدن التي ذكرناها في النصف الأخير من القرن التاسع عشر . ويقول الدكتور عبد الرحمن ياغي « وإذا كانت جمعية واحدة هي (الجمعية

(١) اللقطة ج ١-٨ ص ٤٧٠، ٤٧٥، ٥٣٢، ٥٣٧، سنة ١٨٨٣

الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية) في فلسطين لها في أنحاء البلاد خمس وعشرون مدرسة بلغ تلاميذها الصبيان في سنة ١٩٠٧م (٨٠١)^(١) أدركنا مدى تأثير هذه المدارس الأجنبية في كيان هذا الوطن الصغير^(٢).

أما مجموع المدارس الابتدائية الرسمية في الألوية الثلاثة (القدس/ نابلس/ عكة) في مطلع القرن العشرين بل في سنة ١٩١٣-١٩١٤ وهي السنة التي سبقت الحرب فكان (٩٥) مدرسة ابتدائية رسمية معلوها (٢٣٦) معلماً ومعلمة وتلاميذها (٧٧٥٨) تلميذاً وتلميذة .

وتذكر النشرة الرسمية لوزارة المعارف العثمانية أن مجموع الأطفال الذين كانوا في سن التعليم الإلزامي يبلغ (٧١٦٣٢) طالباً مما يدل على أن المدارس الابتدائية الرسمية ما كانت تقبل من هؤلاء إلا نحو العشر أما المدارس الثانوية الرسمية فكان في القدس منها (مكتب سلطاني) وفي كل من عكا ونابلس (مكتب اعدادي) وكان عدد طلاب المدارس الثانوية المذكورة (٤٧١) طالباً وكانت كل واحدة منها تضم صفوفاً ابتدائية وفقاً للنظام المتبع في جميع الاعداديات والسلطانيات العثمانية وكان مجموع طلاب هذه الصفوف (١١٠) طلاب وكان المكتب السلطاني في القدس (مكتباً اعدادياً) أنشئ سنة ١٨٨٩ ولم يتحول إلى مكتب إعدادي إلا في سنة ١٩١٣ .

أما المكتب الاعدادي في عكة فقد أنشئ سنة ١٨٩٥ وأما المكتب الإعدادي في نابلس فقد أسس سنة ١٨٩٧ .

ويتبين من أرقام النشرة الرسمية العثمانية أن مجموع المدارس الابتدائية الأهلية والطائفية في المتصرفات الثلاث كان (٥٠٠) مدرسة وعدد المعلمين والمعلمات (٧١٩) معلماً ومعلمة أما التلاميذ والتلميذات فيبلغون (١٥٧٧٣) تلميذاً منهم (٨٧٠٥) تلاميذ في المدارس الخاصة بالمسلمين و(٣٤٤٥) تلميذاً في المدارس الخاصة بالمسيحيين و(٢٦٢٣) في المدارس الخاصة بالإسرائيليين .

وبما أن المدارس الرسمية تكاد تكون خاصة بالمسلمين فإن مجموع الطلاب المسلمين في جميع المدارس كان (١٤٦٦٣) طالباً ومجموع الطلاب المسيحيين (٣٤٤٥) طالباً والإسرائيليين

(١) تاريخ الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية ص ٢٠١-٢٠٢

(٢) حياة الأدب الفلسطيني ص ٦٦-٦٧

(١٦٢٣)^(١) طالباً .

هذه صورة موجزة عن التعليم والمدارس في العهد العثماني وقد امتد إطار هذه الصورة حتى شمل المدة الواقعة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الأولى مع فتور داخلي في حدود هذا الإطار إلى انتعاشه في عهد الدستور إلى ازدهار في المدارس الأجنبية في مدة ما قبل الحرب .

فترة الانتداب البريطاني :

بعد الحرب العالمية الأولى اغتلت السلطة العثمانية وانفصلت الولايات العربية عنها انفصلاً نهائياً .

وقد أصبحت بعض الولايات العربية تحت الاحتلال الفرنسي وبعضها تحت الاحتلال البريطاني ونتج عن ذلك بطبيعة الحال نتائج خطيرة من حيث اتجاهات الثقافة ، ونظم التعليم ، فإن اللغة الفرنسية أصبحت اللغة الإلزامية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية في منطقة الانتداب الفرنسي وترتب على ذلك أن المنطقة المذكورة اتصلت أكثر ما اتصلت بالنظم الفرنسية والمطبوعات الفرنسية والمناهج الثقافية الفرنسية وصار الشبان الذين يريدون اتمام دراستهم خارج بلدهم يذهبون إلى فرنسا وينتسبون إلى جامعاتها وكل ذلك ساعد على جعل النظم الفرنسية والمناهج الثقافية الفرنسية سائدة على معارف البلاد وثقافتها ، وقد انضم إلى هذه النتيجة الطبيعية الجهود التي بذلتها فرنسا لبطش نفوذها المعنوي في البلاد فزاد ذلك من سيطرة الثقافة الفرنسية سيطرة كبيرة .

وقد حدث ما يماثل ذلك بالنسبة إلى اللغة الإنجليزية في مناطق الانتداب الإنجليزية حيث أصبحت هذه اللغة هناك الزامية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية وترتب على ذلك أن المناطق المذكورة اتصلت أكثر ما اتصلت بالنظم الإنجليزية والمطبوعات الإنجليزية والثقافة الانجلوسكسونية وصار الشبان الذين يريدون اتمام دراستهم خارج بلادهم يذهبون إلى إنجلترا وأمريكا وينتسبون إلى جامعاتها وكل ذلك ساعد على سيادة الثقافة الانجلوسكسونية في المناطق المذكورة وقد انضم إلى هذه النتيجة الجهود الخاصة التي

(١) حولية الثقافة العربية السنة الثالثة ص٤-٩ .

بذلها انجلترا وأمريكا لنشر هذه الثقافة في البلاد فأكسب ذلك الأوضاع المذكورة قوة كبيرة .

هذه سياسة التعليم في الولايات العربية بعد الحرب العالمية الأولى إذ خضعت كل من سورية ولبنان للاحتلال الفرنسي والعراق والأردن وفلسطين للاحتلال الانجليزي .

وبخصوص فلسطين أدار الانجليز شؤون المعارف إدارة مباشرة ووجهوها الوجهة التي ارتأوها دون أن يلاقوا أية مقاومة .

ولهذا السبب نشأ في فلسطين نظام تعليمي خاص يختلف عما نشأ في سائر الأقطار العربية اختلافاً كبيراً وكان هذا النظام أكثر تأثراً بالنظم الانجليزية الأصلية بطبيعة الحال^(١) .

(١) حولة الثقافة العربية ص ١٦-٢٠ بتصرف

التعليم في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني

حسب الإحصاء السكاني لعام ١٩٣١ كان عدد السكان العرب أو بالأحرى عدد سكان فلسطين من غير اليهود (٨٥٩) ألف نسمة من أصل (١,٠٣٣,٠٠٠) نسمة^(١) وبلغ عدد المتعلمين منهم أي الذين دخلوا المدارس حوالي (١٢٠) ألف نسمة^(٢) وإذا أسقطنا من هذا العدد مقدار (٢٠٠٠) شخص من الأجانب الغربيين غير اليهود يكون العدد حوالي (١١٨) ألف نسمة من المتعلمين العرب ونستطيع انقاص هذا العدد (٢٠٠٠) شخص من حجم السكان فيكون عدد العرب حوالي (٨٥٧) ألف نسمة .

ونتيجة لذلك تكون نسبة المتعلمين العرب ١٢,٧٥٪ من عدد السكان وهذا الرقم يعطي صورة كئيبة للوضع الثقافي في فلسطين عام ١٩٣١ غير أن هذا المعدل لا يعطي الصورة الحقيقية إذ كان هناك تفاوت في التعليم بين العناصر الإسلامية والعناصر المسيحية .

فقد توفر للمسيحيين عدد كاف من المدارس سهل عليهم الانتساب إليها بسبب تجمع الأكثرية منهم في المدن وللامتيازات الممنوحة لهم من الدولة العثمانية ثم لكثرة الارشاليات الأجنبية وما تقدمه من مساعدات تعليمية وغيرها لذلك كانت الإحصاءات والدراسات التعليمية في فلسطين تقوم على أساس مذهبي فالمسلمون في فلسطين يمثلون ٦٧٪ من سكان فلسطين إحصاء ١٩٣١ - ٨٠٪ من السكان العرب - فتعداد المتعلمين المسلمين حوالي ٧٥ ألف من أصل ٦٩٣ ألف نسمة أي حوالي ١١٪ من السكان بينما النسبة لدى المسيحيين هي ٤٧,٥٪ وإن الـ ٨١٪ من المتعلمين المسلمين درسوا أقل من ست سنوات ونسبة التعليم عند المسيحيين العرب هي ٢٩٪ .

(١) Survey of Palestine Government of Palestine 1946 Vol. 1 p.141

ترجمة الدكتور فاضل زيدان .

(٢) Census of Palestine, Palestine Superintend 1931 p.2

ترجمة الدكتور فاضل زيدان .

من هذا نلاحظ أن نسبة المتعلمين ضئيلة ولكن إذا أخذنا هذه النسبة في الإطار العام لرقى المجتمع الفلسطيني نجد أن نسبة المتعلمين لا بأس بها وليس هذا الفضل راجعاً لحكومة الانتداب إذ أن التعليم كان قد توسع في أواخر الحكم العثماني وأول سنين الحرب كثيراً خصوصاً في ولاية القدس إذ في عام ١٩١٤ كان هناك ٩٥ مدرسة ابتدائية وثلاث مدارس ثانوية يعلم فيها (٢٣٤) معلماً وتعداد تلامذتها (٨,٢٤٨) منهم (١,٤٨٠) تلميذة وكان يوجد (٣٧٩) مدرسة تقليدية أكثرها كتابات يعلم فيها (٤١٧) معلماً ويزورها (٨٧٠٥) تلاميذ منهم (١٣١) تلميذة^(١).

وقد توفر للشعب الفلسطيني في العشرينات حد أدنى من فئة الجامعيين قليلهم تخرج من الجامعات الأوروبية والأمريكية كما أن الضالة الكبيرة كانت في نسبة المتعلمات الراشحات من الشعب الفلسطيني في تلك الحقبة^(٢). ولو ألقينا نظرة على ازدياد الطلاب المسلمين لرأينا أن الفرق بينهما شاسع بالنسبة لتعداد السكان ففي عام ١٩٢٠-١٩٢١ كان عدد الطلاب المسلمين (١٨,١٢٦) والمسيحيين (٧,٤٣١) طالباً وفي عام ١٩٤١-١٩٤٢ كان عدد الطلاب المسلمين (٦٩,٠٣٥) طالباً والمسيحيين (٢٥,٨٠٨) طلاب .

وقد كان الاهتمام الأكبر في التعليم عند المسلمين عن طريق المجلس الإسلامي الأعلى والجهات الإسلامية الأخرى حيث ارتفع عدد المدارس من ٤٢ مدرسة عام ١٩٢١-١٩٢٢ إلى (١٩٠) مدرسة عام ١٩٤٣-١٩٤٥ وارتفع عدد التلاميذ من ٢٢٨٧ تلميذاً عام ٢١-١٩٢٢ إلى ١٥٣٨٩٦ تلميذاً عام ١٩٤٠-١٩٤١ أي حوالي ستة أضعاف بيد أن الأكثرية العظمى من المدارس الحكومية عام ١٩٤٤ كانت ابتدائية تحتوي على الابتدائية الأدنى إلى الرابع الابتدائي ... ولم يكن الوضع كذلك في القرى فقط بل كان في المدن - أيضاً - وتصل نسبة التلامذة في هذه المرحلة إلى مجموع التلامذة الكلي ٩١٪ والنسبة المئوية الباقية تتوزع بين الدراسة الابتدائية العالية والدراسة الثانوية ويتضح أن الأكثرية الكبرى من تلامذة المعارف كانت تترك الدراسة بعد الصف الخامس الابتدائي عدا قلة بينها قسم ضئيل يكمل الدراسة؛ فإذا كان التلميذ من المتفوقين استطاع الانتساب إلى الصفوف العليا الحكومية ، وتشتد شروط الانتساب للدراسة الحكومية العادية الثانوية إذ ليس هناك إلا ثلاث

(١) Arab education Mandatory Palestine 1956 p.20

ترجمة الدكتور فاضل زيدان .

(٢) التعليم والتحديث في فلسطين ص ١٠٧-١١٢ .

مدارس حكومية تحتوي على صفوف حتى الثانوية العامة وجميعاً في مدينة القدس وهي الكلية العربية والمدرسة الرشدية وكلية البنات وكانت الكلية العربية تقصر المجال للطلاب الثلاثة الأوائل في المدارس الأخرى للإكمال فيها ولما كثر عدد الطلبة توازياً مع ازدياد المدارس التي تحتوي على المرحلة الثانوية الأولى سعى خلال الأربعينات إلى توسيع المدرسة الرشدية ولقد كانت الكلية العربية وكلية البنات وكلية المعلمين بالإضافة إلى هذه الكليات قد أنشأت مع الوقت فصول ثانوية زراعية في طولكرم عام ١٩٣١ وثانوية تجارية في حيفا عام ١٩٣٦^(١). ومنذ بدء الانتداب البريطاني أسست فصول لدراسة الحقوق ينتسب إليها موظفو الدولة ويدرسون خمس سنين يحصلون بعدها على (دبلوم) وتخرج عدد لا بأس به من الشباب الفلسطيني العربي ولكن ليس لدينا إحصاء دقيق عن عدده .

وقد اتجه الطلبة أبناء الطبقتين الوسطى والوجيهة الثرية للدراسة في الجامعة ويأتون عددياً بعد الطلبة اللبنانيين وانتسب طلبة آخرون إلى الجامعة اليسوعية خصوصاً من درس منهم في المدارس الفرنسية في فلسطين . وذهب فريق من الطلبة إلى القاهرة حيث انتسب طلبة العلوم الدينية إلى الأزهر وانتسب آخرون إلى دار العلوم حيث تخرج منها (٤٠) طالباً بين ١٩٣٢ و ١٩٤٧^(٢) كما التحق بعض الطلبة بالجامعات الانجليزية فكان عددهم في الثلاثينات حوالي (٢٠) طالباً وفي عام ١٩٤٨ (٢٥) طالباً^(٣).

نظرية التعليم في مدارس المعارف :

. لقد سعى الانجليز للحصول على اعتراف دولي باتتدابهم على فلسطين ليس للقيام بواجب إنساني حسب ما جاء في البيانات والمواثيق الدولية الصادرة عن اجتماع فرساي عام ١٩١٩ وما بعده بل نتيجة تصميمهم على استعمار فلسطين حفاظاً على امبراطوريتهم وزيادة في نفوذهم خصوصاً في الشرق الأوسط حيث بدأ الذهب الأسود يوطد نفوذه الاقتصادي ولم تكن الصهيونية إلا مطية لمبتغاهم الاستعماري^(٤).

إن نظرتهن إلى الشعب العربي الفلسطيني لم تكن تختلف عن نظرتهن إلى العرب

(١) التعليم في فلسطين كاتول جبرائيل ص ٦ .

(٢) الشعر الحديث في مأساة فلسطين ١٢٥ .

(٣) التربية والتعليم في فلسطين كاتول ص ٥ .

(٤) التعليم والتحديث ص ١٣٩ .

المصريين أو أبناء الهند وشعوب شرق آسيا عامة ويستشهد الدكتور عبد القادر يوسف بفقرة من كتاب همفري بومن يقول فيها « فهذا لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا والورد بلفور يعدان العرب قوماً صحراويين لا قيمة لهم يؤكد أنهم سوف يقنعون ببعض التوكيدات والضمانات التي تعطيها لهم الحكومة البريطانية فإذا لم يقنعوا فقد يقومون في البداية ببعض حركات الشعب ولكنهم سرعان ما يعودون لصوابهم ويخلدون للسكينة بعد أن يروا رأس العصا على غرار قبائل الحدود الشمالية الغربية في الهند^(١) .

هذه الرؤية لشعوب المستعمرات تبدأ بريطانية سياستها التعليمية ومن الجدير بالذكر أن بريطانية استمدت فلسفة النظام التعليمي في فلسطين من تجربتها في الهند وبعد ذلك في مصر إذ أن النظام التعليمي الفلسطيني أخذ في جوهره من النظام المصري وهذا بدوره مستمد من التجربة الهندية وتتضمن هذه الفلسفة التعليمية تربية فئة ممتازة تدخل السلك الإداري الحكومي لتنفيذ السياسة الاستعمارية ويسعى إلى تنشئة هذه الفئة لترتبط بالاستعمار ثقافياً وفكرياً والطريق الأمثل هو اختيار معظم أفراد هذه الفئة من الأقليات أو أبناء الطبقة الوجيهة لترويضها وربطها مصلحياً به أن أمكن فسعى الاستعمار في البدء إلى توظيف عدد كبير من اليهود وبعد ذلك من المسيحيين خصوصاً من الفئة المتخرجة من المدارس الانجلوسكسونية وحين بدأ الشعب الفلسطيني خصوصاً المسلمين يحتجون على هذا الوضع سعى إلى توظيف أبناء الطبقة الوجيهة وأما التوسع في التعليم الابتدائي فمرده إلى التجارب مع متطلبات المجتمع التجاري المستهلك لسلعها والرضوخ الشكلي للمطالب الشعبية إذ أن النظام التعليمي في الريف كان أقرب إلى التجهيل منه إلى التعليم .

وتدل إحصاءات المعارف على أن النسبة الهائلة من التلاميذ كانت

(١) مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية ص ٩٥ . هذه النظرية الصهيونية الاستعمارية في الماضي والحاضر والمستقبل لم ولن تتغير وهي نفسها التي أشار إليها الرئيس أنور السادات في مذكراته حيث يقول في معرض كلامه عن مدى استخفاف إسرائيل بالعرب قبل معركة أكتوبر يومين ... لدرجة أن أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل في ذلك الوقت قال لروجرز : إن أمريكا تقحم نفسها في أمور لا تهمها ولا يحذر أن تهم بها ثم عبر أبا إيبان عن رأيه في العرب بأن قال إنهم قوم مُخْتَلِفُونَ ولن تقوم لهم قائمة ولا يعرفون إلا لغة البطش والعرب وقد حان الوقت الذي سيأتون فيه راكعين مستسلمين لإسرائيل التي تعرف جيداً كيف تعاملهم .
« مذكرات الرئيس أنور السادات - الأهرام ١٩٧٥/١٠/٢٤ الجمعة عدد ٢٢٤٥٩ ص ٥٢ .

موجودة في الصفوف الابتدائية الخمسة الأولى بينما كان عددهم في الصفوف الثانوية ضئيلاً جداً وقد ربط التعليم الثانوي لتخريج مدرسين لجميع المستويات خصوصاً الثانوية وقد كانت الوظائف الإدارية العالية يعين لها خريجو المدارس الأجنبية هذه هي السياسة الاستعمارية في التعليم إذ تسخره لما يخدم أغراضها ويثبت وجودها بدلاً من جعله أداة لرفي الشعوب والأخذ بيدها حسب رسالة الانتداب .

هذا وقد كشفت الأيام أن السبب الحقيقي وراء سياسة التجهيل هو ما ورد في المادة (٢٤) من صك الانتداب البريطاني على فلسطين والتي نص فيها على أن توضع فلسطين في أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية تمكن اليهود من إنشاء وطنهم القومي فيها .

ثانياً : الطباعة :

لقد كانت الارساليات الأجنبية أول من فكر في ضرورة اصطحاب المطابع معهم إلى هذه الديار المقدسة وقد عرفت الطباعة على أيدي اليهود في سنة ١٨٣٠ حيث أنشأ « نسيم باق » مطبعة في القدس كانت تطبع كتباً دينية باللغة العبرية وفي المدة ما بين ١٨٣٠-١٨٥٠ نشأت ثلاث مطابع كبيرة ساعدت على نشر آداب اللغة العربية في بلاد الشام الأولى مطبعة الأميركان التي نقلت سنة ١٨٤٣ من مالطة إلى بيروت والثانية الكاثوليكية ظهرت سنة ١٨٤٨ في بيروت والثالثة مطبعة الآباء الفرنسيين في القدس سنة ١٨٤٨ وأنشأها الأب سيثيان فرغند النوسوي الأصل وقد نمت هذه المطبعة حتى أصبحت من أكبر المطابع الشرقية في أول القرن العشرين وكان باكورة المطبوعات في هذه المطبعة كتاب « التعليم المسيحي » بالإيطالية والعربية وكانت أدوات الطباعة كلها من النمسة . وحين جاءت الإرساليات الانجليزية أنشأ جماعة منهم سنة ١٨٤٨ مطبعة في القدس أسموها مطبعة لندن لتطبع الكتب الدينية من أجل نشر الانجيل بين اليهود . وأنشأ الأرمن الغريغوريون في القدس المطبعة الأرمنية في جوار جبل صهيون حيث مقام أسقفهم وكنيستهم الكبرى وأنشأت جمعية « القبر المقدس » اليونانية مطبعتها في دار البطريركية الأرثوذكسية وكان ذلك على عهد البطريرك كيرلس الثاني .

وقد وجدت في هذا الوقت المطبعة الوطنية في القدس لصاحبها الفونس أنطون

الونصو ثم مطبعة (جورج حنايا) وللجمعية البروتستانتية مطبعة صغيرة بدأت في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر . وفي المقتطف سنة ١٨٨٣ جدول يبين نشأة المطابع في القدس وهي :

- ١ - مطبعة الآباء الفرنسيين التي أنشأت سنة ١٨٤٧ وطبعة (١٠٣) كتب ما بين مجلدات وكراريس بلغات أجنبية .
- ٢ - مطبعة دير الروم الأرثوذكسي التي أنشئت سنة ١٨٨١ وطبعت (٦٥) كتاباً منها (٣٦) بالعربية والباقي باليونانية .
- ٣ - مطبعة دير الأرمن والتي أنشئت سنة ١٨٦٦ وطبعت (١١٥) كتاباً بلغات مختلفة أغلبها بالأرمنية .
- ٤ - مطبعة جمعية المرسلين الكنائسية الانجليزية التي أنشئت سنة ١٨٧٩ وطبعة اثنين وعشرين كتاباً بالعربية .
- ٥ - مطبعة لندن لانتشار الانجيل بين اليهود وقد أنشئت سنة ١٨٤٨ وكانت تطبع كراسة دينية شهرياً وإعلانات دينية وقد وجد في بيروت مطبعة دار الأيتام السورية التي كانت تدار بالبخار وكانت على درجة عالية من الاتقان لكثرة الطلبات التي كانت تردّها من مصر وحلب وبيروت ودمشق وطرابلس والشام وحيفا والناصرة ويافا وكانت تطبع فيها مجلة النفائس ولم يكن ينافسها في اتقان الطباعة إلا مطبعة أو مطبعتان في بيروت^(١) .

ومن يراجع أماكن الطباعة في « الكتاب العربي » - الفلسطيني يجد أن المؤلف الفلسطيني طبع كثيراً في استانبول وفينا ولندن ونيويورك وباريس وواشنطن وبيروت ومصر والشام وحلب وبغداد وعمان ومكة وغيرها .

وبعد اعلان الدستور كثرت المطابع الوطنية في مختلف البلاد فكانت أول مطبعة دخلت حيفا هي المطبعة الوطنية لباسيلا الجدد سنة ١٩٠٨ ثم مطبعة جريدة الكرمل سنة ١٩٠٩ لنجيب نصار ثم مطبعة جريدة النفير لإيليا زكا وغيرها ثم انتشرت المطابع في مختلف أنحاء فلسطين . وما ينبغي ملاحظته أن الطباعة دخلت فلسطين عن طريق الارساليات التبشيرية الدينية لطباعة الكتب الدينية ثم لطباعة كتبها المدرسية إلى أن

(١) التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني ص ١٢٨-١٤١ .

كثرت المطابع كثرة عامة في مختلف أنحاء فلسطين لأغراض تجارية .

ثالثاً : الصحافة :

لقد كان ظهور الصحافة في فلسطين عن طريق الارساليات الأجنبية شأن التعليم والطباعة فقد نشرت الجمعية الألمانية الفلسطينية في مجلتها مختلف المطبوعات التي يدور بحثها حول فلسطين ثم توقفت عن سعيها سنة ١٨٩٤ . وقد قام الدكتور بيتر تومسون فألف كتاباً مستقلة أودعها قائمة المطبوعات الفلسطينية من سنة ١٨٩٥ وما بعدها ظهر منها حتى سنة ١٩١٦ ثلاثة مؤلفات

كما ظهرت مجلة بطريركية القدس الأرثوذكسية والمجلة الألمانية لصاحبها الدكتور بينز^(١) .

ونظراً للمركز الديني والسياسي لفلسطين حظيت آثارها باهتمام علماء التنقيب فقد كانت هناك « مجلة التنقيب عن آثار فلسطين » وهناك مجلات - انجليزية والمانية أيضاً وكان للفرنسيين المجلة الكتابية التي كانت تلخص كل ما نشر في المجلات الأثرية عن فلسطين^(٢) ونظراً للأحوال التعليمية السيئة التي كانت تعيشها فلسطين حتى القرن العشرين كان ظهور الصحف متأخراً حيث يعتمد رواجها على كثرة القراء ولعل أول جريدة في القدس كانت جريدة « القدس الشريف » وهي جريدة حكومية محلية صدرت سنة ١٩٠٤ باللغتين العربية والتركية ، ولما جاء الدستور ١٩٠٨ ظهرت الصحف في القدس ويافة وعكا وحيفة وغيرها حيث وجد في فلسطين خمسون صحيفة تقريباً ما بين سنتي ١٩٠٤-١٩٢٢^(٣) .

وفي كتاب تاريخ الصحافة العربية « للكونت فليب طرازي نجد فهارن وجداول للمجلات والجرائد التي صدرت في فلسطين إلى نهاية عام ١٩٢٩ بلغت إحدى وثمانين ما بين صحيفة ومجلة صدرت في القدس وحيفة وعكا ويافة وبئر السبع

(١) المقتطف ج٥ ص ٤٧٢ راجع أيضاً تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص ٢٩٩-٣٠٣ .

(٢) النفائس العصرية ج٢ سنة ١٩١٢ ص ٥١٦ .

(٣) مجلة الزهراء مقال الدكتور نجيب الساعاتي « انتشار الصحافة في فلسطين » عدد ٦ ص ١٤٥-١٤٧ .

وهذه صورة مركزة للصحافة في داخل فلسطين أما في خارجها فكان لأبناء فلسطين مشاركة فيها أيضاً هذا عامم بسيسو وأحمد عزت الأعظمي يصران في الآستانة مجلة المنتدى الأدبي في ٢٧ شباط ١٩١٤ وأصدر عارف العارف جريدة عربية هزلية (ناقة الله) ١٩١٦ في معتقل سبيريا وأصدر الأستاذ أحمد شاعر الكرمي مجلة باسم « الميزان » وأصدر الشاعر الشيخ إبراهيم الدباغ مجلة « الإنسانية » في القاهرة^(١) وكان الأستاذ محمد علي الطاهر قد أصدر جريدة « الشورى » في القاهرة يتبين لنا من عدد الصحف والمجلات أن لأبناء فلسطين نشاطاً ملموساً في مجال الصحافة سواء في داخل فلسطين أو خارجها بالإضافة إلى أن الكثير من أبناء فلسطين كانوا يكتبون في « المشرق » و« المقتطف » و« الهلال » (وغيرها وقد كانت بعض الصحف الفلسطينية تطرح موضوعاً أدبياً وتعطي جائزة لأحسن من يكتب فيه وبعضها كان يصدر أعداداً ممتازة لدراسة نواح خاصة من البلاد^(٢)).

كل هذا يوضح لنا دور الصحافة الفلسطينية في نهضة هذا القطر الثقافية .

رابعاً : الأندية والجمعيات الأدبية :

من أقدم الجمعيات في فلسطين جمعية « سوسنة صهيون » أنشئت سنة ١٨٧٧ وجمعية الغيرة المسيحية للروم الأرثوذكس وكتابها في المقدس^(٣) وفي عكة ثلاث جمعيات هي جمعية «شعبة المعارف» و«الجمعية الأدبية الخيرة» وجمعية «مارمنصور» ومن الجمعيات التي عنيت بنشر المباحث المطبوعة في مختلف شؤون فلسطين « الجمعية الألمانية الفلسطينية» وقد وقفت عن نشر المطبوعات الفلسطينية ولم تقف عن نشر المباحث الخاصة بشؤون فلسطين^(٤) كما أنشئت الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية سنة ١٨٨٢ التي أولت عناية خاصة لدراسة أحوال فلسطين درساً تفصيلياً^(٥) كما أنشئت جمعية ترقى الآداب الوطنية في يافا سنة ١٩٠٨ لتهديب الشباب وتربيتهم

(١) وحي الشاطئ ص ٩٩ .

(٢) حياة الأدب الفلسطيني الدكتور ياغي ص ٨٩-٩٠ بتصرف .

(٣) مجلة المقتطف ج ٨ ص ٤٧٠ ١٨٨٢ .

(٤) مجلة الزهرة - معرقل الأقلام - عدد ٢٣ ص ٤٩٥ .

(٥) مجلة النفائس العصرية ج ٨ سنة ١٩١٧ ص ٦٥ .

وكانت تصدر نشرة بأعمالها السنوية^(١) وقد كان الفضل لعقد أول مؤتمر فلسطيني رسمي أقرت به الحكومة البريطانية لمجعتين في حيفة الإسلامية ورئيسها مفتي حيفة الشيخ محمد مراد والمسيحية ورئيسها الأستاذ فؤاد سعد وكان انعقاد اللجنة في حيفة من ١٣-٩ كانون الأول سنة ١٩٣٠ برئاسة موسى كاظم الحسيني وقد كان تشكيل المؤتمر باقتراح - الشيخ سليمان التاجي الفاروقي^(٢). وكان في حيفة أيضاً «جمعية الشبيبة المسيحية» وهي جمعية أدبية أنشئت من أجل بحث الأمور الأدبية وكان رئيسها الأستاذ أديب الجدع .

وقد كانت معروفة قبل الحرب باسم « نهضة فتيان الروم الكاثوليك » وأعيد تأسيسها في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٩ وفي حيفة أيضاً جمعيتان نسويتان الأولى « جمعية السيدات المسيحية » والثانية « جمعية تهذيب الفتاة الإسلامية » كما تأسست « جمعية النهضة الاقتصادية العربية » وكان من المنادين بتأسيسها السيد نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل وقد افتتحت في ٢٢ شباط ١٩٢٢ . ومن صلاحيات هذه الجمعية بموجب نص قانونها أن تشكل هيئات فرعية في القرى تربطها جميعاً لجنة عليا ينتخبها المؤتمر الذي يعقد بعد تنظيم هذه الهيئات وقد بدأت بتشكيل نقابات لكل مهنة وصناعة وفن . « وكان من بين النقابات (حلقة الأدب) وغايتها تعزيز اللغة العربية وتشجيع فن الخطابة والنظر في كل تقيصة من تقائص مجتمع حيفة الأدبي وإصلاحه والعناية بالتعليم ونشر الكتب الأدبية ولم تكن الحلقة تقبل بين أعضائها إلا حلة الأقلام - والخطباء ومن مارس في الآداب ثراً ونظماً وكان أعضاؤها الفخريون من بين الذين يميلون إلى الأدب وينشطونه وقد قامت فكرة تأسيس هذه الحلقة في رأس الكاتب توفيق زبيق واستشار بشأنها الأدباء من أصدقائه فاستحسنوا فكرته وشجعوه ولكنهم أمهلوه إلى أن تأسست جمعية النهضة الاقتصادية العربية فباشروا بتأسيس الحلقة وسنوا لها نظاماً في جلسة تمهيدية عقدت في ٢٨ نيسان سنة ١٩٢٢ عقدها توفيق زبيق ورفيق التيمي والدكتور قيصر الخوري وأديب الجدع ويوسف الخطيب وعبد الرحمن رمضان وجميل البحري .

وقد أحدثت الحلقة نشاطاً كبيراً وكانت تقيم الحفلات وتنظم المحاضرات وتنشئ

(١) مجلة النفائس العصرية جه سنة ١٩١١/٣ ص ٥٤٠ .

(٢) مجلة الزهرة عدد ٢٣ ص ١١٤ .

المسابقات للتأليف المسرحي وغيره وكانت تقوم بدور كبير في الحياة الأدبية بما ترجمه أعضاؤها وما حاضروه وما أنشأوه^(١) وكان لموظفي السكة الحديدية في حيفة ناد يجمعهم كما أقام نخبة من شبان طائفة الروم الكاثوليك أدباء وموظفين وعمالاً نادياً باسم (النادي الكاثوليكي)^(٢) سنة ١٩٢٢ كذلك قامت الجمعيات التعاونية في القرى كجمعية تعاون القرى التي اتخذت مركزها في حيفة أيضاً ومع عنايتها بشؤون الفلاح أقامت كثيراً من الحفلات الأدبية حيث يلقي الشعر وتقوم الدراسات حول شؤون القرية .

وتأسس في حيفة أيضاً « النادي العربي » الذي كان أعضاؤه من الشبان المسلمين والمسيحيين لممارسة الفنون الأدبية والرياضية كما كانت هناك نواد مختلفة للأسر .

وقد كان لهذه النوادي دور كبير في الحياة الأدبية وفي بيت لحم نشط نادي الشبيبة حيث كان يقيم الحفلات لتكريم الأدباء والمستشرقين . وفي غزة اعتنى النادي الأرثوذكسي بالتمثيل^(٣) وكان النادي العربي في القدس يقيم مسابقة أدبية باسم « سوق عكاظ » سنة ١٩٢٤ وفي موسم النبي موسى يوزع الجوائز على الفائزين في الشعر^(٤) .

ومن مظاهر نشاط هذه الجمعيات والنوادي إقامة الحفلات لإكرام الشعراء والأدباء فقد زار الشاعر خليل مطران فلسطين سنة ١٩٢٥ للاصطياف في رام الله فأقيمت له حفلات التكريم في القدس وبيت لحم ويافا والبيرو وطولكرم وقلقيلية ورام الله^(٥) وكتب سليم سركييس إلى خليل بيدس عندما زار القدس سنة ١٩٢٠ والتقى فيها بالرصافي الشاعر العراقي « وقد سرتني من القدس الشريف أن فيها (جامعة للأدباء) لم أوفق إلى مثلها في دمشق وحيفة فقد قضيت نحو أربعين يوماً في عاصمة المملكة السورية وقابلت فيها عدداً كبيراً من الأدباء ولكن شملهم متفرق فلا يجتمعون في مكان معين أو زمان شأننا في مصر وأما في القدس فإن ليوث الأدب

(١) حياة الأدب الفلسطيني ص ٩٦-٩٧ .

(٢) مجلة الزهرة عدد ٢٥ ص ١٢ .

(٣) النفر عدد ٢٥ ص ١٢ .

(٤) ديوان مشاهد الحياة ص ٢٠٢ .

(٥) الزهرة عدد ٤ ص ٢١٢ .

يأوون إلى عرين خاص يتهيبه من لم يكن من طبقتهم وهذا التهيب والوقار يساعدهم على العزلة ويبعدانهم عن الغوغاء . وقد بلغ من اعجابي بمجلسهم في القدس أنني كما تعلم كنت أول من حضر وآخر من انصرف حتى لا يفوتني جمال مجلسكم وفائدته لو أن بينهم من يحذو حذوي في مجالس أدباء مصر لاجتمع لديه الشيء الكثير من ثمرات العقول التي تليق يوماً ما أن تكون حديث المجالس لأنك تنال من الأدباء وقد أرسلوا على سجيتهم - ما لا تناله من ثمرات العقول إذا هم تأتقوا في الحديث وتأهبوا له فهنيئاً لكم ولجلسكم بكثير من الحسنات وفي مقدمتها (مجلس الأدباء)^(١).

وقد كانت النوادي أيضاً تقيم الحفلات احتفاء بالأدباء والمفكرين فقد اقام نادي الألعاب الرياضية بالقدس في آذار ١٩٢٠ حفل تكريم للصحفي الأستاذ سليم سركيس ألقى فيها الأستاذ اسعاف الناشين كلمة رائعة كما ألقى الأستاذ الرصافي قصيدته السينية المشهورة وكانت الحفلة في مدرسة روضة المعارف^(٢).

خامساً : الإذاعة :

وهي من العوامل الفعالة لنهضة الأمم في مختلف نواحي الحياة يقول الأستاذ عجاج نويس « إن الإذاعة أرقى أسباب التواصل بين الأمم وهي تجعل المعمور الإنساني في مسمعك وعماء قريب على مرأى منك في لحظات هي أعجل من لمحات البصر فالمدىاع رسول انقلاب في البشر لا يعلم إلا الله مدى حدوده وانبساط آفاقه ومهما يكن للمدىاع اليوم وغداً من شأن عظيم في إحداث الانقلاب في المجتمع فمن أخص ما نرى من مميزاته أن له رسالة مقدسة كتب عليه أن يؤديها إلى الأمم وإلى العرب في جميع أقطارهم ألا وهي رسالة نشر الثقافة الصحيحة كأوسع معانيها ويشترك في هذا العالم والمؤرخ والأديب والكتاب والشاعر والباحث والناقد والممثل والمفتي والمطرب من رجال ونساء^(٣).

تأسست الإذاعة في فلسطين مبكراً إذ أسست حكومة فلسطين محطة لاسلكية

(١) النفائس ج١٧ ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٢) الحياة الأدبية في فلسطين ص ١٠٠ .

(٣) الحياة الأدبية في فلسطين ص ١٠٥ .

واختارت الشاعر إبراهيم طوقان لإدارة البرامج العربية وفي ٢٩ مارس ١٩٢٦ نقل الأثير لأول مرة صوتاً عربياً هو صوت إبراهيم طوقان وقد كان الناس يتطلعون بقلوبهم إلى إبراهيم لوضع الإذاعة في خدمة القضية الفلسطينية للظلم الذي كانت تلاقيه من حكومة الانتداب والصهيونية الآتمة ... وضع إبراهيم خطته لخدمة الجمهور ، وخدمة التراث العربي الأدبي واصطدمت الغايتان ... وثارت الصهيونية وامتدت الرقابة إلى كل ما يذيع إبراهيم وإلى كل ما يعد من تمثيلات وأحاديث وقصص قد أذاع على الناس تحقيقاً أدبياً أثبت فيه بالوثائق التاريخية أن السؤال الشاعر الجاهلي اليهودي كان ذا نزعة يهودية من حيث حبه للمال وأن هذه النزعة هي التي دفعته إلى إثارة الذبح لابنه خارج الحصن ولم يكن في الأمر عامل الوفاء وأما كان ذلك من أجل مال جسم وعده به امرؤ القيس إذا استجاب لطلبه وقد أذاع هذا التحقيق بنفسه في ٢٠ سبتمبر ١٩٣٦ فاهتاجت الصهيونية وظلت تدس له حتى انتهى الأمر بإقصاء إبراهيم^(١) .

وقد أعدت محطة الإذاعة سلسلة من المحاضرات الوطنية موضوعها «شخصية فلسطينية» بارزة ولما تولى الأستاذ عجاج نويهض مراقبة البرامج العربية في الإذاعة الفلسطينية أخذ يعد برامج يستدعي لها كتاباً وباحثين من فلسطين والبلاد العربية لإلقاء المحاضرات والبحوث فتقدم الأخطل الصغير - بشارة الخوري - بتحية شعبية لفلسطين في مساء الخميس ٢ نيسان ١٩٤٢ وحاضر الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي عن الجيش في التاريخ الإسلامي ثم عن التربية والتعليم في العصور الإسلامية وكانت محاضرات كل من الأستاذ عبد السلام البرغوثي والأستاذ عباس محمود العقاد عن معارك ١٩٣٩ وحاضر قبله في الموضوع نفسه الأستاذ عبد القادر المازني وأذاع الشيخ عبد العزيز البشري حديثه عن الدولة الأموية والأستاذ محمد كرد علي حديثه بعنوان «هل تمدنا» كما قدم الأستاذ خليل تقي الدين مدير المطبوعات في جمهورية لبنان حديث رمضان حول الأدب العربي وتحدث الأستاذ نسيم يزبك حديث بعنوان نظرة في مستقبل العمر وتحدثت السيدة أسماء طوبى عن تربية الطفل وتحدثت السيدة ماري صروف عن التربية في الأسرة العربية وتحدثت الأنسة قدسية خورشيد عن شخصية المرأة وقدم الأستاذ خليل بيدس حديثاً بعنوان «إلى فتياتنا» وقدم أيضاً قصة

(١) إبراهيم طوقان المحاسن ص ٢٧ .

عنوانها « البطلة »^(١) كما استقدمت محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية في فلسطين علماء وصحفيين مثل الشيخ عبد الله العلايلي والأستاذ الحوماني والأستاذ أكرم ملحم كرم^(٢).

هذه هي العوامل المباشرة المساعدة في النهضة الثقافية في فلسطين ، وقد تفاعلت هذه العوامل مع عوامل داخلية أخرى فتولدت أنشطة ثقافية مختلفة فقد كثرت النوادي والجمعيات التي ساعدت على إيجاد نهضة تمثيلية مسرحية نمت وازدهرت بظهور الإذاعة التي جعلت لها جانباً من برامجها . وقد ظهرت في حيفة « جمعية التمثيل الأدبي » في مطلع القرن العشرين وكانت محاولة جادة لإحياء التمثيل^(٣) وقد نشط في هذا الجانب الأستاذ جميل البحيري فأخذ يتبع روايته حلقات أخرى وتمثيلات غيرها يقدمها إلى رؤساء المدارس لتمثل على المسارح المدرسية وإلى معاصر عشاق التمثيل الأدبي سداً للفراغ^(٤) وفي بيت لحم قام نادي الشبيبة بتمثيل روايات للجمهور مثل رواية « عواطف » الاجتماعية وقد أعد رئيس نادي الشبيبة الأرثوذكسي بياناً خاصاً بالتمثيل ومعه رئيس اللجنة التمثيلية وبعض الأعضاء^(٥) وبما ساعد النهضة التمثيلية ظهور أفراد أفذاذ في مجال التمثيل وقد كتبت مجلة النفير تقول « إن هناك شاباً شرقياً عربياً يكاد وطنه مجهل شخصيته ».

بينما دوائر برلين الأدبية ومسارحها التمثيلية ، تتغنى بعبقريته وقد بذل جهداً في سبيل نشر الأدب العربي في أنحاء المانيا فوضع الروايات التمثيلية الحافلة بمآثر العرب بالكتابة في صحف المانية عن التراث العربي وإنشاء الشعر العربي في الأندية الالمانية .

وذلك الشاب هو عزيز ضومط وآخر رواية وضعها « والي عكة » التي مثلت لأول مرة على مسرح بلدية (شترالسون) فنالت استحساناً كبيراً وقد عدوه في الطبقة الأولى من شعراء المانية وأقاموا له حفلة تكريم ألقى فيها بالألمانية ترجمات شعرية لكل من مطران وشوقي وحافظ وهو من أبناء حيفة^(٦) ومن الجمعيات التمثيلية في هذه الفترة « جمعية الفنون

(١) حياة الأدب الفلسطيني ص ١٠١ - ١٠٢

(٢) مجلة الأديب ج ٣ ص ٥٩ .

(٣) ولاية بيروت ص ٤٩ .

(٤) الزهرة عدد ٩ ص ٢٥ .

(٥) النفير عدد ١٠ ص ٥ .

(٦) النفير عدد ٢١ ص ١٣ .

التمثيلية « في القدس وقد مثلت على مسرح مدرسة الفرير رواية «عنترة»^(١) وللمرة الأولى تظهر المرأة على المسرح عندما مثلت فرقة من شبان القدس رواية ماجدولين على مسرح سينما صهيون وقد مثلت فرقة الشبان المسلمين الكبرى في يافة رواية «دموع يائسة» على مسرح قهوة «أبو شاكوش» وفي الثلث الأول من القرن العشرين نشأت الفرق التمثيلية الجواله في فلسطين والأردن كما فعل فريق الهيئة التمثيلية لنادي الشبيبة في بيت لحم حيث مثل «رواية الاستبداد»^(٢).

وقد عنيت جريدة النفير بتشجيع التمثيل وفرقه وتتبع أخبار الممثلين والجمعيات التمثيلية من ذلك حديثها عن النهضة التمثيلية في حيفا بمناسبة حضور أكبر فرقة تمثيلية عربية إليها وهي فرقة رمسيس المصرية بقيادة يوسف وهي وجورج أبيض حيث تذكر أن أول من غرس نواة هذه النهضة في حيفا هي جمعية الرابطة الأدبية وقد جعلت حفلاتها التمثيلية عامة ومجانية فأقبل عليها سكان حيفا على اختلاف مللهم وغلهم ثم تبعتها الجمعية الإسلامية مثلت على مسرح زهرة الشرق رواية (فهد الطرابلسي) فلاقته بما تستحقه من الاستحسان وقام أعضاء النادي الرياضي الإسلامي بتمثيل رواية «مطلع النساء» وكلها عبر للنساء ولكن للأسف لم تحضر أي واحدة من النساء ثم مثلت فرقة كشافة حيفا رواية «الأسود والنعمان» وفي خلال الثلاثة أشهر - شباط - آذار - نيسان ١٩٢٩ مثل الأعضاء ما يزيد على ثمان روايات^(٣).

هذه لمحة خاطفة عن نشاط الفرق التمثيلية في فلسطين حتى الثلث الأول من القرن العشرين ولم تكن حكومة الانتداب تشجع التمثيل في فلسطين لكونه يضر بوجودها . وفي يافا كانت فرقة نادي الشبيبة الأرثوذكسية أنشط الفرق التمثيلية في فلسطين^(٤) ثم نشط فن التمثيل فدخل المدارس ومختلف النوادي والجمعيات ثم ظهر العنصر النسائي بشكل واضح في تمثيل رواية «هملت» لشكسبير التي قامت بها فرقة الكرملة التمثيلية ومن بين الممثلات اللائي أجدن أدوارهن «أسيا خوري وثريا أيوب»^(٥) وقد تفاعلت هذه العوامل

(١) النفير عدد ٢٢ ص ٨ .

(٢) النفير عدد ٢٢ ص ١١ .

(٣) النفير عدد ٢٩ ص ٢٩ .

(٤) النفير عدد ٢٩ ص ١٢ .

(٥) النفير عدد ٢٩ ص ١٢ .

وأسهمت في فتح نوافذ على الحياة الغربية .

سادساً : الترجمة :

كانت من أكبر النوافذ على الحياة الغربية لكثرة الإرساليات الأجنبية التي كانت تعلم باللغة الفرنسية والانجليزية والإيطالية والروسية والألمانية واليونانية حيث وجدنا أن أول ما ترجم سنة ١٨٦٠ تأليف دينية (مرشد الأولاد) لفرنسيسكو سوافيوا وس قد عربه مينا يوسف دباس اليافوي وطبع في مطبعة القبر المقدس اليونانية^(١) وطبعت مطبعة الآباء الفرنسيين في القدس قبيل القرن العشرين مائة وعشرين كتاباً بالعربية والتركية والأرمنية والعبرانية واليونانية فضلاً عن اللغات الأوربية كالإيطالية واللاتينية والفرنسية والأسبانية^(٢).

وفي مطلع القرن العشرين وجدنا موضوعات غير دينية مثل كتاب « الأمومة عند العرب » ترجمها عن الألمانية بندي صليبا الخوري وطبع في قازان سنة ١٩٠٢^(٣). حتى إذا ظهرت الصحف اتجهت الترجمة نحو الحكايات والقصص والروايات . حيث أخذت الطابع الأدبي وكان الأستاذ خليل بيدس من أوائل من مارسوا الترجمة الأدبية حيث كان يتقن اللغة الروسية فترجم عنها الكثير وفي أعداد مجلته النفائس كان ينشر العديد من الروايات والقصص كما ترجم رواية المملوك الشارد «لجورجي زيدان» إلى الروسية ومن أوائل المترجمين أيضاً الأستاذ أنطوان بلان أحد أساتذة السينما الروسية في الناصرة حيث نقل رواية «في سبيل الحب» ١٩١٢^(٤) وخواطر من كتاب «طريق الحب» لتولستوي^(٥) وغيرها كثير وقد وجدت جميعها في مجلة الأستاذ خليل بيدس «النفائس المصرية» ومن الذين ترجموا عن الروسية أيضاً سليمان بولس وإبراهيم جابر ، وعبد الكريم سمعان ولطف الله الخوري ، وكلثوم نصر عودة وفارس نقولا مدور الذين نشروا قصصهم في مجلة النفائس المصرية . ومن الذين لمعوا في الترجمة عن الأدب الروسي الأستاذ نجاتي صدقي . كتب

(١) النفير عدد ٣٠ ص ٢ .

(٢) المشرق عدد ٢ سنة ١٩٠٢/٥ ص ٧٠ .

(٣) المشرق عدد ٢ سنة ١٩٠٢/٥ ص ٧٠ .

(٤) المشرق عدد ١٢ سنة ١٩٠٢/٥ ص ٥٧٣ .

(٥) النفائس المصرية جزء ٧ سنة ١٩١٢/٤ ص ٣٤٢ .

للأستاذ ميخائيل نعيمة رسالة بتاريخ ٢ آب ١٩٤٤ جاء فيها « أما الفصول التي تلطفت وقرأتها لي من الدراسة التي تعدها عن بوشكين فقد تركت في ضميري كثيراً من السرور مع شيء من الامتنان لك ذاك لأنك قمت ببعض الواجب الذي كان من المفروض أن أقوم به أنا نظراً للصلة المتينة التي بيني وبين الآداب الروسية .

فقد رشفتها صافية من منابعها الصافية ولكم غنيت أن يباح لي نقل بعضها إلى لغتنا كيما ينعم أبناء الضاد ولو بنفحات من طيوبها النادرة المنال بين آداب الأمم ... أمما أنت^(١) تأخذ الكسندر بوشكين أعظم شعراء الروس وقمة باسقة من قمم الشعر الباسقات في الأرض فتنتقل إلى قراء العربية أخبار حياته القصيرة والحافلة بكل جليل ومدهش من الأخبار .

وما يزيد في قيمة عملك أنك وقد حصلت قسطاً ليس بالقليل نستقي معلوماتك من مصادرها الأصلية ومن ذاك ما يغريني بالأمل وقد فرغت من حياة بوشكين أن أراك تتصرف إلى نقل بعض المعالم الأدبية إلى العربية فمن الخجل أن تبقى إلى الآن محجوبة عن العرب .. وما من أمة حية - كبيرة أو صغيرة - إلا وتمتع اليوم بنصيب من جمالها الفتان وغناها المفرط ودوحها الإنساني العميق^(٢) وقد كانت مجلة النفائس لمنشئها الأستاذ خليل بيدس النافذة الواسعة التي يطل منها الأدب الروسي ويعد الأستاذ أنطون بلان - والأستاذ نجاتي صدقي من أسهموا في إثراء الأدب العربي الفلسطيني بالأدب الروسي على صفحات النفائس كما أسهم الأستاذان محمود سيف الدين الإيراني وعارف العزوي في نقل الأدب الروسي المترجم من اللغات الأوروبية إلى الأدب العربي على صفحات « الطليعة »^(٣) كما نشط الأستاذ جبران مطر في ترجمة القصص عن الألمانية ونشرها في مجلة النفائس العصرية وكذلك الأستاذ الياس نصر الله حداد ترجم رواية (نathan الحكيم) عن الألمانية للشاعر الألماني لسنغ وطبعها في مطبعة دار الأيتام في القدس^(٤) ومن أوجه نشاط الترجمة أيضاً ما كان يفعله المجلس المختلط للطائفة الأرثوذكسية حيث أعضاؤه اثنا عشر عضواً منهم ستة من الرهبان وستة من العلمانيين وكان من بين العلمانيين الأستاذ خليل بيدس

(١) النفائس العصرية ج٧ سنة ١٩١٢/٤

(٢) بوشكين أمير شعراء روسيا . سلسلة اقراء رقم ٢٨ المقدمة .

(٣) الطليعة الأعداد ١٠/٧/٦ السنة ٢ ص ٥٦٧-٥٨٠ ، ٥٩٢ ، ٨٦٩

(٤) الهلال جزء ١٠ سنة ١٤٨٣

عن الناصرة وكان البطريك يتلو خطابه في المجلس باللغة اليونانية ثم يقوم عضو من الأعضاء ويقرأ على المجلس الترجمة العربية للخطاب . وكان الأستاذ توفيق اليازجي يترجم في مجلة (الأدب) قصيدة (الحمر الممزوجة) للشاعر اليوناني يوانس بوليقي^(١).

أما اللغة التركية فقد توجهت الترجمة إليها في وقت مبكر ولم يستفد الأدب العربي كثيراً من الأدب التركي بالنسبة لطول الزمن الذي دخل فيه العرب تحت الحكم التركي وذلك يعود إما لضعف الثقافة العربية والترجمة حيث لم تنهياً الدوافع للترجمة أو لطغيان الأدب التركي وعدم الاستفادة منه وإما لعدم شعور العرب بالفارق بينهم وبين الأتراك لأن الشعور بالشخصية العربية وتلمسها كان رد فعل لنزعة التتريك التي دعا إليها حزب الاتحاد والترقي بعد إسقاط السلطان عبد الحميد ومع هذا عَرَّب المؤرخ - الفلسطيني البحاثة عبد الله مخلص كتاب نامق كمال (سيرة الفاتح) السلطان محمد الثاني^(٢) كما عرب الكاتب الأديب حسن صدقي الدجاني رواية (حذار)^(٣) كما عرب الأستاذ عارف العزوني (ترانتابابو) من رسائل شاب حبشي إلى زوجته للشاعر التركي الكبير ناظم حكمت^(٤) وعن اللغة الانجليزية يترجم إبراهيم حنا حكاية عن حذافة الفرنسيين وادراك الانجليز وتترجم روز حسون حكاية عن زهرة البرتقال «في النفائس» وهناك ترجمات دينية ترجمها بولي صدقي من القدس عن كتاب «تسعة أمثال لربنا يسوع المسيح»^(٥)، ومن أشهر المترجمين أيضاً الأستاذ توفيق الزبيق الذي ترجم مقالاً وقصصاً لمجلة النفائس^(٦) كتاب «ميزان النفس» حيث نشر فصلاً منه في معرض أقلام الزهرة^(٧) كتاب «الحرية والمعيشة»^(٨) وكتاب «حديث المائدة» للكاتب الاجتماعي الكبير دوزن^(٩) وترجم الأستاذ أحمد شاكر الكرمي في الكرميات التي

(١) النفائس المصرية جزء ١٢ مجلد ٢ ص ٩٢-٩٤ .

(٢) النفائس المصرية جزء ٢ سنة ٢٤ ص ٩٥ .

(٣) معرض أقلام الزهرة عدد ٢ سنة ٩٢ .

(٤) الطليعة عدد ٢ سنة ٢٤٢ .

(٥) النفائس المصرية جزء ١٢ سنة ٢٤ ص ١٠٠ .

(٦) فن التمثيل في خلال قرن يوسف داغر ص ٤٥١ .

(٧) النفائس المصرية جزء ٢ سنة ١٩٨ .

(٨) معرض أقلام الزهرة عدد ٧ سنة ٢٤ ص ٢١٩ .

(٩) النفائس المصرية جزء ٢ سنة ٧٣ .

صدرت سنة ١٩٢١ (للشاعر الانجليزي شلي) (فلسفة الحب) والحرية (والتقلب) كما ترجم قصة (الفلسفة الشرقية) للكاتب الفرنسي برناردين دوسان بير عن الانجليزية وقصة (ما أغلاه) للكاتب الفرنسي جي دي موياسان نقلها عن الانجليزية و(أسطورة العمل والموت والمرض) للفيلسوف الروسي تولستوي عن الانجليزية و(أسطورة الزهرة) - فينوس عن كتاب الصور لمارك توين وترجم للشاعر الانجليزي بوب روايته «مي أو الحريف والربيع» نشرها في مجلة الرابطة الأدبية في دمشق سنة ١٩٢١ وترجم قصة (خالد) للروائي الأمريكي ماريون كروفود وقد كان للأستاذ وديع الستاني مجموعة كبيرة من الكتب المترجمة عن الانجليزية في السياسة والاجتماع والشعر والأدب . أما الأستاذ أحمد سامح الخالدي فهو من أشهر من نقل عن الانجليزية بحوثاً في التربية فقد اعتمد في وضع كتابه (إدارة الصفوف) على بحوث بجلي "Begley" طبع في القدس ١٩٢٨ واعتد في وضع كتابه (أركان التدريس) على كتاب (إرشادات المعلمين) انذي نشره مجلس التعليم البريطاني وطبع في القدس ١٩٣٧ ونقل كتاب «الحياة العقلية» لمؤلفه وذرورث... كما نقل كتاب (الطريقة المنشورية في التربية والتعليم) وطبع في القدس ١٩٢٥ - وترجم إلى جانب ذلك (أقنعة الحب) للدكتور وليم شيتكل «وأهمية التحليل النفسي» طبع في القدس ١٩٤٦ كما أن زوجته عنبرة سلام الخالدي قد قامت بنصيبها في الترجمة عن اللغة الانجليزية فقد كانت تنشر في (الكشاف) سنة ١٩٢٨ سلسلة مقالات - مترجمة بعد ذلك منها الياذة هوميروس عن الانجليزية ونشرتها في المطبعة العصرية في القدس سنة ١٩٤٦ وهي منقولة عن (قصة الإلياذة) لألفرد تشرش . ومن أشهر المترجمين عن الانجليزية أيضاً الأستاذ عجاج نويهض إذ ترجم كتاب حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستوارد طبع في القاهرة سنة ١٩٢٤ وهو الكتاب الذي علق على أصوله تعليقات وافية الأمير شكيب أرسلان فجاء في أربعة مجلدات وترجم الأستاذ عجاج نويهض كتاب (النظام السياسي نظرياته وأشكاله) في القدس ١٩٣٣ وترجم الأستاذ عبد الرحمن بشناق رواية في سبيل المجد الأثر كويلر كلوتشي في القدس ١٩٣٩ وترجم الأستاذ جبر إبراهيم جبر (قصة حياة شلي) لاندرية موروا وترجم قصة (البلبل والوردة) لأوسكار وايلد وقصة (عاشق) لجورج موسى وله ترجمات غير ذلك^(١).

(١) حياة الأدب الفلسطيني ص١١٤-١١٥ .

الترجمة عن الفرنسية :

لقيت الآداب الفرنسية عناية من الأدباء الفلسطينيين الذين تعلموا في المدارس الفرنسية توازي ما لقيت الآداب الانجليزية ، ولعل الأستاذ محمد روجي الخالدي يعد من أوائل الذين عنوا بالترجمة عن الفرنسية إلى العربية وفي كتاب فكتور هوجو «علم الأدب عند الأفرنج والعرب» ترجمات تاريخية وأدبية وعرض وتصوير واقتباس لكثير من آراء فكتور هوجو في الشعر والنثر ثم دخلت الترجمة مرحلة جديدة بظهور الصحافة حيث أخذت الصحف تترجم بعض القصص والروايات التمثيلية ومن أشهر الصحف التي اعتنت بالترجمة «النفي» «الزهرة» ومن أشهر المترجمين الصحفيين الأستاذ جميل مجري الذي خصص القسم الأول من «الزهرة» للروايات اللاتي كان معظمها منقولاً عن اللغات الأوربية . وقد كان لظهور الأستاذ عادل زعتر فاتحة عهد جديد للثقافة الفلسطينية على الثقافة الفرنسية فنذ كان في باريس سنة ١٩٣٣ طالباً في الحقوق وهو ينقل الروائع من الثقافة الفرنسية إلى العربية في مختلف المجالات من أدب وسياسة واجتماع وتاريخ وفلسفة وقانون حيث ترجم سبعة وثلاثين كتاباً^(١) ونحن لا يسعنا أن نذكر جميع المترجمين في مختلف اللغات لكثرتهم ولكن يمكننا أن نتصور عددهم إذا علمنا أن فلسطين كانت مجالاً خصباً للإرساليات الأجنبية لمكانتها المقدسة وما كانت تسعى إليه كل إرسالية من نشر ثقافتها عن طريق لغتها وما تقدمه من مساعدات في هذا السبيل . وإذا علمنا أن دولة أجنبية لها إرسالية في أكثر من مكان واحد مثل بريطانيا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا واليونان والمانيّة وروسية إذا علمنا هذا أدركنا مدى انتشار الثقافات الأجنبية بلغتها في فلسطين لذلك بدأت الترجمة بالكتب الدينية ثم المدرسية وقد كانت هذه الإرساليات ترسل المتفوقين من طلابها إلى وطنها الأم في بعثات دراسية ليزدادوا اطلاعاً على ثقافتها واتقاناً للغتها .

(١) حياة الأدب الفلسطيني ص ١١٤-١١٨ .

أثر الإرساليات التبشيرية في الحياة الثقافية بفلسطين :

بعد أن استعرضنا الحياة الثقافية ببواعثها المختلفة نلاحظ أن الإرساليات التبشيرية الأجنبية قد أسهمت في هذه البواعث اسهاماً كبيراً إن لم تكن قد هيمنت عليها تماماً . فلقد أحدث ضعف الدولة العثمانية في البلاد العربية فراغاً سرعان ما ملأته الدول الغربية الطامعة في البلاد العربية وقد كان لموقع فلسطين الجغرافي والتاريخي الأثر الأكبر في تركيز هذه المطامع عن طريق زيادة نشاط الإرساليات التبشيرية .

ولقد كانت مهمة هذه الإرساليات الأولى هي قطع الرابطة التي تربط بين العرب والخلافة العثمانية عن طريق استغلال مظاهر الضعف في الخلافة ثم اضعاف الوازع الديني في نفوس الشبيبة العربية لذلك كثيراً ما كانت تتظاهر باسم التفكير الحر والبحث العلمي والتسامح الديني للطعن في المقدسات والتراث الروحي متخذة من المواقف السلبية للخلافة العثمانية اتجاه العرب - حجة لها ونحن نلاحظ أنه لم توجد في فلسطين دعوة إسلامية حرة تلتف الأنظار إلى قداسة هذا البلد الذي بارك الله فيه في قوله ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لئريه من آياتنا إنه هو السميع العليم ﴾^(١) . لتبعث في نفوس المسلمين العظمة والعزة التي بها يرفضون كل ثقافة غير إسلامية لأنها أجنبية بكل صورها وألوانها .

بل رأينا بواعث الحياة الثقافية المختلفة تصبغ تبشيرية فدارس الإرساليات التبشيرية تنتشر في كل فلسطين ويتهافت الطلاب المسلمون عليها وهي لا تُدرّس شيئاً عن الإسلام بل وتدرس لهم أشياء عن المسيحية حسب الطائفة التي تنتمي إليها هذه الإرسالية وكذا الطباعة فأول ما عرفت عن طريق اليهود سنة ١٨٣٠ حيث أنشأ «نسيم آق» في القدس أول مطبعة في فلسطين . أما الصحافة فقد كان للمسلمين فيها نشاط ملموس ولكن الموضوعات التي تنشر قد كانت بعيدة عن التوعية والثقافة الإسلامية وهذا يعود إما إلى مؤسسي هذه الصحف ضعيفي الثقافة الدينية بسبب تعلمهم في مدارس تبشيرية أو أن الموضوعات الدينية لم تلق رواجاً بسبب ضعف الثقافة الإسلامية وكذلك

(١) سورة الإسراء الآية الأولى .

الجمعيات والأنندية فقد انتشرت في فلسطين بأسماء مسيحية لكل الطوائف وتعد هذه الجمعيات بنشاطها ثمرة للمدارس التبشيرية كما يعد التعليم نشاطها النظري وكذلك الإذاعة فإن أثرها لم يكن فعالاً كأثرها اليوم لقلة من يملك أجهزة المذياع ثم إبراهيم طوقان الذي درس في الجامعة الأمريكية في بيروت لا أجد في ديوانه قصيدة واحدة تشير إلى أي أثر للدين في تفكيره ثم التمثيل الذي هو أبعد ما يكون عن النزعة الدينية ثم الترجمة التي نشطت في فلسطين نشاطاً ملموساً أظهرت مدى فاعلية المدارس التبشيرية في الناشئة الفلسطينية ويكفي أن الأستاذ عادل زعير وحده قد ترجم سبعة وثلاثين كتاباً عن الفرنسية ولم يترجم كتاباً واحداً من العربية إلى الفرنسية ولعل هذا يكون سمة ظاهرة وواضحة على جميع المترجمين فقد غذيت الثقافة العربية بروافد جديدة غربية مما ولد ثقافة جديدة غربية أكثر منها عربية أصيلة ولعل الثقافة العربية التي حملتها المدارس العصرية «التبشيرية أو الأجنبية أو المليّة» والتي وجدت لتمكن الناشئة من نقل الثقافات الأجنبية إلى العربية فكانت ثقافتهم العربية مقننة ومقدرة بحيث لا تولد عند طلابها عزة عربية تذكرهم بماضيهم الزاهر الذي به كانت لهم العزة في الأرض مما يجعلهم يعيدون مراجعة التاريخ لمعرفة مواطن القوة والضعف لحاضرهم ومستقبلهم فالمدارس العصرية التي اهتمت باللغة العربية لتباعد بين العرب والأتراك الذين لا يهتمون باللغة العربية قد حولت هذه المكاسب لصالح الثقافات الأجنبية فقد أصبح المثقف العربي يعيش في وطنه في غربة ثقافية هي إلى الانجليزية أو الفرنسية أو الروسية أقرب منها إلى العربية . يقول المجاهد عبد الله التل « وقد شجعت تقارير المبشرين التي قدمت لمؤتمراتهم ، التعليم العلماني والدعوة القومية لتحل محل الدعوة الدينية وطلبوا بنشر التعليم الغربي لأنه وسيلة لتحل بها عرى الروابط الإسلامية » . راجع جذور البلاء للمجاهد عبد الله التل ص ٢٢٨

هنا ولم تعد فلسطين المخلصين من مثقفها سواء الذين درسوا لدى الكنائس أو في جامع الجزائر^(١) في فلسطين أو تلقوا ثقافة عالية في جامع الأزهر في مصر أو في الجامع الأموي في دمشق فقد تنبه هؤلاء إلى الخطر المحدق بالمسلمين القادم من الغرب الذي يدعو إلى فصلهم عن الدولة العثمانية ببعث الثقافة العربية والدعوة القومية أو بفتح المدارس

(١) جامع الجزائر كان مركزاً للثقافة الإسلامية مثل جامع الزيتونة في تونس .

التبشيرية الدينية أو الأجنبية العصرية . وقد نبه هؤلاء المسلمين إلى خطرهما ونادوا بضرورة مقاطعتها وبعمل مدارس عصرية إسلامية ليلتحق بها أبناء المسلمين الراغبين في العلوم العصرية وقد كان إنشاء مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية تلبية^(١) لهذه الدعوة ومحاولة جادة لاتقاذ أولاد المسلمين من مدارس النصارى .

(١) أنشئت هذه المدارس في بيروت والحياة الثقافية فيها شبيهة بفلسطين لكثرة النصارى فيها ولامتدادها على الساحل الشرقي للبحر الأبيض .

الفصل الثالث

المؤثر السياسي

النظام الإداري :

عندما استولت الدولة العثمانية على بلاد الشام أناطت الحكم فيها بولاية كانت تعينهم من بعض الموظفين الذين ترافقهم قوات عسكرية وقسمت البلاد إلى إيالات :

الشام وحلب وطرابلس الشام ، وعلى رأس الإيالة موظف يعرف بالوالي يعود بأموره إلى وزير الداخلية في استانبول وكل إيالة تشمل على عدة ألوية أو متصرفيات يحكمها الوالي أو المتصرف وتتألف المتصرفية من عدة أقضية يحكم كل قضاء منها قائم مقام وكل قائم مقامية تتألف من نواح يحكم كل ناحية منها مدير ناحية وتضم الناحية عدة قرى ينوب في كل منها عن مدير الناحية واحد منها ويعرف بالمختار وكانت ولاياتها هي :

- ١ - ولاية حلب وتشمل شمالاً البلاد السورية .
- ٢ - ولاية طرابلس الشام وتشمل وسط البلاد وتضم طرابلس وحماه وحمص والسلمية وجبلية .
- ٣ - ولاية الشام وتشمل جنوب البلاد وكانت تتألف من دمشق والقدس وغزة ونابلس وتدمر وبيروت وصيدا .

وفي عام ١٨٦٠م أنشئت ولاية صيدا لتضم مدن السواحل وعلى أثر الفتنة بين الدروز والنصارى استقل جبل لبنان (لا يضم بيروت) استقلالاً إدارياً بوحدة إدارية خاصة يتولاها متصرف برتبة وزير مرتبط برئيس الوزراء الذي كان يعرف بالصدر الأعظم ، وحوالي عام ١٨٨١ أنشئت متصرفية القدس وصارت تتبع وزارة الداخلية في العاصمة استانبول مباشرة وألحق بها أقضية يافة وغزة والخليل وبئر السبع . كما أنشئت في السنة ذاتها متصرفية بدير الزور ، وفي سنة ١٨٨٨ أنشئت ولاية بيروت لتحل محل ولاية طرابلس وصيدا ويتبعها متصرفينا نابلس وعكة ، وكانت تضم متصرفيات حماه وحواران

والكرك التي أنشئت سنة ١٨٨٧ وعجلون ، ويتبع حوران متصرفية الكرك وأقضية السلط ومعان والطفيلة وفي سنة ١٩١٠ كان قضاء عجلون يتألف من مدينة واحدة هي إربد ومن ناحيتي كفرنجة والكورة كما أن متصرفية الكرك كانت تشمل ثلاثة أقضية وهي السلط ومركزه السلط ويتبعه ثلاث نواح هي مآدبا والطفيلة وعمان وتسع قرى و١٢ مزرعة وقضاء معان وقصبته معان ويتبعه ناحية الشوبك وقضاء الطفيلة المؤلف من الطفيلة وقراها^(١).

يقول الأستاذ خليل طوطح « ... أما في القرن التاسع عشر فقد انتاب فلسطين تقلبات إدارية كثيرة نلخصها فيما يأتي :

كانت عكة حاضرة فلسطين الإدارية الوحيدة ثم اقتطعت صيدا قسماً منها وبعد حين أخذت الشام نابلس وبلادها وظلت البقية تابعة لعكة ثم التحقت جميعها بالشام مركز الحاكم العام «باشا الدورة» أما النظار والمتسلمون «حكام البلاد» فكانوا وطنيين من أبناء فلسطين يحكون مقاطعتها ويجبون الضرائب ويجمعون الجنود ويطوف عليهم «باشا الدورة» فيأخذ منهم ما تعهدوا به فلما اعتزم السلطان محمود الإصلاح ألغى فرق الانكشارية وأبادها ومحا الطوائف الأخرى واستبدل بها فرقاً منظمة وغير العامة بالطربوش الرومي وتزياً بالزي الأوروبي وأمر باتخاذ زياً رسمياً وعسكرياً ثم جاء بعده من السلاطين من نفوا بعض النظار من أمراء الاقطاع إلى طرابزون وحولوا النظارات والمتسلميات إلى مديريات على رأسها وطنيون ثم ألغيت المديريات وتجرد المشايخ من الوظائف المحلية الاقطاعية واستولى الأتراك على البلاد فعلاً فأمرؤا بتحرير النفوس وطوبوا الأرضين ونظموا إدارة الأمن العام وأسسوا العدلية فكانت محاكم فلسطين تستأنف الحكم إلى عدلية الشام ثم تحولت إلى عدلية بيروت وامتازت القدس فصارت متصرفية تخابر الأستانة مباشرة في الأمور الإدارية وفي ابتداء القرن العشرين تأسس فيها محكمة استئناف فانضم إليها لواء نابلس وظل لواء عكة ملحقاً ببيروت ومن ثم حكم العثمانيون البلاد بلا واسطة فارسلوا مأمورهم الأتراك وقبضوا على دفعة الإدارة واتصلوا بالشعب ولكنهم تقربوا من أصحاب النفوذ وراعوا امتيازاتهم القديمة لاستألتهم فتأدوا في غطرتهم واستعانوا بقوة الحكومة واتخذوها آلة لتنفيذ مآربهم وتسابقوا إلى الطاعة وترويج أوامر الحكومة ابتغاء الخطوة عند المأمورين وكان من كسب ثقتهم وظفر بودهم يعد سعيداً لأنه

(١) بلادنا فلسطين - الديار النابلسية - ج١ ص ٩-١٠ بتصرف .

يستفيد من صحتهم بغض أبصارهم عن أعماله مها كانت فيبطش ويستبد^(١) وخلاصة القول أن فلسطين قد قسمت إلى ثلاث متصرفيات في العهد العثماني هي :

- ١ - متصرفية القدس ومركزها القدس وهي تتبع الأستانة مباشرة وتشمل مدن غزة ويافة وبئر السبع واللد والرملة ورام الله وبيت لحم والخليل والمجدل .
- ٢ - متصرفية نابلس : وتتبع ولاية بيروت وتشمل مناطق نابلس وقلقيلية وطولكرم وجنين وغور الفارعة .
- ٣ - متصرفية عكة : وتتبع ولاية بيروت وتشمل مناطق عكة والناصره وصفد وطبرية^(٢) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخلافة العثمانية لم تكن تميز أو تفاضل بين ولاياتها عربية كانت أو غير عربية وعلى هذا نصت المادة الثانية من القانون الأساسي الذي أصدره الخليفة العثماني بكتاب توجيه إلى وزيره في ٧ من ذي الحجة ١٢٩٣ على ما يأتي :

الفقرة الأولى : «أن الدولة العثمانية تحتوي على الممالك والقطع الحاضرة وعلى الولايات الممتازة وجميعها جسم واحد لا يمكن تجزئته بوقت من الأوقات أو بسبب من الأسباب» .

الفقرة الثانية : «أن مدينة استانبول هي عاصمة الدولة العثمانية^(٣) ومقرها غير معفاة أو ممتازة عما سواها من جميع البلاد العثمانية» وعندما خضعت فلسطين للاستعمار البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى قسمت إلى ستة أولوية وضمت ستة عشر قضاء على النحو التالي:

- ١ - لواء القدس ويضم : القدس والخليل وبيت لحم ورام الله وأريحا وبيت ساحور والبيرة .
- ٢ - لواء غزة ويضم : المجدل وبئر السبع والفالوجة واسدود وخان يونس ورفع ، والنقب ومركزه غزة .
- ٣ - لواء اللد ومركزه يافة ويضم : تل أبيب واللد والرملة ويافة .

(١) تاريخ فلسطين الأستاذ خليل طوطح ص ٣٦١-٣٦٢ .

(٢) جغرافية فلسطين عند سلامة النحال ص ١١٢ .

(٣) كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ج ٦ ص ٥ جمع سلم فارس الشديان وكذلك الجوائب عدد ٨٣٦ يوم الخميس ١٩ ذي الحجة ١٢٩٣ هـ .

- ٤ - لواء السامرة ومركزه نابلس ويضم : جنين وطولكرم وقلقيلية .
 - ٥ - لواء الجليل ومركزه الناصرة ويضم صفد وطبرية وحطين وصفوريا وترشيحا وسمخ وبيسان .
 - ٦ - لواء حيفا ومركزه حيفا ويشمل مناطق حيفا وعكة وشفا عمرو .
- وفيا بعد أعادت حكومة الانتداب تقسيم فلسطين إلى أربعة ألوية هي :
- ١ - اللواء الجنوبي ومركزه يافة .
 - ٢ - اللواء الشمالي ومركزه حيفا .
 - ٣ - لواء الجليل ومركزه الناصرة .
 - ٤ - لواء القدس ومركزه القدس .

المسألة الشرقية : وهي عبارة عن أطماع الدول الغربية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية - الرجل المريض - بحجة حماية الأقليات الدينية وتحرير الشعوب ولعل المسألة الشرقية تبدو واضحة بعد ثورة اليونان على السلطنة عام ١٨٢٥ فاتجهت أنظار الساسة الأوروبيين إلى تركيا وهم بين طامع فيها يود تقسيمها ومحافظ عليها يود أن يجعلها ترساً لمصالحه ، وقد كانت هذه الأدوار تتوزعها روسية وألمانية وفرنسة وبريطانية حسب مصالحها غير أن الدول الأوروبية كانت على اتفاق بصدد تحرير اليونان عملاً بمبادئ الثورة الفرنسية ظاهراً وتحقيقاً لتحرير العناصر والدول المسيحية من ربكة حكم الإسلام باطنياً ، ولما رفض الباب العالي تدخلهم أحرقوا الأسطولين العثماني والمصري في موقعة نافارين باليونان وزحفت روسية لتحرير مكدونيا وما حولها ومن هذا كانت بداية «المسألة الشرقية» في عرف الدول الغربية وهي في الواقع رجعة إلى الحروب الصليبية من جانب أوربة حيث اتخذ بعضها المطالبة بالإصلاح وحماية ومساواة الأقليات في الحقوق حجة لتدخله وكانت روسية تطالب بإجلاء المسلمين عن سائر أوربة المسيحية . ولما تقدمت جيوش إبراهيم باشا المصرية سنة ١٨٣٩م واحتلت سورية كلها ودخلت تركيا متوجهة إلى دار الخلافة وقفت الدول الأوروبية إلى جانب تركيا وأعادت سورية لدار الخلافة وعندها أصبح مصير تركيا بين أيدي ساسة أوربة عندها أعلن السلطان عبد الحميد «فرماناً سلطانياً» وعدة إصلاحات لتحسين وضع الأقليات^(١) كانت تسير ببطء لقلّة الأكفاء من

(١) أوليات سلاطين تركيا ، محمد جميل بيهم ص٤٤-٤٥ .

رجال الدولة بالإضافة إلى أن رعاياها كانوا عقبة كداء في سبيل تحقيقها ، وقد أشار فيكتور بيرار إلى هذا فقال « لقد كان المسلمون يطلبون الأفضلية التي يجب أن تكون من نصيب المؤمنين وحدهم في بلاد الخلافة بينما كان النصارى يحرسون على الحقوق والامتيازات الموروثة التي كانت لطوائفهم ولكنائسهم وكان وراء المسلمين الإسلام وعطف الدولة وكان خلف النصارى الدول الأوربية ودسائسها وتدخل جيوشها^(١) وقد أدت روسية دوراً مهماً في عرقلة مساعي الإصلاح وإثارة الدول الأوربية لتجزئة السلطنة وإثارة الفتن في أمصارها عن طريق تزويد دول البلقان بالسلاح ولما أشهزت روسيا الحرب على تركيا في حرب القرم عام ١٨٥٣ وقفت تركية وفرنسة وانجلترا ضدها فشلت مطامع روسية ولكن هذه الحروب حملت الخلافة عجزاً مالياً جعلها تقدم على أول قرض من أوروبة ، وقد اضطرت السلطنة لأن تصدر فرماناً باسم «الإصلاحات الخيرية» مؤكداً لمضمون الإصلاحات التي أعلنت على أثر الحملة المصرية ترضية لباريس ولندن^(٢) وهو المشهد نفسه الذي حدث حين قامت فتنة في بلغارية في عام ١٨٧٥ وجعل الأتراك يطاردون الثوار ويتعقبونهم من مكان إلى آخر حتى لجأوا إلى إحدى قرى بلغارية واسمها «بتك» .

ودخلوا كنيسة القرية يلوذون بمقدساتها فإ كان من الأتراك إلا أن صبا عليها البترول وأشعلوا فيها النار حتى أفنوم عن آخرهم وقدر عدد الضحايا بنحو خمسة آلاف نفس فلما وصل نبأ هذه الفظائع إلى حكومات أوروبة ثارت ثائرتها وأعلن جلاستون السياسي الانجليزي الشهير قولته المعروفة « إن الأتراك يجب أن يرحلوا عن أوروبة بقضهم وقضيضهم^(٣) واجتمع مندوبو الدول في استانبول يتداولون ويبحثون فيما يجب اتخاذه من القرارات والضمانات حتى لا تتكرر مثل تلك المآسي في البلاد الخاضعة للسلطان خاصة أوروبة وبينما كان المندوبون جادين في مداولاتهم إذا بطلقات المدافع من قلاع استانبول تطرق آذانهم وتعلن للملأ صدور دستور جديد للبلاد عام ١٨٧٦ وهي بداية تولي السلطان عبد الحميد الثاني للحكم ومن باب « الشيء بالشيء يذكر » نود أن نذكر ما

(١) فلسفة التاريخ العثماني ، محمد جميل بيهم ج٢ ص ١٥٩ راجع أيضاً كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب

العالمين وعبادة المرسلين ج١ ص ٧٩-٨١ .

(٢) عبد الحميد ظل الله على الأرض ص ٧٢-٧٣ راجع أيضاً تاريخ الدول العلية ص ٢٤١ .

(٣) فلسفة التاريخ العثماني ج٢ ص ١٦٠ .

(٤) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ص ٨٣-٨٤ .

لحق المسلمين البلغاريين على يد الروس من قتل وعذاب فقد نشرت الجوائب ترجمة المضبطة التي كتبها ووقعها عدة من مراسلي ومخبري الجرنالات الأجنبية تقيلاً عن جرنالات بك أوغلي وهي « نحن مخبري الجرنالات الأجنبية الواضعين أسماءنا وإمضاءنا بذيل هذا الرقيم القاطنين الآن في شمله نرى من الواجب علينا أن نعيد هنا على سبيل الإجمال ما حررناه سابقاً بالتفصيل إلى الجرنالات من جهة الفضائع المغايرة للإنسانية التي جرت في البلغار على المسلمين البريئين ونصرح بأننا رأينا بأنفسنا في زغراد وشملتنا نساء وأولاداً ورجالاً مجروحين بضرب السيوف ووخز الرماح من عساكر الروسية وفي بعض الأحيان من البلغاريين وسعنا أيضاً منهم أن سكان عدة قرى من المسلمين قتلوا عن آخرهم وطرحوا جثثهم في مواطنهم وفي الطريق وفي كل يوم يأتي كثير من المجروحين ونصرح أيضاً بأن أكثر هؤلاء المظلومين من النساء والأطفال « محل الامضاء فتسفر لر مخبر منشستر غارديان ساترغر كوبلنغ زيتنغ وغيرهم^(١) .

أما حماية الأقليات فكما أنها أربكت الدولة العثمانية للتمييز بين رعاياها في الحقوق والواجبات ... ألحقت أضراراً بالغة بالمسلمين وهم الأكثرية الذين عاشوا مئات السنين مع هذه الأقلية ولم يميزوا أنفسهم عنها بشيء وقد ظهرت حاجة الأقليات للتمييز نتيجة لأطباع وتحريض الدول الأجنبية التي جعلت من علاقتها الدينية بهذه الأقليات وسيلة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية تمهيداً لاقتسامها وقد نالت هذه الأقليات امتيازات كثيرة نتيجة لرعاية الدول الأجنبية الغنية لها فنالت حظاً وافراً من التعليم والمساعدات الاقتصادية مما أهلها لأن تظهر وتعلو على حساب الأكثرية المسلمة التي لا ذنب لها إلا أنهم مسلمون وقد أصبحت هذه الأقليات ركائز ثقافية واقتصادية للدول الغربية التي يتشابهون معها في الطائفة الدينية وكانت أيضاً محاطة بسور سياسي استعماري بحراسة دول أجنبية لم تربطها بهذه الأقلية أي رابطة طيلة مئات السنين .

وأضرب مثلاً واحداً لأقلية يهودية في صفد وكيف أنهم كانوا مدللين بفعل حماية الدول الأجنبية لهم « فقد ذكر السائح الانجليزي الموجود سنة ١٩٤٥ (كينجلكوك Kinglocke) في كتابه "Eathan" في الفصل الذي عقده باسم النبي دامور يقول فيه « سمعت وأنا في طبرية أن أهل صفد متعصبون ويكرهون الأجنبي لذلك لم أدخل المدينة

(١) الجوائب عدد ٨٨٠ ص ١٨ رجب ١٢٩٤ .

بل نصبت خيامي في ظاهرها وتحت الظلام زارني وفد من يهود صفد وكم ضحكت عندما خاطبني أحدهم بقوله : يا مواطني مع أنه مولود في جبل طارق بأسبانية ثم قال ، إن حالتهم سيئة جداً ولم يذوقوا طعم الراحة في صفد ، ولكنهم مضطرون للبقاء فيها بسبب قداستها وفي هذه السنة أصيبوا بنبكة فادحة فإن أحد دراويش المدينة واسمه الشيخ محمد دامور وقف مرة في السوق وصاح بأعلى صوته «إن اليغمة» (الهجوم) على حارة اليهود قريبة في أول ربيع سنة ١٢٥٠هـ فر الناس به غير مكترئين وما أن حل اليوم الموعود حتى كانت جموع القرى تملأ حارة اليهود ومحمد دامور يتقدمهم وهو يصيح : هذا هو اليوم الموعود فهرب أكثرنا والذي بقي لم يتجاسر أن يبدي حراكاً حتى كان الولد المسلم الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ينهب الدار وصاحبها اليهودي لا يجرؤ على رفع رأسه إليه فضاعت أموالنا وأمتعنا وكل ما نملك ثم علا نسيجه حت استدر عطفي ، وتكلم الثاني ورجاني أن أعمل ما في وسعي لانصافهم فقلت في نفسي يجب ألا أتدخل فيما لا يعنيني ومع ذلك طبيت خواطرهم وقلت لهم سأتوسط لكم عند الباشا وصديقي قنصل بريطانية فيها وصرفتهم ولكنهم عادوا بعد خطوات قليلة يرجوني ألا أذكر على ألسنتهم أي شيء لأن ذلك سيؤدي إلى الشدة عليهم من جديد ولا فائدة من مراجعة الحكم فإنهم شركاء في أموالنا من أصغر فلاح إلى الوالي نفسه وفي الصباح جئني نساؤهم بأنواع الكعك والحلوى وقناني الخمر التي اكتسبت لونها من حرمة خدودهن^(١) وأرسل وجوه صفد رسالة إلى الأمير خليل ابن الأمير بشير الشهابي الثاني صديق المصريين ذكروا فيها « ... وحارة اليهود في نفس صفد صار عليها نهب من أهالي الديرة والجليل ... ولما علم بشير الشهابي أن كل شيء تم في صفد قصدها من الصفصافة ولما وصل إليها جمع اليهود فيها وسألهم عن منهوباتهم فقالوا : لا يعلم مقدار ذلك إلا الله ولكن المال وحده يزيد عل أربعة وتسعين خزنة في كل خزنة عشرة أكياس وفي كل كيس خمسمائة جصة فطلب من الأعيان تقديم هذا المبلغ فأقسموا له بأغلظ الأيمان أن كل ما يملك يهود صفد لا يوازي عشر معشار ما ادعوه فلم يسمع كلامهم بل ضبط بيوتهم وأرزاقهم وأخذ يعذبهم حتى هرب كثيرون منهم إلى عكة والناصره وغزة ودمشق ومصر وهذا سر كثرة أملاء أسرة «الصفدي» في خارج صفد ؛ ويقال إنه مات عدد عظيم من الرجال تحت أسواط عذابه ثم أرسل إلى سجن عكة ثمانية عشر من ذوي المقام فيها وفيهم نائب صفد (عبد الغني

(١) من تاريخنا عمود العابدي ج١ ص ٢٠٧-٢٠٨ .

النحوي) ومفتي صفد (محمد السلطي) والنقيب السيد علي ومصطفى العبدوني وسليم محمد القواسمي وغيرهم .

وما تجب ملاحظته أن القناصل الأوربيين والمؤلفين والمغرضين قد بالغوا في الخسائر التي أصابت يهود صفد وها هو ذا جرمانوس بحري الذي أُرسِل إلى صفد ليدرس حالة اليهود عاد بتقرير إلى محمد علي باشا والي مصر يقول فيه : « بما إن قناصل الدول أكدوا لليهود أن الحكومة المصرية ستدفع خسائرهم من خزائنها فإن الكثير من اليهود قد اعتدى على الحق وبالغوا فيه ولقد بذلت قصارى جهدي في أن أحل المحاسمين على الرجوع إلى الحق ولكن لم أنجح^(١) .

وفي هذا الموضوع كتب حنا بك بحري إلى إبراهيم باشا كتاباً هذا نصه :

إلا إن شقيقي عبدكم كان قد ذهب إلى صفد بمأمورية تحقيق منهوبات اليهود القاطنين في الجهة المذكورة فعند وصوله إلى هناك علم أن قوائم المنهوبات المقدمة من طرف هؤلاء اليهود تتضمن أشياء لا وجود لها كما أن الثمن المقدم للأشياء المدونة يبلغ الضعف لأنهم زعموا - باغواء بعض وكلاء القناصل - أن بدل منهوباتهم سيصرف لهم من الخزينة وبما أن الكولونيل كامبل (قنصل بريطانية في الاسكندرية) قدر خسائر اليهود بسبعين ألف جنيه وهو من المقاومين للسلطان محمد علي فعلياً أن نفترض على صحة ما قيل من أن محمد علي لم يعتقد أن هذه الخسائر تجاوزت ٢٥ أو ٣٠ ألف جنيه وعندنا وثيقة رسمية محفوظة في السجلات الملكية في القاهرة كتبها باغوص بك الأرمني في ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٣هـ بأنه علم من إفادة المقادير منها عند هؤلاء نفر من اليهود في قرية صغيرة مثل صفد ، وقد كان كذبهم واضحاً كما جاء في تقرير جرمانوس بحري وكذلك في رسالة حنا بحري السالفة الذكر وما يلاحظ من رسالة حنا بحري أن الوالي محمد علي باشا أمر ببيع جميع أملاك أهالي صفد لتقسم على اليهود فيها لترضية الدول الأربع بريطانية والنمسة وروسية وبروسية خوفاً من تدخلها في أوضاعه الداخلية ليس أكثر ومع هذا وقفت هذه الدول إلى جانب تركية وأعادت سورية إليها .

والمسألة الشرقية قامت على أساس التعصب الديني لفصل البلاد البلقانية عن الدولة

(١) من تاريخنا محمود العابدي ص ٢١٢-٢١٣ .

العثمانية وجعلها مسيحية وعن طريق امتيازات الأقليات الدينية في البلاد العربية كل هذا كان واضحاً من خلال العرائض التي كانت تنهال على الملكة فكتورية طالبة انتقاد المسيحيين من مذابح المسلمين^(١) وكان جلادستون زعيم حزبي الأحرار في إنجلترا يلقي الخطب ويؤلف الرسائل ناسباً إلى تركية اضطهاد المسيحيين مشيراً إلى السلطان عبد الحميد بقوله «الشیطان» (عدو المسيح) وهذا اللورد كرومر سكرتير سفارة إنجلترا في الأستانة يكتب تقريراً مطولاً عن المسألة البلقانية ينسب فيه إلى المسلمين ارتكاب جرائم بشعة في الانتقام من المسيحيين مقترحاً أن يكون حكام هذه الأقاليم مسيحيين^(٢) كما اقترح أحد كتاب فرنسة القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول محمد ﷺ ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس^(٣) كل هذه الشواهد تدل على أن الروح العدائية الغربية تجاه الخلافة العثمانية كانت صليبية عدوانية .

ولكن المسألة لم تحل من بعض المسائل الإيجابية بآثارها على الشرق يقول الأستاذ العقاد « وكانت المسألة الشرقية قد تمخضت عن دور آخر وراء دور الحروب الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على تركة الرجل المريض فبعد أن كان الغرض من المسألة الشرقية انتزاع الأقطار المسيحية من أملاك الدولة العثمانية أصبح هذا الغرض كما قلنا في كتاب ضرب الاسكندرية هو تقسيم أقطارها جميعاً من مسيحية وإسلامية وتبادل الأعضاء عن كل نصيب متفق عليه في قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها بقيد الحياة^(٤) .

إلا أن المسألة الشرقية صنعت من المعجزات في إيقاظ الشرق ما لم تصنعه الحروب الصليبية لأن الشرق العربي انتصر على الغرب في تلك الحروب ورد عادية الدول الأوروبية عن ذمارة فققع بما انتهى إليه وبقي على حاله التي هو فيها وهبط من بعدها. درك بعد درك حتى أصبحت أمه بين موروث بقيد الحياة وبين ميراث كأسلاب الغنيمة فيمن يقدررون على السلب والاقتسام .

(١) عبد الحميد ظل الله على الأرض ص ٧٤ .

(٢) تاريخ الدولة العلية ص ٣٣٩ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٨٠١ .

(٤) محمد عبده للعقاد ص ٩-١٠ .

نعم إن المسألة الشرقية جاءت في أوانها هذا فصنعت من المعجزات ما لم تصنعه تلك الحروب وكان سر هذه المعجزات أنها فتحت أعين الشرق على مواطن عجزه ونقصه وعلمته قهراً ما كان يأبى أن يتعلمه باختياره فأدرك حاجته إلى التغيير العاجل وأدرك ما هو ألزم له من ذلك وهو حاجته إلى علم يجهله واعتقاده أن أمم الغرب قد انتصرت بذلك العلم عليه وأنه لا غنى له عن ذلك العلم ليستعيد القوة التي انتصر بها على أعدائه قبل أن ينتصروا عليه ويأخذوا عليه كل طريق غير طريق الفناء ومن لم يطلب التغيير بعلم يتعلمه من المنتصرين عليه كان أبله أو أحمق فقد آمن بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وآمن بأن قومه غيروا دينهم فتخاذلوا وانخذلوا فلا نجاة لهم بغير الرجوع إلى الدين الصحيح مبرأ من لوثة البدعة والخرافة سليماً من شبهة الدجل والغفلة^(١).

هذا وقد أدرك علماء المسلمين قاطبة أن الواجب على المسلمين أن يتعلموا النهضة الغربية الصناعية على ألا يكون ذلك على حساب ديننا ، أما الذين درسوا في الغرب فكانوا يدعون إلى اقتناء أثر الغرب في كل معتقد للوصول إلى ما وصلوا إليه فقد ربطوا النهضة الأوروبية بالمعتقدات والأفكار الأوروبية وقد كانت دعوتهم هذه تتفاوت بين التصريح والتلميح وقد وقف الشيخ النبهاني^(٢) يقاوم هذه الدعوة في بلاد الشام كما قاومها علماء الأزهر في مصر .

الجامعة الإسلامية :

تسلم السلطان عبد الحميد العرش ١٨٧٦ وقد كانت السلطنة تعاني أشد الأزمات فقد استنفذت أموال القروض ولا سيما منذ أصبحت مشفوعة بتبذير عمه السلطان عبد العزيز في حين أن أوروبة التي كانت تلج على تركية من أجل تحقيق ما وعدت به من الإصلاحات وتهدها إذا أحجمت وفي الوقت نفسه تعمل على إثارة العناصر في كل مكان فلا تترك للدولة مალأ ولا وقتاً لتحقيق هذه الإصلاحات .

(١) المرجع السابق ص ١٠-١١ .

(٢) هو الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني ولد في اجزم قضاء حيفا عام ١٨٤٩ وتوفي في بيروت عام ١٩٣٢ وتقلد مناصب قضائية في العراق وبلاد الشام إلى أن أصبح رئيساً لمحكمة الحقوق العليا في بيروت قاوم النفوذ النصراني والاتجاه الأوروبي بكل قوة كما يقول بروتان في تاريخ الشعوب الإسلامية - كتب ٦٨ مؤلفاً كلها تدور حول شخصية الرسول ﷺ وعجربة الأفكار الوافدة وله ديوان «العقود اللؤلؤية في الملائح النبوية» . مطبوع .

وقد كانت همّة السلطان عبد الحميد عالية في تحقيق الإصلاح فنذ أن تولى السلطنة فاجأ مؤتمراً سفيراً الدول المجتمعة في الأستانة - لتقرير نوع الإصلاح في شرق أوروبا العثمانية فأعلن الدستور ولكنه سرعان ما عاد وألغاه لأنه وجد أن المساواة بين العناصر والمثل لم يكف أطماع روسية بل أعلنت عليه الحرب كما أن الدول الطامعة الأخرى لم تكف عن تحريض الشعوب على الفتن التي بها يتدخلون في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية .

وأخيراً خرجت تركية من شرق أوروبا بموافقة بريطانية التي كانت تقف في وجه أي تقسيم للسلطنة .

وقد كان السلطان عبد الحميد يقيم سياسته على أساس التوازن السياسي الدولي غير الثابت مما يلحق بسيادة السلطنة خسائر فادحة كما حدث في الممالك العثمانية في شرق أوروبا فتأكد له أن لا منجاة للدولة إلا بحيازة القوة ولكنه كان لا يملك المال والرجال فثلاثة أرباع شعبه يتحفزون للثورة عليه والانفصال عنه فلم يجد أمامه إلا عواطف المسلمين في أقطار العالم الإسلامي وأنظارهم الشاخصة إلى دولة الخلافة . ولم يكن السلطان عبد الحميد يحتاج إلى مزيد دعاية للجامعة الإسلامية فإن هجوم كرومر الدائم على المسلمين في بعض تقاريره وفي كتابيه الذين ظهروا بعد مغادرته مصر « مصر الحديثة » و« عباس الثاني »^(١) وتصويرهم في صورة الهمج المتخلفين وإن الإسلام غير صالح لأن يكون ديناً لمجتمع راق ، وما قوى فكرة الجامعة الإسلامية أيضاً خصامة الدول الأوروبية للدولة العثمانية باسم الدين حمية لدول البلقان المسيحية^(٢) .

والحقيقة أن الشعوب الإسلامية كانت في حالة من التمزق والتفرق والتأخر السياسي والثقافي لا تسمح بانضمامها إلى رابطة أو وحدة في يوم ما ، وقد كشف مصطفى كامل عن هذا المعنى فقال « إنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا أن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها في أوروبا لا وجود لها بالمرّة أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها إلى بعضها البعض ، وأنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة فإن نهضتهم تكون

(١) مصر الحديثة ج٢ ص ١٢٩ عباس الثاني ص ٤٥، ٤٨ تقرأ عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج١ ص ٦١ .

(٢) تاريخ الدولة العلية ٣٣٩ .

بوسائل واحدة وإن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط بل هو قانون اجتماعي^(١).

وقد أشار جمال الدين الأفغاني مراراً في مجلة العروة الوثقى إلى الآمال التي يعلقها المسلمون على دولة الخلافة وأن جميع المسلمين يعدون أنفسهم رعايا هذه الدولة وإن كانوا خارج حدودها السياسية خصوصاً المسلمين في الهند حيث أصبح الانجليز يخشون من إثارة السلطان عبد الحميد لدعوة المسلمين في الهند للثورة على الانجليز^(٢).

كما يبدو أن السلطان عبد الحميد بمحنته ودهائه استطاع توقيت الدعوة للجامعة الإسلامية حيث أن الإسلام كانت له شهرة عالمية بعد أن صدم العالم بالثورة الصناعية التي لم تستطع أن توفر السعادة للشعوب إذ لا بد من قيم روحية ترافقها حتى يكون الإنسان قد اكتمل من جانبيه الروحي والمادي وفي هذا الوقت كانت الصحف تُروِّج احتمال اتباع اليابان للدين الإسلامي وقد تابعتُ الموضوع في مجلة ثمرات الفنون التي كان يصدرها الشيخ عبد القادر القبانى في بيروت في مقالات مسهبة في العدد ١٥٧٠ ص ٤ تموز ١٩٠٦ وعدد ١٥٨٧ ص ١٤/٥ آب ١٩٠٦ وعدد ١٥٦٦ في ١٩/١ ربيع الأول ١٣٢٤ هـ وقد أرسلت الدولة العلية كلا من محمود أسعد أفندي مستشار الحقوق في نظارة المالية وإسماعيل أفندي مناستري إجابة لطلب الميكادو من السلطان عبد الحميد الثاني هذا وقد كان إقبال اليابان على اختيار أحد الأديان السماوية حديث الساعة في جميع صحف العالم . وتصور مجلة «ثمرات الفنون» أن هناك شبه إجماع من الصحف العالمية على ترشيح الإسلام، منها ما نقلته عن إحدى المجلات الألمانية حيث تقول «... وأما الدين الذي سترتضيه اليابان فهو مما لا يمكن القطع به الآن غير أن الظواهر والأمارات تدل على أنه سيكون الدين الإسلامي بدليل أن حكومة اليابان أضحى لها سبع عشرة سنة وهي تبث بعلمائها إلى البلاد الإسلامية للبحث عن أسرار هذا الدين والتحري عن حقائقه حتى بات أولئك العلماء مقتنعين أن اليابان لا تتخذ غير الدين الإسلامي ديناً وهناك دليل آخر يبرهن على صحة هذا القول ويدل على تفضيل اليابان لدين الإسلام على سائر الأديان وهو خدماتها المهمة التي قدمتها نحو المسلمين وظهورها بمظهر التعظيم والاحترام لدينهم وثمة دليل ثالث أيضاً وهو إعلان حكومة الصين إجابة الطلب الياباني أن المسلمين الذين

(١) عبد العزيز جاويز لأنور الجندي ص ١٦ .

(٢) العروة الوثقى ص ٣٧٢-٣٧٤ .

يعدون بالملايين في البلاد الصينية هم مساوون للوثنيين في جميع الحقوق ثم ختمت الجريدة الألمانية كلامها بقولها : إنه إذا دانت اليابان بالإسلام فإنها ستحرز حياة جديدة وقوة عظيمة^(١).

هذا وقد لاحظ السلطان عبد الحميد ملاءمة الظروف الدولية هذه لإعلان الخلافة الإسلامية لتعزيز السلطنة بقوة جديدة ودفع المؤامرات التي تبيتها أوروبا وقد كانت أوروبا تقدر الطاعة والولاء الذي تكنه الشعوب الإسلامية للخلافة .

يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي « وقد كان من هبة السلطنة على ممالكها خصوصاً مصر حتى بعد استقلال محمد علي باشا - ما جعل بريطانيا تؤخر اعلان استعمارها لمصر من سنة ١٨٨٢-١٩١٤ وقد لاحظ الزعيم مصطفى كامل ذلك فكان يدعو دائماً إلى الارتباط بالدولة العثمانية ولو اسماً خوفاً من بريطانية وكان العرب ولا يزالون بقديسية ترجع إلى أنهم هم الذين حملوا راية الإسلام وراء الرسول ﷺ ثم هم لا يزالون أصحاب القرآن أنزل بلسانهم ولا يزال يقرأ في العالم بلغتهم . فقرر الخليفة الاستعانة بهم خصوصاً أنهم كانوا بعيدين عن النزعة الاستقلالية التي سرت بين العناصر العثمانية الأخرى ، ولم يفكر العرب في الاستقلال عن السلطنة إلا عندما أرسل الاتحاديون حاكمهم في سورية أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٦^(٢).

قرر السلطان عبد الحميد أن يستعين بالمسلمين وذلك بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية وأن يقوي صلته بالعرب نواة المسلمين وهو يؤمل أن يهز عصا الخلافة وقت الحاجة^(٣).

وقد استهل مشروعه هذا بدعوة كل من خير الدين باشا التونسي النشأة الجركسي الأصل وجمال الدين الأفغاني - ولعل مشروع الخلافة الإسلامية يكون من وحي أحدهما أو دعاهما لمساعدته في تنفيذ المشروع . ومن يقرأ أعمال جمال الدين يجد أنه كان من الداعين إلى الجامعة الإسلامية أصلاً وكثيراً ما كان يهيب بالخليفة للاستفادة من شعور المسلمين نحوه ثم قرب السلطان فريقاً من علماء العرب وشيوخ الطرق كالشيخ أبي الهدى الصيادي الرفاعي من خان شيوخون في جوار حلب ، والشيخ محمد ظافر من الجزائر ،

(١) مجلة ثمرات الفنون عدد ١٥٧٠ ص٤، ٩ تموز ١٩٠٦ .

(٢) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص٢٢٧ .

(٣) عبد العزيز جاويش ص٢١-٢٢ .

والشيخ سعيد من حمص ، والشيخ أحمد أسعد القيصرلي من المدينة ، كما استدعى بعض أشراف مكة وعلى رأسهم الحسين وعلي حيدر وعبد الله باشا وصادق باشا وأجرى على هؤلاء العلماء والأشراف المرتبات وخصهم بالكنائيات كما أجرى المرتبات وأجزل العطايا لغيرهم من المتخلفين في بلادهم المعروفين بنفوذهم كما عهد إليهم بمختلف الوظائف والمناصب الرئيسية في الدولة دون تفريق بين الملل فقد عين أحد عزت باشا العابد الكاتب الثاني في بلاطه الذي تمتع بنفوذ واسع جعله الأول في السلطنة وشفيق بك المؤيد المفوض في الديون العمومية وشفيق بك الكوراني رئيس الضابطة وعرب حقي باشا وسليم بك ونجيب بك ملحم وقد بلغوا رتبة الوزارة وجميعهم من سورية ولبنان وطالب بك النقيب وأحمد باشا الزهير من أعضاء مجلس شورى الدولة وهما من العراق ، كما اتخذ من بعض ضباط العرب خاصة له فكان ياورانه الفريقان محمد باشا ومحبي الدين باشا ولدا الأمير عبد القادر الجزائري ، وكان المشير أركان حرب شفيق باشا وأخوه الفريق وهيب باشا من أساتذة المدارس العسكرية من قرية المتين في لبنان وشكري باشا الأيوبي الدمشقي ناظر الأعمال العسكرية والدكتور يوسف الرامي من لبنان وكان أستاذ علم التشريح والدكتور الياس مطر من بيروت والأستاذ سليم يازر من بلدة دير القمر في لبنان وكان أستاذاً في مدرسة الحقوق واتخذ من أبناء العروبة حرساً أنزلهم حول قصره وألبسهم العباء الخضر كما عمد إلى مصاهرتهم فزوج أميرتين من أسرته من شابين عرييين ورفعها إلى رتبة الإمارة وهما الأمير عبد المجيد بن الشريف علي حيدر وصالح بك بن خير الدين باشا التونسي ولف حوله طائفة من الكرد والأرناؤوط كدرويش باشا الألباني أحد الياوران وإسماعيل باشا الكردي فضلاً عن بعض الشراكسة كما أنشأ مدرسة العشائر لتربية أبنائها . كما فتح معاهد الأستانة أمام جميع الطلبة ليقر في نفوسهم أنهم جميعاً يشتركون في أنهم عثمانيون وقد رحب السلطان كثيراً بفكرة أحمد باشا العابد بمد خط حديدي بأموال المسلمين يصل بين سوريا والحجاز وقد ناسبت هذه الفكرة برنامج السلطان بجعل نفوذه الفعلي إلى الحرمين الشريفين إضافة إلى تسهيل الحج على المسلمين ليكسب عواطفهم في العالم قاطبة . وفي الجملة نجح السلطان عبد الحميد في تحقيق الجامعة الإسلامية قدر المستطاع وقد حفظت سياسته سلطنته في مناسبات عدة من الأخطار كما أنها أخرت زوالها سنين عديدة أما عصا الخلافة في تلك الحقبة التي كان يلوح بها فهي العلم النبوي الشريف ليزحف المسلمون وراءه من كل صوب ^(١) ولعل في الحادثة التالية

(١) فلسفة التاريخ العثماني . محمد جميل بيهم ص ١٧٩-١٨٠ .

التي وقعت لفؤاد باشا مندوباً عن السلطنة في بيروت بمناسبة فتنة ١٨٦٠ توضح قوة الخلافة وأثرها في قلوب المسلمين وأن الجهاد المعلن من الخليفة هو السلاح الرهيب الذي كانت تخافه الدول الأوروبية « فقد كانت بيروت تعج يعد هذه الفتنة بسفراء الدول الذين اتّديبوا للتحقيق في المذابح التي وقعت في لبنان وتعدته إلى دمشق وكان هؤلاء السفراء يتبادلون الدعوات والحفلات فيما بينهم وبين مندوبي الحكومة فتحتل هذه الاجتماعات بالتعليقات على الشؤون السياسية وتتخللها المداعبات .

دخل المدعون ذات يوم إلى مائدة أقيمت على ظهر سفينة أمير البحر النسوي : وكان فؤاد باشا وبعض أركان الحكومة في مقدمتهم فإذا بهم يشاهدون أعلام الدول مرفوعة على المائدة فوق رؤوس حيوانات من المعجنات وكل واحد منها يعلو رأس الحيوان الذي اتخذته الدولة رمزاً لها فكان علم فرنسا يخفق على رأس الديك وعلم روسيا على هامة الدب وعلم انكلترا على الأسد أما لواء تركيا فكان مرفوعاً على هامة خنزير وشاء أحد السفراء أن يتحدى فؤاد باشا على سبيل المفاكهة فأشار إلى الخنزير سائلاً عن العلم الذي يرتفع فوقه فابتسم الباشا وقال له « هذا علم تركيا المظفر فوق أرضكم الخبيثة » وأثناء ضحك السامعين تناول الحديث آخر وقال بين الجاد والمزاح « لا تزالون يا صاحب الدولة تذكرون النصر والانتصار وإذا أرجعنا مصدر ذلك إلى شجاعة جيشكم فأين لكم تأمين المال وهو عصب الحرب وحينئذ استقام فؤاد باشا وتحول إلى التحدث وقال بلهجة الجاد « حسبك فقد أخرجتني حق لم يبق في وسعي كتم السر أنتم تعلمون كم مضى على المسلمين وهم يقصدون إلى بيت الله الحرام وكم من ملايين قد أدت فريضة الحج في هذه الحقبة الطويلة أما الذي لا تعلمونه وقد حلتوني على إفشاء سره فهو أن لبيت مال المسلمين الذي تسمعون به فريضة على الحجاج يؤديها كل منهم على قدر طاقته ولا بأس أن يكون أول تلك الفريضة بتقديم الجواهر والأحجار الكريمة وبعد : فكم تبلغ ثروة بيت مال المسلمين هذه التي لا تحسبون لها أي حساب إنها رهن أوامر الخليفة حتى يضطر لإخراج العلم النبوي ودعوة المسلمين إلى الجهاد فنحن إذا يا سادة أغنياء بالرجال وبالمال أيضاً^(١) .

ثم يعقب الأستاذ بيهم على هذه الحادثة فيقول « وهذه الحادثة التي رواها لي في عهد

(١) فلسفة التاريخ العثماني ج٢ ص ١٨٠-١٨١ .

الصبا أحد الشيوخ تدل سواء كانت صحيحة أو موضوعة على أن السلطنة العثمانية كانت حتى قبيل عهد السلطان عبد الحميد المشار إليه تستفيد من الخلافة عفواً أو تجرب أن تستفيد منها ، ولكن هذا العاهل الذي السلطان عبد الحميد اختط طريقة عملية للجامعة الإسلامية وذلكها لسياسة الدولة حيال الأجانب واستثمرها أحسن استثمار غير أن من الواجب الاعتراف بأن هذه السياسة وإن حققت لوضعها جملة من المنافع جرت وراءها كثير من الأخطار الداخلية والخارجية فالأترك على وجه عام تقموا على السلطان من جراء تقريب أبناء العروبة دونهم وأنكر عليه شباههم المثقف هذه السياسة الإسلامية لأنها لا تتفق مع روح العصر ، ولا تتلائم مع التعاليم التي اقتبسوها عن أوروبا فأجمعوا أمرهم بينهم على إزاحته عن العرش حتى يتسنى لهم تطبيق الدستور القائم على مبادئ الثورة الفرنسية^(١) وبعد أن عزل السلطان عبد الحميد ضعفت الرابطة الإسلامية بين السلطنة وولاياتها وانكشفت حقيقة حزب الاتحاد والترقي ومعاداته للإسلام ، بعدما صرح رئيس وزراء الجمهورية التركية الجديدة بقوله علناً وعلى رؤوس الأشهاد بأنه لم تبق لتركية علاقة بالدين الإسلامي الخفيف وبعدهما أعلن الحرب على الإسلام فألقى بالقرآن الكريم من يده من غرفته التي هو فيها وحرص المرسلين المسيحيين على التبشير بإنجيلهم في البلاد الإسلامية لحمل المسلمين على اعتناق الدين المسيحي^(٢) وبعد عزل السلطان عبد الحميد سرعان ما قسمت بريطانيا وفرنسة العالم العربي بينهما واستولت إيطاليا على ليبيا . كما اتجهت الحملات العنيفة لتشويه تاريخ الدولة العثمانية وسلطانها وكان مصدرها ذلك الاتجاه الذي خلفه النفوذ الأجنبي وجند له عدداً من الكتاب والمفكرين وأغلبهم من متعصي اللبنانيين والأتراك ورجال الدوغة ممن هاجروا إلى مصر وكانوا يعملون في قصر عابدين والسفارة البريطانية أو الفرنسية رامين إلى القضاء على الإسلام واللغة العربية علماً بأن أول جمعية سرية تألفت لمقاومة العثمانيين قامت في الجامعة الأمريكية في بيروت وقد حملت فكرة الجهاد العربي كوسيلة للقضاء على فكرة الجامعة الإسلامية لتزيق وإسقاط دولة الخلافة الإسلامية^(٣).

وكان الشعور بالانتماء والولاء إلى الجامعة الإسلامية شعوراً عاماً وظاهراً على جميع

(١) قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور محمد جميل بيهم ج٢ ص ١٦-١٨ راجع أيضاً موقف العقل والعلم والعالم من

رب العالمين وعباده المرسلين ج١ ص ٧٩ .

(٢) مجلة الفتح عدد ٧٠ ص ١٧ السنة الثانية .

(٣) عبد العزيز جاويز ص ١٩-٢١ .

التيارات السياسية من خلال دعوة قادة الأحزاب والجماعات للولاء لدولة الخلافة ففي سنة ١٨٨٢ قبض أحمد فارس الشدياق منشئ الجوائب - من سفارة إنجلترا في الأستانة - مبلغ ألف ليرة إنجليزية حتى يطبع صورة المنشور الذي صدر من الباب العالي بإعلان عصيان عرابي باشا لإثارته نار الفتنة في وادي النيل فكان ذلك سبباً لانكسار عرابي وسقوط اعتباره من عيون المسلمين عامة والمصريين خاصة^(١) وقد كانت معظم الأحزاب وأصحاب الدعوات الفكرية والإصلاحية يعدون الخلافة هي الأمل والمنقذ من أطماع الدول الغربية في البلاد الإسلامية وأن من واجب السلطنة حماية هذه البلاد وقد كانت هذه الدعوة واضحة في تصريحات زعماء الحركات الوطنية في مصر^(٢).

ففي قرارات المؤتمر العربي الأول في باريس وقيام الحكومة اللامركزية التي تعطي للوطن السوري مقدساته السياسية من غير انفصال عن الكيان العام الذي تمثله الدولة العثمانية^(٣) وحين ثار عرابي على فساد أساليب الحكم في مصر وعلى تغلغل النفوذ الأجنبي لم يخطر بباله الخروج على الخليفة فهو يعرض عليه خطواته مستمداً منه السلطة في كل ما يفعل^(٤) وفي مصر كان الحزب الوطني مثل ما كان مؤسسه مصطفى كامل وخليفته محمد فريد مصرياً في الدرجة الأولى وإسلامياً في الدرجة الثانية^(٥) وقد أكد الحزب الوطني ثلاثة ركائز جعلها أسسه التي لا تتغير وهي :

- ١ - إيقاظ الأمة المصرية من حيث هي كيان له طابعه الواضح الكامل .
- ٢ - مقاومة الانجليز ومخاصمتهم خصوصاً كاملة حادة لا تسامح فيها ولا مهادنة .
- ٣ - تأكيد الروابط الثقافية والروحية والسياسية مع الدولة العثمانية دولة الخلافة^(٦).

ويضع مستر بلانت في مقدمة برنامج الحزب الوطني : الاعتراف بسلطة الباب العالي وبيان جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة الله في أرضه وإمام المسلمين^(٧) ومن بين المعتنقين للجامعة العثمانية علماء الدين من المسلمين فهم يؤيدون السلطان بدافع

(١) تاريخ الصحافة العربية فيليب طرازي ج ١ ص ٦٢ .

(٢) مجلة العروى الوثقى ص ٣٧٢-٣٧٤ .

(٣) عبد العزيز جاويز ص ١٤-١٥ .

(٤) مذكرات عرابي ج ١ ص ٢٢٢-٢٢٣ .

(٥) الفكرة العربية في مصر أنيس الصايغ ص ٤٩ .

(٦) عبد العزيز جاويز ص ١٢ .

(٧) مذكرات عرابي ج ١ ص ١١٧ .

من الغيرة الدينية وهؤلاء لا يحتاجون إلا لما يس الدين ولا يرون بين الأقطار الإسلامية من يستطيع أن ينهض بعبء الذود عن الإسلام والمسلمين غير تركيا لأنها أقواها وأقدرها على مواجهة مطامع الدول المسيحية ومن هؤلاء الشيخ يوسف البنهاني وشكيب أرسلان وشيوخ الأزهر وغيرهم .

السلطان عبد الحميد ١٨٧٦ - ١٩٠٩ :

مفتاح شخصيته :

ليس أدل على شخصية السلطان عبد الحميد مما قاله الفيلسوف جمال الدين الأفغاني في وصفه حيث قال إن السلطان لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر رجحهم ذكاء ودهاء وسياسة فقد رأيناه يذلل ما يقام للملكه من الصعاب من دول الغرب حيث كان يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرباً وأعظم ما أدهشني ما أعده من خفي المسائل وأمضى العوامل كي لا تتفق أوروبا على خطير في الممالك العثمانية كان يريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدولة بحرب كان السلطان بدهائه العجيب يحل عقدة ما ربطوه وتفريق ما جمعه ويقول أيضاً « ضاقت أوروبا ذرعاً بسياسة السلطان عبد الحميد وحيطته ويئست من أكثر دول البلقان فحاولت كيدها بدس الدسائس وصرفت همتها بالاستغواء إلى أخف الدويلات حلوماً وأكثرها غروراً وطيشاً وهي دولة اليونان فقد بدأت تتحرش بالدولة العثمانية لتندهور بالحرب مع السلطان عبد الحميد^(١) ويقول أيضاً « أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكاييد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة (الذي فيه نهضة المسلمين عموماً) فقد دفعني إلى مد يدي له ومبايعته بالخلافة والملك عالماً علم اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوروبا ، ومن السعي وراء إضعافها وتجزئتها وفي الأخير ازدرادها واحدة بعد الأخرى إلا يقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم^(٢) وصل السلطان عبد الحميد على

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٦ .

العرش بعد خلع السلطان عبد العزيز حيث قامت ثورات في البوسنة والمهرسك والصرب والجبل الأسود وكريت استنفذت القروض المعقودة وأدت إلى إعلان تركيا لإفلاسها^(١) وقد كان الجهد الأعظم في تولي السلطان عبد الحميد الحكم مكان أخيه يعود إلى مدحت باشا الذي يرأس حزباً في السلطنة «تركيا الفتاة» كانت فاتحة أعماله خلع السلطان عبد العزيز وقد اشترط مدحت باشا على السلطان عبد الحميد ثلاثة شروط وافق عليها هي :

١ - إعلان القانون الأساسي .

٢ - استشارة الوزراء المسؤولين دون سواهم في أمور الدولة .

٣ - تعيين بعض أفراد حزبهم في الملايين .

ولكن السلطان عبد الحميد ما إن تسم العرش حتى أوجس خيفة من تدخل مدحت باشا وحزبه ف عزل مدحت باشا من منصب الصدارة وشتت أعوانه ولكن السلطان اضطر لإعلان الدستور لأن روسيا دعت الدول لإجباره على إجراء الإصلاحات المطلوبة في مكدونيا وإلا فهي ستخذ التدابير اللازمة منفردة وقد جرى افتتاح المجلس العمومي المؤلف من مجلس الأعيان والبعوثان في ١٨٧٧ وذلك يوم افتتاح مؤتمر السفراء في استانبول الذي اقترحه روسيا ولما سأل السفراء في جلستهم الأولى عن سبب قصف المدافع نهض صفوت باشا وقال لهم « أيها السادة إن أصوات المدافع التي تسمعونها هي من أجل الاحتفال بإعلان القانون الأساسي وهو سيمح جميع عناصر السلطنة الحقوق المنشودة بحيث لم يبق موجب لأعمال المؤتمر ولكن روسيا حلت المؤتمرين على الاقتناع بوجوب متابعة أعمالهم ولما أوى الباب العالي خرجوا غاضبين وأعلنت بطرسبرج الحرب على تركيا ولما رأى السلطان أن إعلان الدستور لم يحل دون إعلان الحرب وأن أعضاء المجلس النيابي كانوا غير أكفاء حتى لقب مجلسهم بمجلس (أوت أفندم)^(٢) لموافقته على اقتراحات الرئيس دون مناقشة بادر إلى حل البرلمان وانصرف إلى مواجهة الحرب الناشئة غير أن ما أصاب جيشه من الفشل منذ المعارك الأولى جعله يتحول مرة أخرى إلى مصانعة كل من الدولة والأحرار من رعيته فاستقدم مدحت باشا من أوروبا وأمر بانتخاب مجلس آخر نيابي وجرى افتتاح المجلس في ١٨٧٧ ثم ندم السلطان على ما فعل حينما أيقن أن أوروبا لم تحدد عن سبيلها في صدد إجلاء السلطنة عن البلقان وتقليم أظفارها في البلدان الأخرى ولا

(١) فلسفة التاريخ العثماني ج٢ ص ١٦١ .

(٢) أوت : عشب . أفندم : سيد أو محترم .

سما التي تطالب باستقلالها فأصدر إرادته السنية بعد شهرين من افتتاح المجلس الثاني بوقفه أيضاً وشرع يطارد المتردين من أعضاءه ونفى مدحت باشا إلى الطائف حيث قتل خنقاً فيها سنة ١٨٨٣^(١) من هنا نلاحظ أن السلطان عبد الحميد كان يعتزم المضي في الإصلاح لولا الفتن الداخلية التي أخذ بعضها برقاب بعض والتي كانت تستنفذ أموال الخزانة وتصرفه عن مشاريعه الإصلاحية وقد كانت هذه الفتن التي ترمي إلى التحرر من ريقة الأيدي الأجنبية تستر وراء طلب الإصلاحات وهي في الواقع إنما كانت تريد تخليص الأقليات من الترك وتقوية نفوذها عن طريقها لاقتسام ممتلكات السلطنة فثورات كريت وثورات أرمنيا كانت تحدث مع ثورات أخرى في البلقان ومقدونية وألبانيا فتصرف السلطان عن أمانه الإصلاحية وتثير بالتالي الشكاوي ضده كما أن إفلاس الخزانة بسبب هذه الفتن حمل النقمة على السلطان إلى صفوف جيشه فانقلب عليه وأزاحه عن عرشه^(٢).

المؤثرات الخارجية على سياسة عبد الحميد :

أولاً : الخطر الأوروبي :

منذ أواسط القرن التاسع عشر شرعت روسية تفكر في إجلاء السلطنة عن الأراضي الأوربية والعمل على تجزئة أنصارها بمساعدة كل من إنجلترا والنسا يظهر هذا من قول قيصرها نقولا الأول عندما زار الدول الأوربية لاقتناعها بالتقسيم وخصوصاً إنجلترا المعارضة « يوجد بين وزرائي رأيان بشأن تركية فبعضهم يصرح بأنها بلغت حالة الاحتضار وبعضهم يعلن أنها لقيت حتفها ، وعلى كل فلا شيء يحول دون مماتها العاجل » وفي مناسبة أخرى يقول القيصر للسيد هملتون سيمور سفير إنجلترا في بطرسبرج « أود أن أصارحك بأنه إذا أتيح لهذا المريض أن يتخلص منا في يوم من الأيام فسيكون من أسباب البلاء على أوروبا ولا سيما إذا حصلت هذه المفاجأة دون أن تتأهب لها » هذه التصريحات تبين لنا النوايا العدوانية الأوروبية ممثلة في تصريح قيصر روسية وإن كانت إنجلترا تعارض - في بادئ الأمر فكرة تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية كما حدث في

(١) فلسفة التاريخ العثماني ج٢ ص ١٦٢-١٦٣ .

(٢) فلسفة التاريخ العثماني ج٢ ص ١٦٢ .

مساعدتها لتركية في حرب القرم وقد قدرت السلطنة موقف بريطانيا فتخلت لها عن جزيرة قبرص لتكون لها من بعد نقطة حرية للدفاع عن بقية الأمصار العثمانية ولكن بريطانيا كشفت عن عدائها للسلطنة بعد أن حصلت المانيا على امتياز مد خط حديد الأستانة بغداد الذي ينتهي إلى الخليج العربي .

ثانياً : تدخل الدول في شؤون السلطنة :

لقد كان لضعف الدولة العثمانية العام خصوصاً من الناحية العسكرية أثره الواضح في فرض إرادة الدول الأوروبية عليها عن طريق حماية الأقليات الدينية أو عن طريق العمل العسكري كمساعدة دول البلقان وغيرها على الاستقلال وقد اتخذ هذا التدخل شكله الساخر بعد مؤتمر باريس ١٨٥٦ لما قدمته كل من إنجلترا وفرنسا وسردينيا من المساعدة في حرب القرم ثم ازداد هذا التدخل بعد انقاز السلطنة من حملة محمد علي باشا وفي هذه الحملة وقفت فرنسا ضد السلطنة ووقفت إنجلترا معها مما أدى إلى فشل الحملة وبلغ هذا التدخل إلى حد اجتماع الدول الأوروبية في مؤتمرات لإيجاد حلول لمشاكل تركية دون أن تشترك فيها ومن ثم تطالبها بتنفيذ مقرراتها وكان آخرها اجتماع ديفال في ١١ حزيران ١٩٠٨ وقد عجزت السلطنة عن سداد ديونها للدول الأوروبية مما أدى إلى استخفاف هذه الدول بالسلطنة من جهة ولتسامح السلطنة حيال تدخلها في شؤونها خصوصاً ما يتعلق بالأقليات من رعاياها .

ثالثاً : الوعي القومي عند العناصر :

لقد تسرب الوعي القومي من أوروبية للعناصر الخاضعة للسلطنة فهي لا ترى جهوداً في المساعي الاستقلالية إلا زادت اضطراباً وقد غمر الوعي القومي المثقفين من العرب فعملوا على الاستقلال وقد كانت الدول الأوروبية تقدم لهم كل المساعدات في هذا الاتجاه علماً بأن معظم المثقفين من العرب العصريين هم خريجو المدارس التبشيرية المسيحية .

رابعاً : فراغ الخزانة :

كانت الأموال التي اقترضتها السلطنة طيلة عشرين سنة حتى ١٨٧٥ قد بلغت ثلاثة

مليارات وثلاثة عشر مليون فرنك ذهبي وكانت خزانة السلطنة قد أعلنت الافلاس في عهد السلطان عبد العزيز وهكذا استلم السلطان عبد الحميد الحكم والبلاد في حالة افلاس ولم يستطع أن يقترض من الممالين في أوروبا بسهولة يقول الأستاذ محمد جميل بيهم « كانوا إذا أقدموا على شراء أسهم تلك القروض كأنهم يبتاعون أسهم «اليانصيب» وما كان يغريهم بشراء تلك الأسهم إلا الفوائد الباهظة ومع ذلك رأينا القروض التي استطاع عبد الحميد أن يدركها ذهبت فريسة الحروب الخارجية التي كان أكثرها وأخطرها مع روسية أو في سبيل تهدئة الفتن الداخلية وقد استنفذت هذه الحروب أموال الخزينة فلم تترك مجالاً للاصلاح والتعمير .

هذه هي المؤثرات في السياسة الخارجية للسلطان عبد الحميد وقد كان في معظمها طرفاً ضعيفاً لذلك اعتمد على أسلوب ترضية دولة لتقف معه في وجه دولة أخرى عن طريق منحها بعض الامتيازات أو الولايات .

سياسة السلطان عبد الحميد الداخلية :

لقد سار السلطان عبد الحميد في سياسته الداخلية على سياسة مبعثها الخوف وعدم الثقة من عناصر شعبه أو عماله لذلك أجرى تغييرات كثيرة بحيث تصبح جميع السلطات بيده وقد كان للأحوال السياسية الخارجية في المنطقة أكبر الأثر في توجيه السياسة الداخلية إن لم تكن تجاوباً وصدى لها فمن مظاهر سياسته الداخلية :

١ - نقل السلطة العليا إلى المايين :

فقد عمل تدريجياً على نقل السلطة من الصدارة العظمى ومجلس الوزراء إلى المايين فأصبح الحل والعقد ومنح الامتيازات من اختصاص سراي يلديز أما الوزراء فكان عليهم تنفيذ ما يبرم وقد كان النفوذ يتناوبه الكاتب الأول والكاتب الثاني ومأمور الشفرة تبعاً لثقة صاحب الجلالة وكثيراً ما كان المشايخ المقربين ينازعون هؤلاء سلطتهم فكان الشيخ أبو الهدى الصيادي يتمتع بالنفوذ طوراً وطوراً أحمد عزت باشا العابد الكاتب الثاني وكلاهما عربي ولما نجح الأخير في مد الخط الحديدي الحجازي عن طريق الاكتتاب به من جميع المسلمين علا نجمه ولم يعد يعلوه في النفوذ أحد إلا الخليفة نفسه وكان رئيس الجواسيس فهم باشا يلقي الرعب في قلوب الرعية وكان بعض رجال السراي أميين وقليل

منهم يحسنون اللغات الأجنبية وأقل منهم من يتمتعون بخبرة سياسية ودون هؤلاء وأولئك من يعملون للمصلحة العامة^(١).

٢ - النضال بين السلطان والدستوريين :

ارتقى عبد الحميد العرش بمساعدة مدحت باشا دستورياً حيث كان صديقاً أعظم لدى السلطان عبد العزيز ولكن عبد الحميد أوجس خيفة من حزب (تركية الفتاة) الذي كان يتزعمه مدحت باشا وكان ينسب إليه حادثتين ذهب ضحيتها عمه السلطان عبد العزيز وأخوه السلطان مراد ؛ كان السلطان يعتقد أن هناك أيد خفية انجليزية وروسية وراء خلعه وقتل عمه عبد العزيز لذلك أعلن بعد فترة وجيزة من إعلان الدستور سنة ١٨٧٦ تعطيل العمل به ونفى مدحت باشا وشرذ أنصاره وانتهى الصراع بين عبد الحميد وأتباعه وختم بخلع عبد الحميد ومبايعة أخيه محمد الخامس ١٩٠٩-١٩١٨ .

٣ - سياسة التفرقة بين العناصر :

قضى على السلطنة العثمانية أن تعيش مفككة الأوصال متنافرة العناصر والطوائف منذ عمت كل واحدة من الدول الأجنبية إلى توجيه هذه الطوائف إلى التناوب بين بعضها البعض وذلك بغية وصول هذه الدول إلى نيل نصيبها على وجه أتم من تركية «الرجل المريض» وقد كان لإعلان السلطان عبد الحميد سياسة الجامعة الإسلامية أثر بالغ في التفاف عواطف المسلمين حوله ومقاومته للدول الأجنبية التي تتستر بحماية الأقليات لكسب عواطفها . وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى انشقاق الطوائف على بعضها لأنها تعد السلطان عاجلاً للمسلمين أكثر منه ملكاً للعثمانيين . وقد فصل السلطان الكنيسة البلغارية عن البطريركية الأرثوذكسية بينما كانت أوروبا المسيحية - روسية والنساء وفرنسة - تعمل جاهدة لتوحيد هذه العناصر ضد السلطنة . كما ألقى السلطان عبد الحميد ببذور التفرقة بين العرب والمسيحيين خوفاً من تعاونهم ضده خصوصاً بعد ظهور الوعي القومي الذي كانت الرسائل والقنصليات الأجنبية تغذيه . وقد نالت بلاد الشام قسماً كبيراً

(١) لقد كان السلاطين الأوائل لا يفرقون بين مسلم ومسيحي وكانت التفرقة منشأها من عمال الولايات حيث أن الفتن والمذابح التي حدثت بين ١٨٦٠ لم تكن بقصد أحد من السلاطين أو رجال دولتهم الأمناء بل من العمال الأترياء . كتاب حشر اللثام ص ٢٣ .

من هذه السياسة لوجود الطوائف المسيحية فيها أكثر من غيرها لهذا يرجح كثير من الباحثين أن تكون المذابح بين المسلمين والنصارى في مطلع القرن العشرين بتدبير من السلطنة على يد بطلها الوالي رشيد بك الذي رضى بنقله إلى رتبة أعلى من رتبة الولاية يقول الأستاذ محمد جميل بيهم : ولا زلت أذكر تلك الفتنة التي وقعت بين المسلمين والنصارى في قرية بتاتر في الشوف عام ١٩٠٥ وكان حدوثها في نفس اليوم الذي وقعت فيه مذبح المزرعة في بيروت برهاناً على أن الفتنة في الولاية بالساحل وفي المتصرفية في الجبل كانت من عمل يد واحدة خفية^(١) وقد انعكست هذه السياسة في ميدان التربية والتعليم فكانت للمدارس الأجنبية والارساليات فرصة استثنائها من رقابة الدولة فعملت على القاء الرعب من المسلمين في أفئدة طلابها النصارى بقصد تنفيرهم من الدولة واكتساب قلوبهم مستعينة ببعض التآليف التي تطعن في الإسلام والرسول ﷺ وفي المقابل كانت المدارس الرسمية لا تقتصر على رسم صورة قبيحة للأجانب وأخطارهم بل تتعدى إلى بث روح البغضاء بين الملل والطوائف^(٢) وأما في البلاد التي لم يكن فيها غير المسلمين كجزيرة العرب فإن السلطان كان يغري ابن رشيد وابن سعود ويحشد أشراف مكة ضد إمام الين ويلقي الحصومة بين إمام الين وأسياد عسير ، كذلك بين الأكراد والأرمن وبين السوريين والشراسة في بلاد الشام . لقد كان الشعب العثماني عبارة عن مجموعة أعداء يتربص بعضهم الدوائر بالبعض حتى إذا أطبقت الألسنة بإعلان الدستور انكشفت السرائر وظهر من ثم تفسخ فطبع بين الصفوف يستحيل معه بقاء هذه الكتل المتنافرة تحت سماء وطن واحد من هذه الزاوية كان السلطان عبد الحميد يحمد من إطلاق حرية العناصر المختلفة ولا سيما الأعداء منهم حفاظاً على سلامة السلطنة كما كان يُحكّم الرقابة عليها عن طريق جواسيسه ليطلع على نواياهم ومن ثم يوجه إليهم الضربة قبل أن يتحدوا ضد السلطنة .

٤ - الخلافة والاتحاد الإسلامي :

قلنا فيما سبق أن السلطان عبد الحميد لجأ لدعوة الخلافة لاستغلال العاطفة الإسلامية من حيث هي سلاح يحمي به السلطنة من أعداءه في الخارج الذين تألبوا عليه باسم

(١) فلسفة التاريخ العثماني ج٢ ص ١٧٨ .

(٢) راجع كتاب حشر اللثام ص ٣٦ وما بعدها .

العاطفة المسيحية^(١) التي لأجلها عملوا في مساعدة الأقليات الدينية على نيل حقوق وامتيازات خاضعة لها أما دول شرق أوروبا العثمانية فقد كانت تنادي - أي الدول الأوروبية الطامعة جهاراً بالسلطنة بوجوب تخليص المسيحيين من الحكم العثماني المسلم وخروج العثمانيين من شرق أوروبا إجمالاً ولقد كان في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تحريض لمسلمي الهند ضد بريطانية وهم شديداً العاطفة نحو الخلافة وقد كانت نسبة كبيرة منهم تعمل في الجيش البريطاني مع مسلمين آخرين من بلاد أخرى واقعة تحت النفوذ البريطاني وكذلك في فرنسا فقد كانت نسبة كبيرة في جيشها من مسلمي السنغال والمغرب والجزائر وغيرها من المسلمين الأفارقة وهم يشكلون خطراً في كل من فرنسا وبريطانية إذا ما تحرك فيهم الشعور الإسلامي نحو دولة الخلافة^(٢).

وبالإجمال كانت هذه الملامح هي السمة العامة لشخصية السلطان عبد الحميد المؤثرة في سياسته الخارجية والداخلية وفي هذا المعنى يقول الأستاذ محمد جميل بيهم «إن السلطان عبد الحميد لم يكن مصدر هلاك السلطنة كما يزعمون بل إن السياسة الداخلية التي مارسها كان مسوقاً إليها بعوامل خارجية وداخلية كثيرة وكان بعضها لا يخلو من حكمة وبصيرة ذلك أن السلطان عبد الحميد لم يرتفع إلى عرش أجداده إلا بعد أن تزعزعت أركانه وأشرف على الانهيار»^(٣). وفي مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد جميل بيهم قال «... السلطان عبد الحميد أنشأ حوله أعداءه من الأتراك والترقي هالة مظلمة غير أنه كان في الواقع على غير ما وصفوه به ومن المؤسف أن هذه الدعايات ضد السلطان عبد الحميد انتقلت إلى بلادنا وتبناها كثير من أدبائنا المعروفين فضلاً عن أدباء الدولة العثمانية التقليديين»^(٤) ومن أولئك الأستاذ عمر الدسوقي الذي يقول «استولت الدولة العثمانية على الشام في القرن السادس عشر وساسته مع بقية البلاد العربية التي سيطرت عليها

(١) نقل شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه وموقف العقل والعلم ج٢ ص ٨١ ما ذكره «أنكهاره أحد سفراء فرنسا في تركيا في مقدمة كتابه (تركيا والتنظيمات) في تاريخ إصلاح الدولة العثمانية يقول «وكان الغرض من التنظيمات تقريب الحياة الاجتماعية الإسلامية إلى الحياة الاجتماعية المسيحية فقد كان العامل في وقف الامبراطورية العثمانية في موقفها بالقرون الوسطى الذي غسها يوماً عن يوم في ظلام تلك القرون الكثيفة والذي سينتج في يوم من الأيام إندراسها هو بقاء الحكومة العثمانية منفردة في خارج الهيئة الدولية الأوروبية وكان السبب الحقيقي لهذا الانفراد هو الدين».

(٢) للتوسع في هذه الفكرة راجع كتاب «الحرب الصليبية والأوروبية التاسعة» ص ١٢٨-١٤٥.

(٣) فلسفة التاريخ العثماني ج٢ ص ١٦٩.

(٤) مقابلة الأستاذ بيهم في بيته في بيروت في ١٥/١/١٩٧٥ م.

سياسة متعصبة فشددت على الأقليات وحرمتها الكثير من حقوقها وانتقل استعجال الشدة من الأقليات إلى الجميع حتى قال بعض الباحثين ظلت مصر وبلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك وهي في ظلام دامس وجهل فاضح تعاني مرارة الظلم وقسوة البغي ... قلب ما شئت من أسفار التاريخ لا ترى إلا صفحات سوداء قائمة تنبعث منها روائح الاستبداد والبطش»^(١).

ومنهم أيضاً الأستاذ ولي الدين يكن الذي يقول « لم يهمل عبد الحميد شاردة ولا واردة مما كتبه الأحرار في صحفهم وأسفارهم إلا أحاط به خبراً وأحصاه عدداً ونظر فيه وتأمل قريبه وبعيده وفكر في جليه وخفيه فما رآه حجة عليه تلطف في إزالته غير مظهر أنه أزاله خوفاً من هجاء الأحرار وما لم يكن كذلك تركه على حاله غير مبدل من حاله شيئاً ولكن أمرين كانا شديدين على نفسه شهوة ولزوماً : إعلان الدستور والتخلي عن الاستبداد هذان أمران ما حدثته نفسه أن يرضى فيهما الله ولا عباده وكان كلما ذكر له خصومه مثلبة من مثالبه غلت مراجله وهاج غضبه في خوف تبدو على وجهه آثاره وإن بالغ في تكمته»^(٢).

هذا وينبغي أن نذكر أن ولي الدين يكن كان ماسونياً ومن الأعضاء البارزين في حزب الاتحاد والترقي حيث ألقى في حفل نيازي الماسوني في القاهرة بمناسبة افتتاحه قصيدة مطلعها :

يا عصر قد حسدتك اليوم أعصار الأمر ششورى وكل الناس أحرار
ختها بقوله :

هنتم بإخاء كان مختفياً بين القلوب فجوان اليوم إظهار
لم يستجد ولكننا نكرره وهكذا يستديم الأمر تكرار
كما ألقى الأستاذ نعيم شقير/ رئيس حفل نيازي - وهو مسيحي - وكان سكرتيراً
لحاكم السودان الإنجليزي قصيدة مطلعها :

ففى الأحرار لا تخشى الصعاب ولا تحسب لنائبه حساباً

(١) في الأدب الحديث ج١ ص ٩ راجع محاضرات في نشوء القومية العربية ص ١٠٨ راجع أيضاً تاريخ فلسطين خليل طوطح ص ٢٣٨-٢٣٩ .

(٢) مناهل الأدب ولي الدين يكن ص ٩٢ .

ختمها بقوله :

تثير بادعياء الدين حرباً ونكشف عن ذوي الظلم الحجاباً
ونثبت في الجهاد الحق حتى نلاقي عند خالقنا الثواباً
جاء في آخره قد عقب أحد الكتاب الماسونيين على هاتين القصيدتين في مجلة المقتطف
بمقال « ولا تظن أن أحداً يطالع هاتين القصيدتين إلا ويرى فيها روح الماسونية والغرض
الذي ترمي إليه وهو التعاون على البر والنفع العام وهذا شعار الماسونية »^(١). ومن أدبائنا
الذين تبنا الهجوم على السلطان عبد الحميد الأستاذ المؤرخ محمد رفعت - وزير المعارف
المصرية سابقاً - إذ يقول متهماً :

« ورسمه - أي عبد الحميد - لا يبرح أنظارهم - أي العثمانيين - ومخيلاتهم وهو
يقترأ لهم في صوره المطبوعة المعلقة على جدران بيوتهم ومتاجرهم وفي مجال أعمالهم
ولكن اسم السلطان لا يطرق أسماع الناس حينذاك إلا مقترناً بالألفاظ الجلالة فهو أمير
المؤمنين وظل الله على الأرض وهو خليفة المسلمين كافة ومع ذلك فإن هذا السلطان الذي
مجده الناس حتى كادوا يؤلهونه لم يكن في حقيقة الأمر إلا طاغية مستبداً لم يتورع عن
الظلم والغدر وسفك الدماء حتى انحدر رأسه في التاريخ فعرف به «السلطان الدامي» أو
«السلطان الأحمر»^(٢). والحقيقة التي أظهرت السلطان عبد الحميد بهذه الصورة هي أنه كان
حازماً في عمل كل ما يصون الدولة من الانهيار أمام الأسباب المتكاثرة عليها سواء أكانت
داخلية أم خارجية ويتساءل الأستاذ الفرجاني فيقول « وإنني لأسأل المعارضين على هذا
(الاجتهاد) الذي (اجتهده) السلطان عبد الحميد وعمل بمقتضاه أين هو الدستور المعمول به
في هذا المشرق بعد مرور أكثر من ستين عاماً على خلع عبد الحميد^(٣) وقد أظهر أعداء
الدولة والسلطان هذا الحزم وكأنه سفك دماء ومجازر وظلم خصوصاً وأن معظم أعمال
الدولة الخارجية كانت بيد الحاقدين من رعيتهما وإلى هذا يأخذ جمال الدين الأفغاني على
العثمانيين تساهلهم مع القوميات والطوائف المختلفة فهو يلاحظ أن مستشار وزارة
الخارجية العثمانية كان أرمنياً وهو أرتين باشا وسفيرها لدى إنجلترا كان رومياً «موزوروس

(١) مجلة المقتطف ج ٣ ص ١٥٧ .

(٢) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة محمد رفعت ص ٨٣ .

(٣) الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص ١٠٥ .

باشا» وحاكم جزيرة كريت هو قسطنطين باشا ويتسائل الأفغاني فيقول « فهل يمكن أن نرى مستشار خارجية بريطانية مصرياً أو هندياً » ويقول صفوت باشا « إن سبب انفصال الولايات المسيحية عن الدولة العثمانية كان نتيجة لحسن معاملة السلطنة لأهلها وترك التقاليد الأصلية حرة » وقد تكلم فضيلة الشيخ مصطفى صبري عن هذا وأشار إلى ما كتبه الأمير شكيب أرسلان في الخلاصة التي كتبها « جوفارا » لكتابه «مئة مشروع لتقسيم تركية» حيث يقول « كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضة مستندة على شرع ساوي وقال إن العداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الحرية الدينية التي يتمتع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية » وقال « مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية »^(١) كما أشار المستر وليم للكراف في كتابه «المسألة الشرقية ص ١٠-١١» ما تعريبه بالحرف الواحد « إن المسلمين أمناء ذوو عهود وحرمة وميثاق بخلاف غيرهم كـ بعض الأرمن واليونان والمالطيين فإنهم مفكرون مختلفون لأكاذيب وأفانيس لا أصل لها افتراء على المسلمين وعلى دولتهم ولسوء الحظ فإننا نرى هؤلاء الأفاكين هم التراجمة الذين يرافقون السياح الأجانب في البلاد العثمانية والغريب أن هؤلاء السياح أيضاً يعتقدون أقوال أولئك النمامين كآيات بينات ينشرونها في أوروبا فتتلقاها الأمم الأوروبية قضية مسلمة فتزداد إذ ذاك ضلالاً على ضلال»^(٢) وقال في صحيفة ٢١ ما معناه « لقد كثر المفترى عن سلوك الجنود العثمانيين مع إننا إذا رافقناهم إلى المدن والقرى التي يدخلونها أو المعامع التي يخوضونها ألبينهم أبطالاً أمناء مسمومين صبورين على احتمال المشاق غير ما يشيعه اليونان افتراء عليهم فالمقصود منه تضليل الشعوب الأوروبية لا غير ومن ذا الذي لا يعجب عندما يرى أن الكذب ليس تجارة لليونان فقط بل للسفارات الأوروبية بواسطة تراجمتها الشرقيين »^(٣) وعن معاملة الدولة العثمانية لرعاياها على اختلاف مللهم ونحلهم معاملة حسنة بدون تفريق قال الكونت هنري كرسنسكي في كتابه المدعو «تاريخ قوازي الأقربين ص ٥٣» (ولقد ندم «خيام لنسكي» أمير القوازي إذ لم يجعل بلاده من أملاك الدولة العلية عوضاً عن ضمها إلى روسيا وكان آخر كلامه وهو على فراش الموت سنة ١٦٥٦ قوله «إلهي لقد اقترفت ذنباً عظيماً واحرقته بـم اعتذر عنه إذ جعلت قومي تحت سلطة من لا رحمة في قلوبهم ولم أجعلهم

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين ج ١ ص ٨٢، ٨١ .

(٢) مجلة غرات الفنون عدد ١٢٠٧ ص ٨٢ رجب ١٣٦٦ هـ .

(٣) المرجع السابق .

تحت حكم الدولة العثمانية الرحمة برعاياها لقد غدرت بقومي ولم أنصحبهم إذ لم أجعلهم تحت حكم سلاطين آل عثمان الكرم» وقال في مكان آخر «وكانت البلاد العثمانية خير حصن يأوي إليه من رماه الدهر بالأرزاء من الأوروبيين جميعاً ولما اشتد بلاء قوازق (الزبوروكسي) التجأوا مع أميرهم إلى الدولة العثمانية فأحسنّت إليهم وأعطتهم عقارات وأرض فسيحة يزرعونها ويقتاتون من ريعها^(١) وفي هذا تأييد لرأي جمال الدين الأفغاني الذي أوردناه بهذا الشأن .

السلطان عبد الحميد ضحية فلسطين وشهيدها الأول :

بدأت نهاية الدولة العثمانية يوم وقف السلطان عبد الحميد في وجه المطامع اليهودية عن تحقيق أهدافها في فلسطين وحتى تتمكن من فهم دور اليهود في إسقاط السلطان عبد الحميد الذي به انتهت دولة الخلافة وهيبتها يجب أن نبدأ من القرن التاسع عشر حيث كانت الدولة العثمانية تعطف على اليهود عملاً بتوجيهات الدين الإسلامي الذي يوصي بأهل الذمة خيراً وقد رحبت بالمهاجرين إليها منهم عند فرارهم من وجه الظلم الأوروبي ولعل فيما كتبه صاحب ثمرات الفنون يوضح مدى القسوة التي كانت تعامل بها الطوائف من قبل الدول الأخرى فقد أورد صاحب ثمرات الفنون خيراً جاء فيه « وقال الكونت المذكور هنري كرسنسكي في كتابه (تاريخ القوازق الأقريين) في وجه ١١١ ما حصله « وشرع الروس يقتلون اليهود والكاثوليك والبروستانت نساء ورجالاً وأطفالاً وكانوا يشنقون الرجل البولوني الكاثوليكي وبقره رجل برستتي ويشنقون بينهما كلباً مبالغة في الاحتقار وفي سنة ١٧٦٧م حرقوا بالنار ألفاً من اليهود دون أن يرحموا صغيراً أو كبيراً إلى أن قال في وجه ١٣٠ أما العثمانيون فلم يبد منهم إلا الإحسان لكل من أمّ بلادهم وما دخلت الدولة العثمانية بلداً إلا وعمرها عدلها وصانها شرعها وقد نشرت روسيا إعلاناً عمومياً بالأمان لمن يروم العودة إلى وطنه فصدق بعض القوقاز الذين احتوا بالبلاد العثمانية قولها فعادوا نحو أوطانهم وما استقرت أقدامهم بالبلاد الروسية حتى سقوا كؤوس الموت الزؤام ولم ينج منهم أحد^(٢) وفي مكان آخر ذكر صاحب ثمرات الفنون في المعنى نفسه قول المستر فون والمستر واهويلم في كتابها المدعو «ارتكاب الأوروبيين» وجه ٢٠٨ ما تعريبه بالحرف الواحد « إن أبناء جلدتنا يتخطفون المسلمين من كل جانب ومع هذا نرى

(١) مجلة ثمرات الفنون عدد ١١٧ ص ٢ .

(٢) مجلة ثمرات الفنون عدد ١١٨ ص ٢ .

هؤلاء يحسنون إليهم ويحمونهم من بعضهم البعض ويحرسون معابدهم ورؤسائهم الروحانيين فكان المسلمين لم يذوقوا مر ما فعله متوحشو أوروبا من الفضائح فيا فضيحة من يقول إننا قوم عادلون وهذه أعمالنا التاريخية تشهد علينا بعكس ذلك « وقال في وجه ١٥٥ من الكتاب نفسه « لقد قتلت ألوف من اليهود نساءً وأطفالاً ورجالاً في أزقة أشهر المدن الأوروبية ولم يعد لأولئك المساكين مأوى أمين إلا بلاد الدولة العثمانية فهي بلاد الراحة والأمن والسلام « وجاء في الكتاب المدعو «تاريخ اليهود» وجه ٥٤٨ ما نصه « لقد كثر قتل اليهود وحرقتهم بالنار دون استثناء الصغير منهم والكبير في كافة المدن الأوروبية ولم ينج من العذاب إلا القاطنون في بلاد الدولة العثمانية بلاد الأمن والسلام «^(١) ومن الأدلة على عطف الدولة العليا على اليهود وحمايتهم لهم أن يهودا حثس يد حاكم طائفة الأشكناز استدان مبالغ كبيرة من أهالي القدس لينفقها على شؤون طائفته ثم عجز أو أنه تظاهر بالعجز عن تسديدها فأصدر السلطان محمود الثاني إرادته السامية عام ١٨١٦م بإعفاء الاشكناز من هذه الديون وفي عام ١٨٥٠ كان عدد اليهود في كافة أنحاء الدولة العثمانية لا يزيدون على ١٥٠ ألف يهودي كانوا يعيشون في نظام خاص بهم منهم سبعة عشر ألفاً في فلسطين وينتشرون في القدس ويافا وطبرية وصفد وبدأ شعور الدولة يتبدل نحو اليهود في أواخر عهد السلطان عبد الحميد سنة ١٨٦١ حيث بدأ أعوانه يشتبهون في اليهود وسلوكهم إلا أن تدابير صارمة لم تتخذ بحقهم بل اكتفى بفرض المراقبة على نشاطاتهم .

أما فكرة إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين فقد تبنته بريطانيا منذ أنشأت قنصليتها في القدس عام ١٨٣٩-١٨٤٠ وأعلنت فيه حمايتها لليهود مع حملة صحفية بريطانية تؤيد أماني اليهود في فلسطين ظهرت في مقالات التايمز في السابع عشر والسادس والعشرين من أغسطس ١٨٤٠ تحدثت فيه عن إمكان قيام دولة يهودية بجهود بريطاني^(٢) وزار السيد لورنس أوليفانت البريطاني فلسطين عام ١٨٧٩ وقام خلالها بدراسة سرية لشؤون الزراعة والري والثروات الطبيعية ثم عاد إلى لندن ليتقدم للحكومة البريطانية - وكانت برئاسة اليهودي دزرائيلي - بمشروع للاستفادة من الأراضي المحيطة بنهر الأردن على أن يقوم اليهود باستثمارها والسكن فيها فوافقت عليه الحكومة البريطانية وتبنته ولما عاد أوليفانت إلى الأستانة وأجرى اتصالات مع الحكومة العثمانية

(١) مجلة ثمرات الفنون عدد ١١٩٦ ص ٢ .

(٢) الهاشميون والقضية الفلسطينية ص ١٤-١٥ .

بشأن المشروع استدعاه السلطان عبد الحميد وأفهمه بصراحة أنه لن يسمح لليهود مطلقاً باستعمار فلسطين لاعتقاده بأن غرضهم الحقيقي هو إقامة مملكة لهم فيها أساسها الدين وأضاف : « إن اليهود يستطيعون بسلام واطمئنان أن يعيشوا في أي جهة من الدولة العثمانية ما عدا فلسطين » فاستنجد لورنس أوليفانت سفيرى بريطانية وأمريكا لمساعدته على اقناع السلطان لتغيير موقفه ولكن السلطان رفض تدخلها وأمر بإخراج أوليفانت من البلاد .

وقام السفير الأمريكي المستر دلس بمساعي جديدة لحل السلطان على السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين واستلاك الأراضي فيها فأفهمه السلطان بصراحة وحزم أن لا أمل لليهود في فلسطين وأنه إذا كان اليهود يريدون عملاً خالياً من أي غرض أو هدف سياسي فأمامهم ما يشاؤون من سهول العراق وسوريا والأناضول ولم يكتف السلطان عبد الحميد بالرفض بل وقّع قانوناً عام ١٨٨٠ بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين واستلاكهم الأراضي فيها وبعد ذلك بعامين احتلت بريطانية مصر وأعلن في الوقت نفسه عن قيام الحركة الصهيونية فضعف هذان الحادثنان من قلق الدولة العثمانية وخافوها من المطامع اليهودية .

وإذ لوحظ بعض التحايل من قبل اليهود على القانون حيث استطاعوا بالتعاون مع الدول الأجنبية وبمساعدة بريطانية وأمريكا خاصة مواصلة التحايل على القوانين العثمانية مستغلين ما كان يسود الإدارة العثمانية آنذاك من تدهور ورشوة فلم يجد السلطان بدأً من أن يتدخل بنفسه وأصدر أوامره الشخصية المشددة بمنع أي يهودي من دخول فلسطين إلا إذا كان يحمل جوازاً رسمياً يحمل تأشيرة تركية للدخول كما أمر بطرد جميع اليهود الذين يثبت أنهم دخلوا أراضي الدولة العثمانية بصورة غير شرعية فتدخل السفير الأمريكي تنفيذاً لتعليمات مشددة تلقاها من واشنطن وباريس ليضغط على الحكومة لالغاء الأوامر فلم يفلح بأكثر من أن الصدر الأعظم سعيد باشا وافق على السماح لليهود الذين يحملون جوازات سفر قانونية بالإقامة في فلسطين مدة أقصاها ثلاثة أشهر وظل السلطان عبد الحميد متشدداً في منع اليهود من الهجرة إلى فلسطين واستلاك الأراضي فيها ووقف العديد من المساعي والجهود التي كان ممثلو بريطانية وأمريكا يبذلونها باستمرار لحمله على العدول عن خطته واستمر هذا النضال العنيف مدة عشرة أعوام تقريباً دون أن تستطيع الدولتان الفوز بأمنيتهما وفي عام ١٨٩١ أرسل قنصل أمريكا إلى حكومته رسالة يقول فيها إن تركية المسألة لن ترضى بإقامة مملكة لليهود في فلسطين وفي عام ١٨٩٣ أصدر السلطان عبد الحميد أوامر جديدة بمنع اليهود من شراء الأراضي في فلسطين .

ثم دخلت المفاوضات بين السلطان عبد الحميد والصهيونية مرحلة جديدة أكثر جدية وصراحة وتصميماً من قبل حيث مثل تيودور هرتسل الزعيم الصهيوني بين يدي عبد الحميد سنة ١٨٩٣ وكان يرافقه موسى لاوي الحاخام الأكبر للدولة العثمانية وبعد مقدمة مليئة بالرياء والتفاق والتلق بينا له حاجة أمتها للحماية والرعاية التي تلقاها من الدولة العلية ثم دخلا في صلب الموضوع الذي جاء من أجله بمنورة كلامية يحسناتها فكان السلطان الداهية حريصاً على أن يسر غورهما ويكشف أمرهما دون أن يظهر عليه أي أثر للانفعال ويصفي إليهما برحابة صدر وهذوء فقال أحدهما : إن عبيدكم اليهود يا أصحاب الجلالة مدينون لكم ولأجدادكم العظام وللشعب التركي المجيد بحسن الضيافة والمعاملة التي يلقونها ولن ينسى التاريخ ما لقيه الشعب اليهودي من العطف والرعاية التي رأوها وهم يدعون لكم بطول العمر^(١).

قال السلطان : أريد معرفة مقاصدكم الحقيقية التي طلبتم مقابلي من أجلها فأجابا بتؤدة وتحفظ « إننا نجرؤ بالبيان لسدكم الصدانية ، أن عبيدكم اليهود المشولين بألطفكم الملوكية يشعرون بحسرة وحاجة إلى وطن يلم شعثهم ولا ينسون لكم هذه المنة والفضل مدى الأزمان وسيذكرونكم لكم بالتعظيم وبالأكبار والتبجيل » فقال السلطان « كنا نظن أن اليهود في مملكتنا يمتنعون بكل عز ورفاه مشولين بالعدالة والأمن كما كنا نظن بأنكم ممنونون من حسن المعاملة التي يلقاها اليهود أسوة ببقايا الرعايا العثمانيين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم بدون تمييز فهل لكم شكاية من معاملة غير عادلة لا نعرفها نحن » فأجابه برهبة وخشوع « نستغفر الله يا صاحب الجلالة إن رعاياكم اليهود يمتنعون بكل طمأنينة وامتنان ولا توجد لهم أي شكاية وكل ما هنا لك أننا نسترحم منكم ولو قطعة أرض رمزية لتكون لهم مركزاً دينياً يحجون إليه في ظل دولتكم وليقوموا فيه بالصلاة والدعاء والشكر لسدكم العلية ودوام حياة جلالكم » فأجابها السلطان باقتضاب « لا يمكننا أن نعمل أكثر مما عملنا حتى الآن تجاه أمتكم التي تتمتع بخيرات البلاد كوطنين عثمانيين بل وأكثر وأظنكم تذكران ما كان يلقاه اليهود قبل لجوئهم إلى بلادنا من الحقارة والذل والاضطهاد في مختلف البلاد التي هاجروا فيها » وأدار السلطان وجهه إلى الحاخام الذي أجاب بتلكؤ وتعتة « الله يزيد في عمر جلالكم » وتكلم تيودور هرتزل فقال « هل لي

(١) كان اليهود يمتنعون للصلاة والدعوة للسلطان راجع الجواب عدد ١٨٥٦ السنة السابعة عشر الأحد ٢٢ ربيع الثاني

أن أقدم بعرض على جلالكم بأن تقدرُوا أن تحسبُوا ما تستسبونهُ من ثمن للأراضي التي تعود ملكيتها إلى جلالكم في فلسطين بشرط أن يدفع اليهود بدلها نقداً مع الزيادة مهما بلغ وارتفع الثمن من ملايين الليرات الذهبية» وهنا غلى الدم في عروق السلطان وصاح بها : « هل وصل بكما الأمر لتعرضا علي ثمناً لقطعة أرض عزيزة من أرض الوطن المبذولة فيها دماء الشهداء والتي لا تباع ولا يمكن التفریط في شبر منها بل نحن على استعداد لكي نبذل المزيد من الدماء للمحافظة عليها أكثر مما بذلناه حتى الآن» ثم نهض علامة على إنهاء المقابلة فانسحب هرتزل ولاوي يجرران ذيول الخيئة .

ويقال إن اليهود تدارسوا فيما بينهم نتائج هذه المقابلة ودعوا إلى مؤتمر عقده في مدينة بازل في سويسرا عام ١٨٩٧ ضم أكثر من تسعة شخص يمثلون ستائة جمعية يهودية وفي هذا المؤتمر اتخذت مقررات (بروتوكولات حكاء صهيون) المشهورة ويقال إن هرتزل قد عرض في هذا المؤتمر فكرة إقامة وطن قومي لليهود في غير فلسطين في أوغندة مثلاً ... بعد أن يؤس من السلطان عبد الحميد إلا أن بقية المؤتمرين قرروا الزحف الإفرادي للتواصل إلى فلسطين للتركز فيها والسكن في تلك البقاع المقدسة بصفة زائرين أو مجاورين وفي ذلك العام زار الأستانة الامبراطور غليوم الثاني الألماني ومنها توجه إلى زيارة القدس فاغتم اليهود الفرصة ورجوه التوسط مع مضيفه لمنحهم ما يريدون وتوسط الامبراطور فعلاً ولكن السلطان عبد الحميد لم يتحزج عن موقفه قيد أنملة بل على العكس من ذلك جعلته هذه الوساطة يحس بالتركيز اليهودي على فلسطين ويتوجس خيفة فأصدر أوامره المشددة لتقييد اليهود الزائرين للأماكن المقدسة بـ(البطاقات الحمراء) التي ما لبثت أن عرفت باسم (الجواز الأحمر) وهذه لا تبيح بقاء اليهودي الزائر في فلسطين أكثر من شهر واحد مع هذا لم ييأس اليهود فأوقدوا إليه نائب سالونيك عمانوئيل قرة صو أفندي ليعرض على السلطان خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية للخرينة السلطانية الخاصة ومبلغ أكبر تحدده الحكومة العثمانية ويعطى لها كقرض بلا فائدة وإلى أجل غير مسمى مقابل إعطاء اليهود الثلث القائم بين يافا والبحر الميت وكانت الدولة تخوض في ذلك الحين حرباً مريرة مع روسية وتجتاز أزمة اقتصادية خائفة ومع هذا غضب السلطان وطرده من حضرته وتقول بعض المصادر التاريخية أن تيودور هرتزل ما لبث أن أعاد الكرة وقابل السلطان بعد توسط سفيري بريطانية وأمريكية وعرض عليه أن ينشئ اليهود لدولته أسطولاً حريياً وتجارياً يفوق ويستلب من الأسطول البريطاني سيادة البحار ... فأبلغه السلطان أنه يرفض جميع العروض اليهودية من أساسها وأنه لن

يسمح لهم باستعمار فلسطين والثابت قطعاً أن مكاتبات جرت بينها حول هذا الموضوع وأن السلطان ظل متمسكاً بموقفه حتى النهاية طالباً إلى اليهود أن يحتفظوا بملايينهم إلى الحين الذي يستطيعون فيه الحصول على فلسطين ولكن ... على أنقاض دولته العلية العثمانية^(١).

وضاق اليهود ذرعاً من تصلب السلطان عبد الحميد الثاني تجاههم فاتخذوا مقررات جديدة خلاصتها محاربة السلطان عبد الحميد وبذل كل جهد لإزاحته عن العرش^(٢) واللجوء إلى الاغتيال إذا لزم الأمر فبدأوا يثبون الدعايات ضده عن طريق جمعياتهم السرية والماسونية في الصحف الأجنبية وأعدوا مؤامرة لاغتياله^(٣) بوساطة فوضوي أرمني كان السبب في اختياره خوفهم من عدم نجاح هذه المؤامرة فلا يلحق حينئذ باليهود أي ضرر .

وفعلاً انفجرت قبله موقوتة في عربة السلطان بعد ظهر الجمعة ٢١ تموز سنة ١٩٠٥ وللمصادفة البحتة بل العناية الإلهية كان السلطان قد وقف مع شيخ الإسلام خلافاً لعادته يبادل به بعض الحديث فتأخر بذلك عن الركب فترة من الوقت انفجرت القنبلة خلالها وكان من نتيجة هذه المؤامرة المذابح التي تعرض لها الأرمن وثورتهم في ذلك العام . وعندما فشل اليهود في محاولتهم هذه توسلوا بوسائل دينية أخرى فلفقوا قصصاً وحكايات لا يزال الكثيرون من الناس يؤمنون بها وكأنها حقائق ثابتة ... منها أن السلطان قد أغرق ثلث أو نصف أعضاء مجلس المبعوثان العثماني الأول في البوسفور ... وأنه ما لبث أن أغرق المئات من طلاب الجامعات والزعماء المعارضين في البحر عن طريق ربط أرجلهم بالحجارة الثقيلة ورميهم فيها من سري بروجي^(٤) ومنها قصة وجود سوء استعمال وسرقات في مشروع سكة حديد الحجاز واحتفاظ السلطان لنفسه بالإعانات التي جمعت بمعرفته من أقطار العالم الإسلامي مع إنه حينما استتب الأمر للاتحاديين لم يعلن قط عن

(١) الحروب الصليبية الأوروبية التاسعة ص ١١٢-١١٤ .

(٢) لمعرفة حقيقة الدوغة والماسونية في عزل السلطان عبد الحميد عن طريق الاتحاد والترقي ، راجع كتاب حقيقة الماسونية للدكتور محمد علي الزعي ص ١٧٤-١٧٥ وكتاب الماسونية في العراق للدكتور محمد علي الزعي ١٧٤-١٧٩ حيث ذكر ضبط أحد جلسات محفل سلاتيك الأكبر التي تم فيها للمطالبة والتخطيط لإسقاط عبد الحميد كما ورد في مجلة التحرير العدد الثاني كانون الثاني ١٩٢٩ التي تصدر في حمص وتطبع في مطابع الترقي في دمشق .

(٣) وهم الذين كانوا كثيراً ما يدعون له كما جاء في صحيفة الجوائب - كما مر - .

(٤) أسرار الماسونية للمجنرال جواد رفعت أتلخان ص ٥٩ .

اسم نائب أو زعيم أو طالب قد رمي في اليوسفور أو يكون مفقوداً لم يعرف مصيره هذا من جهة ومن جهة أخرى أشادوا برجالهم أمثال مدحت باشا وسموه أبا الأحرار وهو رئيس جمعية (تركيا الفتاة) اليهودية التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد^(١) وكان علمهم لتقويض الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد في ميدانين (ميدان خارجي بما لهم من نفوذ ومؤسسات وتحكم في الدول الأوروبية وميدان داخلي في تغذية الروح القومية الانفصالية لعناصر المملكة المختلفة من عرب وأكراد وشركس وأرناؤوط وأرمن وغيرهم وأحزاب وجمعيات سرية زودتها الصهيونية بـ(عقائدات) حسنة الظاهر ولها في كيان الأمة فعل الديناميت المتفجر حتى أتت الحركات والجهود المختلفة ثمارها فجعل حزب الاتحاد والترقي (اليهود الماسوني) مركز عمله سراً في (سلانيك) وقد اختارها لأن فيها عدا الجاليات الأجنبية الكثيرة عدداً من المحافل الماسونية التي كانت عوناً لهم على تشكيلاتهم وعلى كتمان مساعيهم ثم قويت حركات المعارضين حتى صارت علنية بعد السرية وتجابوب مع معارضة (سلانيك) الأرمن وسائر الأقليات تحت شعار (الدستور)^(٢) أما الشبان العرب فقد أهداهم التجسس القومي الذي كان الأجانب يؤرثونه لهم^(٣) من حيث لا يشعرون بهم وكانت الإرساليات الأجنبية ومدارسها والقنصليات تذر رماد الوعي القومي ... واغتنت المدراس الأجنبية المنتشرة في المملكة فرصة استثنائها من رئاسة الدولة فألقت في أفئدة تلاميذها النصارى الرعب من المسلمين لتنفهم من الامبراطورية العثمانية ولتكسب قلوبهم مستعينة على ذلك ببعض التآليف التي لم تتورع عن الطعن في الإسلام والتشهير برسوله^(٤).

ثم جاء الظرف الذي اضطر فيه السلطان عبد الحميد للعمل بموجب الدستور العثماني في ٢٤ تموز ١٩٠٨ وفي هذه المناسبة قال الأمير شكيب قصيدة مطلعها :

ألا يا بني عثمان حسبك شكرا	لقد جاد رب العرش بالنعمة الكبرى
ويصف الخليفة بأنه ظل الله حيث يقول :	
وألهم مولانا الخليفة ظله	قياماً على الدستور في الملة الغرا
تداركها رمقاً بإكسير ناظر	إذا مال نحو الترب سيرها تبرا

(١) راجع كتاب الثورات سلامة موسى ص ٧٢-٧١ .

(٢) مجلة العربي عدد ٢١٩ مقال الأستاذ سعيد الأفغاني .

(٣) التأريث الاغراء بين القوم وإيقاد النار .

(٤) مجلة العربي عدد ٢١٩ مقال الأستاذ سعيد الأفغاني .

إلى أن يقول :

وفدوا أمير المؤمنين بأنفس كتهما إلى عثان نسيتهما فخر^(١)

ويسجل الأستاذ خليل طوطح شيئاً عن تاريخ هذه الحقبة فيقول : « وكان شعار الناس قاطبة حرية ، عدالة ، مساواة ، فكثرت الفساد وعم التعدي وضعفت الإدارة الملكية وسادت الفوضى وضوّلت هيبة الحكومة وطمح الناس إلى احتقار الحكم وجهلوا معنى الحرية فظنوها الاشتراكية أو الفوضوية فكان الرجل ينهب مال غيره ويستبد بالضعيف وإذا عنفته أو زجرته قال حرية مساواة^(٢) ولكن سرعان ما عاد السلطان وألقى الدستور والعمل به ولكن جمعية الاتحاد والترقي كانت قد تغلغلت واستشرت وزحفت فرقة من الجيش نحو العاصمة استانبول بقيادة محمود شوكت باشا الفاروقي « وهنا يسجل السلطان عبد الحميد موقفاً حقن به الدماء في الوقت الذي كان يستطيع أن يقاوم بحرس قصره ويرد هذه الفرقة ريثما تحضر فرق الجيش الأخرى لنصرة السلطان^(٣) .

ويقول الأستاذ سعيد الأفغاني أيضاً « يحفظ المعمرين في دمشق عن أحد باشوات الدولة العثمانية المرحوم «زاهد باشا الهبل» وكان يروي لجلسائه آخر ما أتى السلطان في قصره يوم الخلع قال : لما اضطربت الحوادث وتمردت (سلانيك) أخبر الصدر الأعظم سلطانه بعصيان جيش سلانيك فقال السلطان (طيب) ولم يزد عليها ثم أخبره باتجاه العصاة نحو العاصمة (استانبول) فقال (طيب) ولم يأمر بشيء ثم أخبره بدخولهم العاصمة ... ثم باتجاههم نحو قصره ... ثم بحصارهم القصر وفي ذلك كله يقول (طيب) ولا يزيد عليها وكان الصدر الأعظم شديد الهيبة للسلطان ثم دخل أمر القوى في القصر يستأذن السلطان بضرب العصاة والمقاومة فمنعه ثم عاوده القول بأنهم يريدون إذنه بالمقاومة لهم فقال : أعرف جيداً ما يريدون هو خلعي أو قتلي وأنا شخص فإذا أمرتكم بالمقاومة سقطت مئات القتلى منكم ومنهم وأنتم جميعاً أفراد من هذه الأمة والأمة تحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائد ثم

(١) ديوان شكيب أرسلان ص ١٠٢-١٠٣ .

(٢) تاريخ فلسطين الأستاذ خليل طوطح ص ٣٦٩ .

(٣) ولكن الدكتور محمد حسين يقول «... ويلجأ زعماء الاتحاديين في الجيش إلى العنف فيقتحمون الأستانة ويحاصرون يلدز ويشبكون مع رجال عبد الحميد في معركة كبيرة تنتهي بالتسليم « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ١ ص ٤٦ ولكنه لم يذكر المراجع .

دخل العصاة ولم يقاومهم أحد»^(١). كان ذلك في ٣١ آذار ١٩٠٩ .

وتولى بعده أخوه محمد رشاد الذي لم يكن له من الأمر شيء حتى التوقيع أو الختم فقد وُضِعَتْ جميعها بيد أنور باشا وأصبح يهود الدوغة والماسون يحكون من وراء ستار عن طريق كبار رجالهم أمثال «جاويد بك والميستر سالم وعمانوئيل قرة صو» ولم يكن خافياً على أحد تغلغل وسيطرة الماسونية على جمعية الاتحاد والترقي يقول صاحب المقتطف «... وحسبك شاهد ما فعلته جمعية الاتحاد والترقي العثمانية وأكثر أعضائها من الجمعية الماسونية المرتشدين بارشادها» .

كما أشار إلى دور الانجليز أيضاً في خلع السلطان عبد الحميد في مناسبة افتتاح محفل نيازي في مصر برئاسة نعيم بك شقير مكان الحفل فندق كوتنتنل في القاهرة وحضر الحفل ادريس بك راغب مدير المحافل الماسونية المصرية وإلى يمينه نعيم بك شقير رئيس محفل نيازي ثم حضره ستاك بك وكيل حكومة السودان وحضرة القائم مقام برتو بك من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي... فأديرت ألوان الطعام الفاخرة وتداول الجلوس المسامرات الفكاهية ثم شربوا نخب الجناب العالي والحضرة السلطانية وجلالة ملك الانجليز رئيس المحافل الماسونية الانجليزية السابقة... وخطب برتوبك بالتركية وأثنى الشاء العاطر على الحكومة الانجليزية والأمة الانجليزية لأنها ساعدت العثمانيين في هذا الانقلاب المبارك ضد عبد الحميد - الذي قوض أساس الاستبداد ووطن أركان الحرية في الممالك العثمانية وقال صريحاً «إن الماسونية كانت المحرك الأول والمرشد الأكبر للجنة الاتحاد والترقي وأظهر الذين تكلموا بالعربية فضل الماسونية في تأليف القلوب بين كل الأمم على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم مستشهدين بذلك الاجتماع الذين جمع كثيرين من المصريين والانجليز والترك من المسلمين والمسيحيين على اختلاف مذاهبهم وكلهم اخوان تجمعهم رابطة الحرية والإخاء والمساواة»^(٢).

هذا وفي ١٤ نيسان ١٩٠٩ أوفد البرلمان العثماني هيئة مكونة من الرئيس حكمت باشا وثلاثة أعضاء هم أسعد الطويتالي باشا وغالب باشا وعمونوئيل قرة صو أفندي إلى سراي

(١) مجلة العربي عدد ١٦٩ (ص١٥٤) مقال الأستاذ سعيد الأفغاني .

(٢) المقتطف ج ٣٦ (١٩١٠) ص١٥٧ الحرية والإخاء والمساواة كان شعار حزب الاتحاد والترقي وهو شعار الماسونية أيضاً وشعار الثورة الفرنسية أم الحريات .

يلدز لابللاغ السلطان قرار الخلع وقد كانت إمارات التردد والتهيب على وجوه رجالها وكانت النشوة ظاهرة على ملامح قرة صو وعندما أبلغه عارف حكمت باشا قرار الخلع أجاهه عبد الحميد « ذلك تقدير العزيز العليم » وبعد أن صحت برهة تابع يقول « لا بأس فليكن ذلك لقد أمسكت قيادة الأمة بخيط أرفع من خيط القطن مدة ثلاثة وثلاثين سنة دون أن ينقص فأتني لكم النجاح أكثر مني واعلموا أن المسؤولية التي تحملونها ثقيلة جداً » واستغرق في تفكير عميق كمن يستعرض الأسباب الحقيقية التي أدت إلى خلعه والرهبة آخذة بأعضاء اللجنة كل مأخذ وفجأة انتفض عبد الحميد وأشار إلى قرة صو متسائلاً « ما هو عمل اليهود في مقام الخلافة؟ ... ثم التفت إلى بقية أعضاء الوفد وصاح بهم « بأي قصد أتيتم بهذا اليهودي إلى هنا؟ أنا أفهم حقكم كسلمين في خلع سلطانكم وخليفة نبيكم ولكن ... ما هي علاقة هذا اليهودي بالذي جئتم من أجله؟ وهنا ساد الارتباك أعضاء الهيئة وارتعدت مفاصل زعيم يهود سالونيك وفي رواية أن السلطان انتهره وأخرجه من المجلس^(١).

لقد كان محبي زعيم يهود سالونيك ضمن اللجنة التي تبلغ السلطان قرار الخلع أكبر دليل على اليد الطولى لليهود في خلع السلطان^(٢) وقد كان لموقف السلطان المتعنت اتجاه المطامع اليهودية في فلسطين السبب الأول في موقف اليهود منه موقف العداء فهم باعترافهم كانوا يعيشون أرغد عيش في ظل الدولة العثمانية في الوقت الذي يُضطهد ويُحرق فيه اليهود في أوروبا^(٣).

وفي رسالة السلطان عبد الحميد إلى شيخه محمود أفندي أبي الشامات شيخ الطريقة الشاذلية في عصره حيث كانت تتم بينهما المراسلات عن طريق أحد الحرس - على السلطان عبد الحميد - الذين أخذوا العهد والطريقة من الشيخ أبي الشامات أثناء وجوده في استانبول في ضيافة (راغب رضا بك) مدير القصر السلطاني كما أخذ عنه عدد من وجهاء استانبول وموظفي القصر السلطاني ووجوه وحراسه وهي حجة دامغة في بيان دور اليهود في عزل السلطان عبد الحميد وهذا نصها :

(١) الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص ١١٢-١١٨ .

(٢) راجع الماسونية في العراق ص ٢١٨-٢٢٢ وكتاب حقيقة الماسونية ص ١٧٤-١٧٦ .

(٣) يقال إن الذي مول الفتنة التي قضت على السلطان عبد الحميد يهودي يدعى ناثان رئيس بلدية روما راجع كتاب مصطفى كمال تأليف جوبرت مون تعريب كامل مسيحة ص ٢١ .

يا هو^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وأفضل السلام وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين أرفع عريضي هذه إلى شيخ الطريقة العلمية الشاذلية إلى مفيض الحياة إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات وأقبل يديه المباركين راجياً دعواته الصالحة . بعد تقديم احترامي أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مارس في السنة الحالية وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمين .

سيدي :

إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوارد الشاذلية ليلاً ونهاراً وأعرض أنني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب الساحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ : « إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم «جون ترك» وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة وأن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأراضي المقدسة «فلسطين» (ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيراً وعدوا بتقديم ١٥٠ مليون ليرة انجليزية ذهباً» فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي : إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فضلاً عن «١٥٠ مليون ليرة انجليزية ذهباً» فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي ، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية مما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين .

لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي ... وبعد جوالي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سينفوني إلى «سلانيك» فقبلت بهذا التكليف الأخير هذا وحمدت المولى وأحمد

(١) لا يجوز علماء العربية نداء ضمير الغيبة مطلقاً . راجع ضياء السالك إلى أوضح المسالك محمد عبد العزيز النجار ج٢ ص ٢٤٠ «المماش» ولكن الصوفية يهتدون في التعبير عن مواجيدهم أكثر من التزامهم بقواعد اللغة العربية ويسمون «ياهو» الذكر بالموية وبه يُستدل على درجة النافر في منازل السالكين - كما يقولون - .

أنني لم أطبخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين . وقد كان بعد ذلك ما كان ولنا فياني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام وبه أختتم رسالتي هذه أتم يدكم المباركتين وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي وبسلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء .

يا أستاذي المعظم :

لقد أطلت عليكم التحية ولكن دفعني لهذه الإطالة أن تحيط ساحتكم علماً وتحيط جماعتكم بذلك علماً أيضاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
في ٢٢ أيلول ١٣٢٩ .

خادم المسلمين
عبد الحميد بن عبد المجيد

هذا وقد نشرت هذه الرسالة ضمن مقال طويل للأستاذ سعيد الأفغاني في مجلة العربي عدد ١٦٩ وذكر الأستاذ الأفغاني أن هذه الرسالة مترجمة عن النسخة الأصلية بخط السلطان عبد الحميد باللغة التركية .

وقد نشرت مجلة الإنجليزية إسلامية نص الرسالة بالانجليزية بعد مقدمة طويلة ففضلنا الاعتماد على الترجمة العربية المأخوذة عن التركية مباشرة بدلاً من ترجمة النص الانجليزي إلى العربية والمجلة اسمها :

"Impact International Fortnight" London, 23 March,-12 April 1973 vol. 2:21

ونشرت مجلة العربي أيضاً في عددها رقم ١٧٨ صفحة ٥٢-٥٨ مقالاً في الرد على الأستاذ سعيد الأفغاني بعنوان «السلطان عبد الحميد طاغية وليس خليفة» للأستاذ عبد الله أحمد حسين يعتقد فيه على المراجع التي روجت ما أدعته جمعية الاتحاد والترقي من بطش وظلم واستبداد عبد الحميد علماً بأن موقف هذه الجمعية من القضية العربية وقضاياها موقف لا تحسد عليه وينبغي لنا أن نقول أن هذه الرسالة لم تضاف أي جديد في موضوعها سوى أنها وثيقة من السلطان عبد الحميد لاثبات دور اليهود في الأحزاب والجمعيات التي كانت

تنور على السلطان منادية بالدستور والحرية في الظاهر وهي تسعى لهم الخلافة العثمانية في الباطن . حتى اتقدت شرارة الخلاف سافرة أمام رفض السلطان عبد الحميد الموافقة على إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين حين قدم السلطان المؤمن عرشه ليكون الثمن ، وقد كان هذا معروفاً بحقيقته لمثقفى الأمة العربية أمثال الأمير شكيب أرسلان والشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ يوسف النبهاني والمؤرخ الأستاذ محمد جميل بيهم وغيرهم من الذين بقي ولاؤهم للدولة العثمانية حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم وما أن تسلم الاتحاد والترقي الحكم حتى انطلقت القصائد والتأييدات ترحيباً بالأحرار والدستوريين أو شماتة في السلطان عبد الحميد أو رثاء له .

هذا شوقي يقول :

سل يلدز ذات القصور	هل جاءها نبأ البـدور
شيخ الملوك وإن تضعضع	في الفـــــــــــــــــــــؤاد وفي الضير
نستغفر المولى لــــــــــــه	والله يعفـــــــــــــــــــــو عن كثير

إلى أن يقول :

عبد الحميد حساب مثلك	في يد الملك الغفور
سدت الثلاثين الطوال	ولسن بـــــــــــــــــالحكم القصير
تنهى وتأمر ما بدا لك	في الكبير وفي الصغير
لا تستشير وفي الحمى	عدد الكواكب من مشير

ثم يشيد بالجيش فيقول :

يا أيها الجيش الذي	لا بالدعي ولا الفخور
يخفى فــــــــــــان ريع الحمى	لفت البرية بالظهور
كالليث يسرف في الفعــــــــــــال	وليس يسرف في الــــــــــــزئير
في مدح أنــــــــــــورك الجريء	وفي نيازيك الجــــــــــــور
يا شوكت الإسلام بل	يا فاتح البلد العــــــــــــير ^(١)

وهذا حافظ إبراهيم يرثي السلطان في قصيدة تفيض حزناً حيث يقول :

لا رعى الله عهدهما من جدود	كيف أمسيت يا ابن عبد الحميد ^(٢)
----------------------------	--

(١) أنور ونيازي وشوكت من كبار قادة الانقلاب . الشوقيات ج١ ص ١٣٦ .

(٢) الجدود جمع جد (بفتح الجيم) وهو الحظ .

فرح المسلمون قبل النصارى
شتموا كلهم وليس من المهمة
خالدا أنت رغم أنف الليالي
فيك قبل السدروز قبل اليهود
أن يشتم السورى في طريقه
في كبار الرجال أهل الخلود

إلى أن يقول :

حاولوا طمس ما صنعت وودوا
ولى الأمر ثلث قرن ينسادي
كلما قامت الصلاة دعا الدا
فاسم هذا الأمير قد كان مقرو
ولكن حافظ إبراهيم سرعان ما انقلب إلى المهجوم على السلطان عبد الحميد في قصيدة
ألقاها في الأربكية في احتفال بعيد الدستور العثماني وذلك بعد عزله بثلاثة شهور يوليو
١٩٠٩ . يقول :

ولم يغن عن عبد الحميد دهاؤه
ولم يخففه عن أعين الحق مخدع
وأصبح في منفاه والجيش دونه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتهم
مضى عهد الاستبداد وانذك صرحه
وهذا شعر يدل على نفاق الشاعر أو على جهله بحقائق الأمور مع الأسف الشديد
وهذا الشاعر أحمد محرم يغلب الوفاء عليه في قصيدته ويرى الناس الذين تزلفوا لعبد
الحميد بالأمس يأكلون لحمه اليوم :

ثوى عائر الآمال يؤنسها الأسى
كأن جلال الملك لم يبد حوله
كأن رؤوس الصيد لم تك خشعا
كأن بنات الشعر لم تغش بابه
إلى أن يقول :

أرى الناس من يقعد به الدهر ينقموا
ألم يك ظل الله في الأمس بيننا

(١) الديوان ج٢ ص ٤٢ .

(٢) الديوان ج٢ ص ٤٨ .

أنظريه قهاراً ونؤذيه مرهقاً
 ألا راحم؟ هل من شفيح؟ أما كفى؟
 أكان يريد السوء بالملك؟ أم يرى
 أكل مآتيه ذنوب؟ أكله
 أكل ذوي التيجان بالعدل قائم؟
 أليس الأولى غشوه أجدر بالأذى
 كفى الليث شراً أن تقل محالبه
 أكل بني الدنيا عدو يفاضبه
 مسرته في أن تزن نوادبه
 عيوب؟ ألا من منصف إذ غاسبه
 أما فيهم من لا تعد مثالبه
 وأولاهم بالشبر من هو جالبه

وأما ولي الدين يكن وهو من حزب الاتحاد والترقي فقد حمل حملة شعواء على
 السلطان عبد الحميد ولا يرى له أي حسنة وقد تقض قصيدة شوقي - الرائية - السابقة -
 على نفس الوزن والقافية جاعلاً كل حسنة ذكرها شوقي للسلطان عبد الحميد سيئة يقول :

هاجتك خالية القصور
 وذكرتك سكان الحمى
 وبكيت بالدمع الغزير
 ولواهب المال الكثير
 حامي الثغور الباسات
 أهدي الفتور لقلبه
 والجنود عارية منا
 خص البطون من الطوى
 بسبات على خشن الثرى
 كانت زهور شبيبة
 كم خلفها من صبيبة
 يترقبون مآبها
 من كان يستحلي الشرور
 لما أديل من السرير
 نذروا النذور لعوده
 وشجتك آفلة البدور
 ونسيت سكان القبرور
 لباعث الدمع الغزير
 ونواهب المال الكثير
 مضيع أهلة الثغور^(١)
 ما باللوايحظ من فتور
 كبها مقصاة الظهور
 دقت فعادات كالسيور^(٢)
 من بعد مضجعهما الوثير
 لهفي على تلك الزهور
 تمت ومن شيوخ كبير
 إن المآب إلى النشور
 يموت من تلك الشرور
 بكاه عبادة السرير
 هيئات يرجع بالنذور

(١) الثغور الأولى أفواه الحسان والثانية البلاد التي على الحدود .

(٢) السيور جمع سير وهو الذي يقدر من الجلا .

أسفوا عليه وإنما أسفوا على المال الدريد^(١)
 طلبوا له عفو الغفور وشذ عن عفو الغفور
 قلص ظلالك راحلاً ودع البريصة في الهجير

أما الشيخ النبهاني^(٢) الذي يمثل رجال الدين المخلصين فلم أجد له قصيدة في هذا الغرض لضياح جميع شعره الذي قاله في غير الأغراض الدينية البحتة - إلا القليل - لأنه أوصى باتلافه . وما يؤكد أن الشيخ النبهاني كان وفياً في ولائه للسلطان عبد الحميد أنني عثرت له على قصيدة يمدح بها أبا الهدى الصيادي وفيها يذم الترك ذمّاً شنيعاً ويتهمهم بالكفر والعداء للعرب مما يدل على أن المقصود هو حزب الاتحاد والترقي الذي ربما يكون قد أخرج الحملة عليه لاعتقاده أن عملية عزل السلطان عبد الحميد ومحبي أخيه محمد رشاد ليست أكثر من عملية داخلية وأن الأوضاع والمفاهيم العثمانية السابقة لم تتغير ولكن يبدو أنه زار الأستانة فوجد أن الأمور قد تغيرت كلياً ولم يعد للسلطان محمد رشاد هيبة وصوله أخيه عبد الحميد فقال مُعْزِضاً بالترك أي الاتحاد والترقي في أثناء مدحه لأبي الهدى الصيادي وكان هجاءه الشنيع للاتحاد والترقي هو في حقيقته مدحاً لأبي الهدى الصيادي الذي أودى ونقي بعد خلع السلطان عبد الحميد . يقول الشيخ النبهاني من قصيدة مطلعها :

تذكر دهرأ بالعقيق تصرماً فواصل سفح الدمع في خده دماً
 وهبت عليه من ربى الشام نسمة فكاد يفيض النفس لـ تنسما
 إلى أن يقول :

ويمت دار الملك أحسب أنها فآلفتها قد أقفرت من ربوعها
 ولم يبق فيها الفضل إلا توهماً^(٣) حوت قوم سوء أسلمو - أي نقوسهم -
 وألفت فيها أمة عريضة ويرى القوم منها أمة الزنج أكرماً
 وما تقموا منا بني العرب خصلة سوى أن خير الخلق لم يك أعجبا

(١) الدريد المكتنز الخلق . المقتدر أو السريع من الدواب والمقصود هنا المال الدريد أي الكثير .

(٢) الشيخ يوسف النبهاني ١٨٤٩-١٩٣٢ ولد في أجزم - فلسطين وتدرج في وظيفة القضاء حتى أصبح رئيساً لمحكمة الحقوق العليا في بيروت كان شاعراً مجيداً ومعروفاً بطول النفس شارك في قضايا عدده من محاربة التبشير النصراني في بيروت وقد شهر بمناجحه النبوية وميوله الصوفية بلغت مؤلفاته ثمانية وستين مؤلفاً وجميعها مطبوع .

(٣) إشارة إلى السلطان عبد الحميد وأنصاره .

(٤) إشارة إلى حزب الاتحاد والترقي .

ولكن حجاب الحق قد أعمى قلوبهم فلم ينظرونا من وراء حجب العمى
بنو اللؤم إني ما تكلمت هاجياً ولكن قلبي من جفامكم تكلم
ولو لم يكن قصدي مديح أبي الهدى لجرعتكم لـو ذقت المهجـو علما

فإني على رأي لزوم هجاءكم أرى المدح في فرع النبوة ألزماً^(١)
كل هذا يجعلني أجزم بوجود قصيدة للشيخ يوسف النبهاني توضح موقفه من خلع
السلطان عبد الحميد^(٢).

وأخيراً يتضح أن شخصية السلطان عبد الحميد لم تتم دراستها على حقيقتها^(٣) حتى
الآن ذلك أن الدعاية المضادة التي بثها حزب الاتحاد والترقي والجهات الأخرى لأهداف
دينية وسياسية صورت السلطان عبد الحميد بالطاغية وصاحب الممذات بالإضافة إلى أن
المصادر الأصلية لدراسته قد ملكها الاتحاديون فزيفوها أو أتلّفوها وما كان منها في البلاد
العثمانية قد استولى عليها الاستعمار البريطاني أو الفرنسي أو الإيطالي الحاكم الجديد ونقلها
إلى جامعاته ومعاهده . أما عن الدعاية المضادة فيقول الجنرال جواد رفعت أتلخان ...
وأدى هذا الرفض - إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين - إلى إثارة دعاية يهودية
عالمية ضد الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية متخذة من الافتراءات والأكاذيب سلاحاً لها
وكانت هذه الأكاذيب والافتراءات من القوة بحيث لا يمكن للإنسان أن يقف أمام تيارها
الجارف ... وكانت تتضمن أمثال هذه الكلمات « لا حرية في الدولة العثمانية »
« الاستبداد يحيم عليها » « السلطان يفتك بالعناصر المثقفة ويرميهم من نوافذ القصر إلى
البحر » .

يقول الجنرال جواد رفعت أتلخان وهو أحد أبطال الجيش التركي في حرب البلقان
والقرم « ... وفي الواقع أن جمعية الاتحاد والترقي التي خلعت السلطان عبد الحميد عن
عرشه هي التي أقامت الاستبداد بعد ذلك وشهدت البلاد من المآسي ما لم تشهده خلال

(١) فرع النبوة «أبو الهدى الصيادي» لأنه من العترة النبوية الطاهرة . عثرت على هذه القصيدة لدى الأستاذ أكرم
زعيتر سفير الأردن في بيروت وقد اجتمعت به في شهر ديسمبر ١٩٧٤ في بيته وقد حصل عليها الأستاذ زعيتر من
الشيخ عبد الهادي عبد الهادي راوية شعر الشيخ النبهاني وأستاذ السفير الأردني المذكور .

(٢) وقصائد مثلها لرجال الدين في العالم الإسلامي خصوصاً بعد أن افتضح عباء رجال الانقلاب للإسلام .

(٣) راجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج٢ ص ٩٦-٩٧ الهامشي .

ثلاثة وثلاثين سنة من حكم السلطان ولفظ مواطنون مخلصون كثيرون أنفاسهم الأخيرة على أعواد المشاق التي نصبت في مختلف أنحاء البلاد . المصيبة الحقيقية الكبرى هي وقوع إدارة الحاكم تحت تأثير النفوذ الماسوني اليهودي وكأن الأرض قد انشقت مرة واحدة عن مستعمرات يهودية ذوات أبنية شاهقة من مناطق حيفة ويافة والرملة والكرمل وهكذا نرى أن أسس إسرائيل قد أرسيت بأيدينا وإن طلعت باشا (مأمور البريد السابق) رئيس وزراء الحكومة العثمانية المسكين لم يكن على علم بخفايا الأمور لأنه كبقية الغافلين كان قد صدق المزاعم الماسونية التي تتغنى بالحرية والمساواة والإخاء البشري والسلام العالمي ولقد انهارت الدولة العثمانية ولفظ طلعت أنفاسه الأخيرة غريباً في بلاد أجنبية برصاص الماسونية اليهودية^(١) .

هذا وقد أشارت المجلة الانجليزية التي نشرت نص رسالة السلطان عبد الحميد إلى شيخه أبي الشامات أشارت إلى مصادر دراسة السلطان عبد الحميد وما دار حولها من شبهاً وأخيراً يقول الأستاذ محمد الفرجاني :

« وليس أبلغ ما رثى به السلطان عبد الحميد بما رواه المجاهد التركي المغفور له جواد رفعت أتلخان من أنه بعد اندحار الجيوش العثمانية في كافة الجبهات وانقراض جمعية الاتحاد والترقي زار القائد جمال باشا أنور باشا في داره الكائنة في أورطة كوى في استانبول وكان جميع رفاقه قد هربوا - وتذكروا معاً في الهزائم وحللا أسباب هذه الاندحارات فقال وزير حربية الاتحاديين - أنور باشا - وقائد جيوشهم موجهاً كلامه إلى زائريه « أتعرفون ما هو ذنبنا الحقيقي ...؟ لقد كان ذنبنا أننا لم نقدر السلطان عبد الحميد حق قدره فأصبحنا آلة بيد الصهيونية واستثمرتنا الماسونية ... هذا فظيع جداً ولكنه في الواقع مع كل أسف كنا ألعوبة في أيدي اليهودية العالمية »^(٢)

الحركة العربية الحديثة :

عندما بُعث الرسول ﷺ إلى كافة الشعوب وهو آخر الرسل كان من الطبيعي ألا يفاضل بينها إلا بمقدار ما تستجيب لهذه الدعوة ممثلة لها بأفعالها وأقوالها والآيات

(١) أسرار الماسونية ص ٥٨-٦٠ .

(٢) الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص ١٢٠ .

والأحاديث في هذا الخصوص كثيرة منها قوله تعالى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَامُ﴾^(١) وقد كانت الشعوب راضية بتساويها أمام هذا الدين ولما بدأت السياسة العربية تظهر واضحة في أواخر العصر الأموي وقف الفرس إلى جانب العباسيين للإطاحة بالأمويين وأخذت الشعوبية تظهر بشكل واضح على لسان شعرائها وأدبائها ممجدة لشعوبها في الظاهر نابذة للإسلام في الباطن^(٢).

وقد كان الفرس يطلقون لفظ العرب على كل من يدخل الإسلام منهم .

يقول الدكتور عبد العزيز الدوري « إن الفتوحات نشرت السيادة للعرب وفتحت أبواب المعمورة أمام التدفق العربي ولم تكن الشعوب المغلوبة تميز في البدء بين العربية والإسلام في هذا التوسع بل بقي المفهومان مترادفين لديها خلال القرنين الأولين حتى إن الداخلين في الإسلام من الشعوب الأخرى اعتبروا (عرباً) في نظر من بقي على دينه منهم ويبدو أن العرب أنفسهم كانت لديهم أو لدى أكثرهم مثل هذه النظرة^(٣) »

كما أورد الطبري أن «أشريس بن عبد الله السلمي» - أمير خراسان وما وراء النهر - وعد بإعفاء من يسلم من الضريبة فأقبل الكثيرون على دخول الإسلام فشكا دهاقين بخاري إلى الأمير فقالوا « ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً »^(٤).

من هذا نفهم أن المفهوم الأول للعروبة والإسلام شيء واحد . فمن أسلم من غير العرب فهو في طريقه لأن يصبح عربياً بقرأة القرآن والعلوم الإسلامية المكتوبة بلغة العرب وفي العصر الحديث انضم العرب للحكم العثماني ولم يروا غشاضة في ذلك لأن السلاطين العثمانيين لم يفرقوا بين رعاياهم خصوصاً العرب الذين هم معدن الإسلام الذي باسمه تخضع الشعوب الإسلامية للسلطنة العثمانية وقد كان العرب يتميزون بنوع من التقديس والاحترام لدى السلاطين وقد لاحظنا ذلك لدى السلطان عبد الحميد . ولأن العرب كانوا يفاخرون بأنهم عثمانيون كما أنهم عرب^(٥).

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) راجع مجلة العربي عدد ٥٤ ص ٩٨-١٠٠ مقال بقلم أنعام الجندي بعنوان شعوبية ابن المقفع .

(٣) الجنود التاريخية للقومية العربية ص ١٧ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٩٨ راجع أيضاً حول الحركة العربية الحديثة للأستاذ محمد عزة دروزة ج ١ ص ١١-١٤ .

(٥) راجع مذكرات أحمد الشقيري «حوار وأسرار» .

وقد تبدلت الأمور منذ أن بدا الترك يفاخرون بطورانياتهم حيث استيقظ العرب يفاخرون بمجدهم القديم وأن الرسول ﷺ عربي والقرآن الكريم بلغة العرب إذن لا يفضلهم غيرهم من الشعوب . وقد كانت هذه بداية الوعي العربي الذي عرف فيما بعد بالوعي القومي .

أما الدعوة الطورانية التي أعلنها حزب الاتحاد والترقي - بعد أن أطاح بالسلطان عبد الحميد فقد كان مدفوعاً من قبل الماسونية اليهودية الهادفة إلى تفتيت دولة الخلافة العثمانية عن طريق إثارة القومية الطورانية مما يؤدي إلى ثورة القوميات الأخرى التي لم يعد شيء يربطها بدولة الخلافة بعد أن أعلنت انخيازها لأصلها الطوراني وتميزها عن شعوبها .

ومن جهة أخرى أخذت الدول الأوروبية تساعد هذه القوميات على الاستقلال لإضعاف الدولة العثمانية تمهيداً لتنفيذ أطماعها في الاستيلاء على أجزاء منها مدفوعة بدوافع نفسية صليبية أظهرها قوادها العسكريون عندما دخلوا القدس ودمشق .

هذا وقد ظهرت الروح القومية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقريباً وقد كانت تتخذ شكل المناداة بالاصلاحات الداخلية أو الحكم اللامركزي ضمن الإطار العثماني العام ولم يكن أحد يجاهر بالانفصال عن دولة الخلافة قبل اعلان سياسة التتريك من قبل حزب الاتحاد والترقي مما أدى إلى نشوء (الحزب الائتلافي) مكوّناً من العناصر غير التركية ومنهم العرب وانضم إليهم بعض الترك من خصوم الاتحاديين^(١) فتولدت لدى السلطنة العثمانية مشكلتان :

الأولى : هي ثورة العناصر العثمانية مطالبة باستقلالها مثل الكرد والألبان والعرب والعناصر المسيحية من البلغار والأرمن واليونان كما قامت النمسة واحتلت الهرسك والبوسنة واحتلت اليونان جزيرة كريت واحتلت إيطاليا ليبيا وأطلقت يد فرنسا في مراكش بعد إرضاء المانية باعطائها بلاداً أخرى في إفريقيا^(٢) .

(١) قوافل العروبة ومواكبها محمد جميل بيهم ص ٢٠-٢١ ج ٢ .

(٢) فلسفة التاريخ العثماني ج ٢ ص ١٨٩ يقول الأستاذ بيهم في مقابلة أجريتها معه في بيته في ١٥/١٠/١٩٧٥ «أنشئت القومية العربية للتفريق بين العرب والأتراك وكانوا يسلكون كل السبل إلى هذا الهدف ومنها التفريق بين العناصر العثمانية والأتراك الحاكمين وقد كان هذا مسهلاً للدعائيات الأجنبية التي كانت تدعو بصورة سرية للتفريق بين العناصر العثمانية » .

والثانية : هي شروع الاتحاديين في العمل على جمع شمل الأتراك حولهم حيث كانوا في روسية ويوغسلافية والمجر وبلغارية وغيرها فأثاروا بذلك حفائظ الدول ذوات العلاقة بالموضوع وقد ساعدت هذه المشاكل الحزب الائتلافي لاستلام مقاليد الحكم وعهد إلى كامل باشا تأليف الوزارة وهو من رجال السلطان عبد الحميد غير أن هذا العهد كان قصيراً إذ سرعان ما أسقطت الحكومة الائتلافية وأبعد الضباط العرب عن البلاد العربية وتدخلوا في انتخاب المجلس النيابي سنة ١٩١٣ حيث لم يتمكنوا العرب من ارسال أكثر من خمسين نائباً بدلاً من سبعين ومنذ هذه اللحظة أصبح العرب يطلبون الاستقلال التام بعد أن كانوا يطلبون الإصلاح واللامركزية ضمن نطاق السلطنة^(١) وتولد فراغ لظهور الحركة العربية الاستقلالية ولكنه سرعان ما نشبت الحرب العالمية الأولى فوجد الاتحاديون دولتهم بحاجة إلى رعاياها من كل الشعوب فأخذوا ينادون بالخلافة الإسلامية والجهاد المقدس وأخذت جريدة الشرق^(٢) التي تصدر في دمشق وهي لسان حالهم في البلاد العربية تنشر لجمال باشا قائد الجيش الرابع في الشام أقواله التي يصرح بها أن لا فرق في نظر الإسلام بين تركي وكردية وعربي وتلوح باستقلال الشرق ولكن هذه الدعوة لم تلق صدى لدى المسلمين لأن تركية كانت تحارب إلى جانب المانية وربما لأن خلع السلطان عبد الحميد ترك مكانه شاغراً في قلوب المسلمين الذين استطاع أن يستلهم مشاعرهم نحو الجامعة الإسلامية .

كان النصر في سني الحرب الأولى إلى جانب المانية وتركية فأيقن الاتحاديون أن النصر النهائي سيكون من نصيبهم فكشفوا عن دخالهم وإذا بجمال باشا ينقلب على العرب انقلاب غيره من الولاة والقادة على بقية الرعايا في الولايات الأخرى وإذا بالحكومة الاتحادية تستأنف نشاطها أيضاً في الدعوة الطورانية^(٣) بشكل جدي ولكن الكلمة الأخيرة كانت للحرب حتى إذا خسرت تركية الحرب خسرت كل شيء واحتلت الآستانة من قبل الانجليز عام ١٩١٨ .

(١) قوافل العروبة ومواكبها ج٢ ص ٢٢ .

(٢) قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور ج٢ ص ٢٥ .

(٣) يقول الأستاذ المؤرخ محمد عزة دروزة في مقابلة معه في بيته في دمشق في ١٩٧٤/٢/١٥ « وما كان السلطان عبد الحميد يفرق بين العرب والأتراك فالظلم عام والجهل عام والأتراك خلافاً للفرس لم يكن لهم فكرة تدمير العرب ولا تدمير الإسلام تسلطهم ليس كسلط الفرس سلوك الأتراك مع العرب سلوك أصدقاء وسلوك الفرس سلوك أعداء » .

وليكن معلوماً أننا إذا كنا قد بدأنا الكلام عن الحركات العربية الحديثة منذ سقوط عبد الحميد وإعلان سياسة التتريك من قبل الاتحاديين فنحن لا ننكر وجود أوليات لهذه الحركة كما لا يعقل أن تكون قد انطلقت من الصفر بل كان لهذه الحركة جذور غزتها وساعدت على تكوينها فاتخذت طابع الوعي والتنبيه فنذ القرن الثامن عشر اتخذت اتجاهاً إسلامياً ينادي بإصلاح المجتمع وبالعودة إلى الإسلام وقد تمثل هذا الاتجاه في الدعوة الوهابية وفي القرن التاسع عشر أخذت مظهر «التجديد» وذلك بتوضيح الإسلام بروح عصرية والاستفادة من المدنية الغربية وبالتالي اتخذت طابع الحركة القومية المعروفة وكانت حركة الشيخ محمد عبده إصلاحية تدعو إلى استعمال الاجتهاد والفكر مع التأكيد على التراث^(١) وقد كان الاهتمام باللغة العربية الفصحى ظاهراً في هذا الاتجاه فابن تيمية^(٢) قديماً دعا لجعل العربية لغة المسلمين ويرى في تعدد اللغات نكوساً ومحمد عبده حديثاً دافع عن العربية الفصحى في اللهجات المحلية ضد توسع اللغات الأجنبية وأكدت هذه الحركة على دور العرب في التاريخ ودعت إلى تجديده وقد لاحظ محمد عبده ورشيد رضا أن العرب هم الشعب البارز بين الشعوب الإسلامية لذا هم أفضل هذه الشعوب للقيادة ولإعادة الإسلام لمكانته فالثقافة العربية ضرورية لنهضة الإسلام ويأتي دور الكواكبي في إبراز دور العرب التاريخي في المدينة وركز على عرب الجزيرة بالذات فهم أعرق الأمم في أصول الشورى وفي الشؤون العمومية وهم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية كما دعا إلى نهضة اجتماعية سياسية وحمل حملة شعواء على ظلم العثمانيين ودعا إلى خلافة عربية^(٣) ويتخذ الكواكبي في دعوته نبرة «قومية» مبكرة حين يقول «أيها العرب المسلمون إن أنكر المنكرات بعد الكفر هو الظلم فأنهوا عن المنكر إن كنتم مؤمنين وأنتم أيها العرب من غير المسلمين أدعوكم إلى تناسي الأحقاد وأجلكم عن ألا تهتدوا إلى وسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم أمريكا قد هداها العلم إلى الاتحاد الوطني دون الديني فما بالنا نحن لا نفكر في أن تتبع إحدى تلك الطرائق فيقول علمائنا لمثيري الشحنة من الأعاجم والأجانب بيننا دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا دعونا نجتمع على كلمة سواء ألا

(١) يقول فيليب حتى في كتابه «تاريخ العرب المطول» : « وكان محمد عبده لا يرى تناقضاً أساسياً بين الإسلام والعلم الحديث ولقد فسر بعض الآيات تفسيراً عقلياً أدرك قصور المدرسة الإسلامية : وقد ساهم كلاهما محمد عبده والأقفاقي أكثر من أي كاتب عصري في تمزيق ثوب المحافظة والرجعية الذي التف به الإسلام منذ العصور الوسطى وهو أول من هاجم بعنف تعدد الزوجات والطلاق والحجاب ص ٨٨٧-٨٨٨ .

(٢) الصراع بين الموالى والعرب محمد بديع شريف ص ١٢٢-١٤٥ .

(٣) كتاب أم القرى للكواكبي ص ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٨ .

وهي فلتحيا الأمة فليحيا الوطن ولنحيا طلقاء أعزة^(١) . وهو يجاهر بالاستقلال اللامركزي في قوله « من أم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي إداري يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم » وفي أقوال الكواكي دلالة على تدخل الأجانب في شؤون العرب الداخلية وفيها تهديد للدعوات اللامركزية ثم الاستقلالية عن الدولة العثمانية^(٢) كل هذا كان وعياً عربياً خالصاً وجاءت حملة نابليون في النصف الأول من القرن التاسع عشر تحمل معها الفارق الحضاري بين أوروبا الحديثة والشرق «العرب» المتأخر أضف إليها الإرساليات التبشيرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كل هذا أدى إلى تغلغل الأفكار والعادات الغربية وبالتالي فرضت السيطرة الغربية فرضاً وفي هذا تبدو المفارقة بين الوعي العربي والوعي القومي ثم الحركة القومية^(٣) .

يقول الدكتور فيليب حتى «كان في حياة الشعوب العربية في هذا الزمن شيء من التناقض الظاهر فقد كانوا يصدون تدخل الأوروبيين في شؤون بلادهم بيد ويتقبلون الأفكار الجديدة الكثيرة التي استوردوها من أوروبا فكرتا القومية العربية والديمقراطية السياسية^(٤) .

ويقول الأستاذ محمد جليل يهم في مقابلة معه في ١٩٧٥/١/١٥ : « ... الدول الأجنبية بواسطة مؤسساتها أسهمت في إنشاء القومية العربية^(٥) .

ويقول الدكتور فيليب حتى « وقد بدأت حركة القومية العربية أول الأمر كحركة فكرية صرفة كان دعائها الأول بالأكثر المفكرين السوريين وبنوع خاص اللبنانيين المسيحيين الذين تعلموا في جامعة بيروت الأمريكية وعملوا في مصر^(٦) هكذا نشأت الحركة القومية بمجذور ثقافية وطابع ثقافي متميز ثم اتجهت إلى ناحية سياسية كانت البدايات في الانتباه إلى الإرث الثقافي والاعتزاز بدور العرب الحضاري وفي التركيز على اللغة العربية فقد كان للمطابع الموجودة في سوريا ومصر دوراً إيجابياً في نشر بعض كتب التراث كما أن

(١) طبائع الاستبداد للكواكي تقرأ عن الجنود التاريخية للقومية العربية ص ٥٩-٦٠ .

(٢) راجع كتاب حول الحركة العربية الحديثة محمد عزة دروزة ج ١ ص ٨-٥ قد ألقى أعضاء على هذه الفكرة .

(٣) تاريخ العرب مطول ص ٨٨٧ .

(٤) راجع أيضاً كتاب حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ص ٤-٥ فيه توضيح وريط بين الحركة القومية العربية والتركية والأوروبية .

(٥) تاريخ العرب مطول ص ٨٨٩ .

دور الثقافة واللغة العربية كبير في تكوين الأمة وفي تراثها تجد شخصيتها التاريخية وقد تمثل النشاط الثقافي في الجمعيات الأولى التي تأسست في البلاد العربية كالجمعية العلمية السورية التي تأسست في بيروت سنة ١٨٥٧ والحلقة الثقافية في دمشق حول الشيخ طاهر الجزائري في أواخر القرن التاسع عشر وأثمرت في جمعية النهضة العربية ١٩٠٦ . كل هذه جمعيات ثقافية في أساسها ثم ثقافية سياسية فقد ضمت الجمعية العلمية السورية أعضاءها من مختلف الطوائف الدينية^(١).

وكانت حلقات دمشق تدعو إلى دراسة تاريخ العرب وقواعد العربية وآدابها وكذلك النهضة السورية أولت هذا الاهتمام الثقافي نفسه لنهضتها مع إثارة الهمم لتحرير الأمة العربية . ومن أوليات فكرة الخلافة العربية ما صرح به أحد أقطاب جمعية النهضة العربية - الأستاذ محب الدين الخطيب - إذ يقول « ليس بين الأتراك فيما أحسب من لا يعلم أن الأمة التركية ما علت إلا على آثار الأمة العربية وما شيدت من دعائم ملكها وما وطدت من أسسه إلا على أبقاضها وهم يخشون أن تسرى فكرة الخلافة العربية فتتسرب في فكر الكبير والصغير ومن ثم تقوم الأمور بعضها على بعض وهناك الطامة الكبرى »^(٢).

وفي هذا تحول في أغراض الجمعيات الثقافية إلى أغراض وأهداف سياسية وكان التأكيد على اللغة العربية من أهم مطالب هذه الجمعيات لمواجهة انتشار الإرساليات التي كلفت ألا تدخر جهداً في تعليم اللغات الأجنبية وبعد سياسة التتريك زاد التأكيد على أهمية اللغة العربية قومياً حيث يقول أحد أعضاء جمعية النهضة العربية « ولقد ثبت بالاختبار أن الرجل إذا أخذ بنصيب من العلم بغير لغته لأمته لا يرجى منه في الأعم الأغلب من أحواله أي خير لقومه ولا بدع فاللغة من الذرائع الكافية لتقويم الحياة القومية » ويقول أيضاً « وبعد : فإن العناية بغير لغتنا والاضراب عن لغة آبائنا هو الذي سبب لنا هذا العجز الكبير في ميزان التقدم وإن هو إلا نتيجة سوء التربية والتعليم »^(٣).

وكان التأكيد على الدور التاريخي للعرب من أهم مظاهر الوعي القومي خصوصاً في الحقبة بين ظهور الإسلام وسقوط بغداد وقد كان للفوضى والتأخر في الدولة أثر في

(١) القومية العربية مصطفى الشهابي ص ٤٦-٤٧ .

(٢) محب الدين الخطيب - الدكتور صلاح الدين القاسمي ص ٧٤ .

(٣) محب الدين الخطيب الدكتور صلاح الدين القاسمي ص ٤٥-٤٦ .

مقاومة السلطان عبد الحميد من قبل هذه الجمعيات^(١) ثم الموجات الغربية الهادفة للنيل من رسالة العرب القومية وتدخل الدول الغربية في الشؤون العربية كل هذا كان له أثر في تعميق الوعي القومي . ويبدو أن السلطان عبد الحميد بذكائه ودهائه شعر بقوة هذا الوعي فأخذ يقرب العناصر العربية ويوليها المناصب الهامة في الدولة في محاولة لصد هذا الشعور ولأن العرب أقوى عناصر الدول العثمانية من جهة الخلافة الإسلامية . وقد تجلت الدعوة القومية الانفصالية في أجلى صورها في المنشور الذي أصدرته الجمعية الوطنية السورية في باريس سنة ١٩٠٥ موجهاً إلى الدول العظمى جاء فيه « أن العرب الذين تحكم فيهم الأتراك بتفريقهم على مسائل ثانوية تتصل بالعقيدة والشعائر أصبحوا داعين لوحدهم القومية والتاريخية والعنصرية يرغبون في الانفصال عن الشجرة العثمانية النخرة لإقامة دولة مستقلة لأنفسهم وستمند حدود هذه الامبراطورية العربية الجديدة إلى حدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر الأبيض المتوسط إلى بحر عمان وستحكمها حكومة دستورية حرة على رأسها سلطان عربي^(٢) .

وأخيراً نجح حزب الاتحاد والترقي - وكان من أعضائه بعض دعاة الإصلاح من العرب^(٣) - في التخلص من السلطان عبد الحميد وأعيد اعلان الدستور وتوهم العرب أن عهد الحرية والازدهار تحت الراية العثمانية قد جاء واعتقدوا أن الوقت حان ليحقق العرب ذاتهم ويرفعوا كياناتهم^(٤) في أن الدستور يفرض صهر العناصر المختلفة في بوتقة عثمانية لغتها التركية وهذا يهيم الكيان الثقافي والقومي^(٥) .

ولذلك جوهت الحركة القومية بتحد وإصرار خصوصاً بعد خلع السلطان عبد الحميد وسيطرة الاتحاديين سيطرة مطلقة مما أدى إلى أن تعمل بعض الجمعيات جهراً وهي معتدلة وبعضها تعمل سراً وهي أقرب للتعبير عن النوايا الحقيقية فن الجمعيات الناشئة بعد اعلان الدستور جمعية المنتدى الأدبي في الأستانة^(٦) وحزب اللامركزية الإدارية العثمانية شكلته الجالية السورية في مصر ١٩١٢ وقامت جمعية بيروت الاصلاحية في أواخر

(١) راجع فلسفة التاريخ العثماني محمد ييهم ص ١٧٢ ج ٢ .

(٢) الجنود التاريخية للقومية العربية ص ٧٠ .

(٣) راجع مجلة المنار ج ١٢ ص ٩١٢-٩١٩ .

(٤) عجب الدين الخطيب ص ٣٦-٤٠ .

(٥) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة محمد رفعت ص ٩٤ .

(٦) كتاب (المؤتمر العربي الأول) ص ٩-١٠ القاهرة ١٩١٢ .

سنة ١٩١٢ . هذه الجمعيات علنية كانت تنادي باللامركزية وعدم الانفصال عن الدولة العثمانية . أما الجمعيات السرية أهمها الجمعية القحطانية تأسست في الأستانة سنة ١٩١٥ والجمعية العربية الفتاة ١٩٠٩ وتأسست جمعية العهد سنة ١٩١٢ وهي جمعية عسكرية وكانت تنادي بالاستقلال التام والعمل على الوصول باللغة العربية إلى مصافي الأمم المتدنة وكان رأي الجمعيات السرية هو الرأي السائد للعرب وقت الحرب .

ثم دعت الجمعية العربية الفتاة إلى عقد مؤتمر وجهت الهيئة التحضيرية المؤتمر منشور جاء فيه «دعوة إلى أبناء الأمة العربية المنتشرة في أقطار الأرض تحت كلمة التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الأمة حيث نبسط للأمم الأوروبية أننا أمة متمسكة ذات وجود لا ينحل ومقام عزيز لا ينال وخصائص قومية لا تنزع ... ونصاح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا»^(١) . وكانت الاستجابة سريعة وعقد المؤتمر العربي الأول في ١٨ حزيران ١٩١٣ . وكان في قراره تأكيداً لحقوق العرب السياسية وأسماهم الفعالة في إدارة الامبراطورية والنص على جعل اللغة العربية اللغة الرسمية في البلاد . وفي محاضر جلسات المؤتمر تظهر لنا القومية العربية بخصائصها المميزة .

قال عبد الغني العريسي « إن العرب تجمعهم وحدة لغة ووحدة عنصر ووحدة تاريخ ووحدة عادات ووحدة مطمع سياسي »^(٢) وهنا نلاحظ استبعاد العقيدة والدين من حيث هو رابطة قوية عربية وإسلامية . قال الشيخ عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر حين سأله مراسل الطان الفرنسية فقال « هل أنتم تريدون الوحدة العثمانية لأجل الرابطة الدينية؟ » فأجاب « إن الرابطة الدينية قد عجزت عن إيجاد الوحدة السياسية فنحن لا تمسك بالوحدة السياسية لأجل الرابطة الدينية بل رغبة منا في إيجاد مجموع عثماني قوي يرتقي فيه مجموعنا العربي بدون حائل في طريقه وأملأ في قيام حكومة رشيدة تكون لنا مشاركة في أمورها »^(٣) . ثم جرت مفاوضات مع الاتحاديين ووعدوا بالاستجابة لأهم المطالب ثم سوفوا والتزموا بقدر ضئيل منها ثم أعقبه اضطهاد صارم لكل القوميين كل هذا أدى إلى صقل الفكرة الاستقلالية واتخاذ الحركة القومية طابعاً استقلالياً تحررياً

(١) راجع كتاب الوحدة العربية محمد عزة دروزة ص ١١٩ ، القومية العربية للشهابي ص ٧٠-٧١ ، الثورة العربية الكبرى

أمين سعيد ج ١ ص ٨-٩ .

(٢) كتاب المؤتمر العربي الأول ص ٩-١٠ القاهرة ١٩١٤ .

(٣) كتاب المؤتمر العربي الأول ص ١٨-١٩ .

كل هذه كانت ارهاصات^(١) تهيء لثورة عربية فكانت ثورة الشريف حسين التجسيد العملي لآمالها ونواياها فما أن أصبحت تركية شريكاً في الحرب إلى جانب المانية ضد الحلفاء حتى أوقف الوطنيون العرب كل نشاط لهم ضدها .

يقول الأستاذ محمد رفعت « أما الوطنيون العرب فقد استلهموا موقفهم عند نشوب الحرب من صادق وطنيتهم وما كانت تمليه عليهم الحكمة السياسية والظروف الدولية . وكان أول استجابة منهم لنداء الوطنية أن أوقفوا نشاطهم السياسي ضد تركية ما دام الأتراك يحاربون ضد الغرب والاستعمار ذلك إلى أن يستبين لهم الطريق السوي وأكثر من ذلك أن جمعياتهم السرية قد أخطرت أعضائها عند إندلاع نيران الحرب بأن عليهم أن يغاونوا تركية في محنتها ضد الغرب^(٢) . وهو الموقف نفسه الذي وقفه الشريف حسين أيضاً فهو على الرغم من سوء العلاقة بينه وبين حكومة الاتحاد والترقي التي كان يتوقع منها عزله كما صرح ولده وسفيره المتجول الأمير عبد الله^(٣) وعلى الرغم من المفاوضات الجارية له مع الانجليز عن طريق ولده المذكور مع «السير رونالد ستورز» السكرتير الشرقي بدار المندوب السامي البريطاني في مصر أثناء لعبة الشطرنج ثم المفاوضات الرسمية بالكتابة بعد دخول تركية الحرب مع السير هنري مكاهون المندوب السامي البريطاني في مصر التي أصبح بموجبها ملكاً على الجزيرة العربية والعراق وسوريا مع بعض الاستثناءات ومع هذا لم يسارع الشريف حسين لإعلان الثورة على تركية بل بقي يناور ويداور ، بل أرسل العلم النبوي الشريف في صحبة بعثة شرفية سافرت إلى دمشق حيث استقبلها أحمد جمال باشا ورجال الحكومة بالتكبير والتهليل وجثا جمال باشا أمام البيرق النبوي مقبلاً طرفه وقام حامل البيرق من الأسرة الهاشمية يدعو للجيش التركي ويباركه قبل رحيل الجيش لغزو مصر عام ١٩١٥ حتى إذا قامت الحملة على مصر بقيادة جمال باشا يساعده القلند الألماني كونشتين وفشلت الحملة في هجومها في ٢-٣ فبراير ١٩١٥ وعاد جمال باشا إلى سورية مهزوماً وحكم على أحد عشر من زعماء وجهاء البلاد بالاعدام في مارس وأغسطس سنة ١٩١٥ حيث غثر جمال باشا على الأوراق التي يطلب هؤلاء فيها وضع سورية تحت الحكم الفرنسي والذي أرشده إليها هو « فيليب زلزل » ترجمان القنصلية

(١) الارهاص الاثبات ارهص الشيء إذا أثبتته وأسهه .

(٢) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ص ١٠٤-١٠٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٠ .

الفرنسية في بيروت والذين ذهبوا ضحية بريئة وشنقوا ظمأً ثلاثة فقط هم شكري العسلي وعبد الوهاب الانجليزي وعبد الغني العريسي ويروى أن يوسف الهاني عندما صعد جبل المشنقة هتف وقال « أموت في حب فرنسا والوطن »^(١). ولعل هذا أن يكون من قبيل ما حدث في تركيا كما يقول الأستاذ دروزة « ... وكان هناك بعض الرجال والنساء يرون الخلاص الحقيقي في الانتداب الأمريكي والحصول عليه اعتقاداً منهم بأن البلاد في حاجة إلى مساعدة علمية واقتصادية لن يجدها نزعاً إلا في أمريكا كما كانوا يعتقدون أن مثل هذا الانتداب قد يحفظ للدولة وحدتها وكيانها^(٢) ».

وفي إبريل ١٩١٦ زحف الأتراك على قناة السويس مرة أخرى بقيادة الضباط الألمان بجيش عدده ١٨٠٠٠ جندي قابلهم الانجليز بجيش عدده ٣٠,٠٠٠ جندي فانهمز الأتراك وكانت آخر محاولتهم .

وفي مايو ١٩١٦ أعدم واحد وعشرون آخرون حتى إذا علم الشريف حسين أن جيشاً تركياً متألفاً من ٣٥٠٠ جندي على وشك أن يخترق شبه الجزيرة العربية لتهدة الحال في اليمن عندها أوجس الشريف حسين خيفة من قدوم الحملة ونادى بالثورة على الأتراك في يونيو ١٩١٦^(٣). من هذا يتضح لنا أن الشريف حسين وقف الموقف نفسه الذي وقفه وطينو الجمعيات العربية وبقي يماطل في اعلان الثورة على الرغم من اتفاقه مع الانجليز على قيامها وهذا يدل على شخصية الشريف حسين وحكته فقد كان رجلاً عنيداً أوتي كثيراً من الحنكة والدراية السياسية وقد أمسك العصا من الوسط مدة طويلة على الرغم من توالي الأحداث متيحاً لنفسه الاستفادة من الطرفين الحلفاء والمحور ولعله انضم إلى الحلفاء تعبيراً عن المشاعر السياسية العربية التي كانت أمام موقفين :

الأول : أن يفتنوا فرصة دخول تركيا الحرب فيساندوها ويطالبوها باستقلالهم بعد الحرب ثناً .

الثاني : أن ينضموا إلى الحلفاء للحصول على الاستقلال إذا كسب الحلفاء الحرب^(٤) .

وقد تحقق الموقف الثاني نتيجة لمواقف الأتراك السابقة في اتجاه القضايا العربية وكان

(١) راجع كتاب الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص١٢٤-١٢٧ وكتاب حياة الشرق لحمد. لطفي جمعة ص٢٢٩-٢٣٠ .

(٢) تركيا الحديثة ص١٤ .

(٣) التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ص١١٧ .

(٤) المصدر السابق ص١٠٤-١٠٥ .

خاتمة هذه المواقف اعلان السياسة الطورانية من قبل الاتحاد والترقي لذلك كان وقوف الشريف حسين إلى جانب الحلفاء تجسيدا للسياسة العربية العصرية على أسس ثقافية واجتماعية أسهمت في تكوينها جهود الحلفاء عن طريق سفاراتهم وبعثاتهم التبشيرية في المنطقة^(١) كما أن القيادة العربية كانت تتطلع إلى حياة أفضل بمساعدة الحلفاء لهم في مختلف المجالات متى كسبوا الحرب .

كل هذا لم يمنع وجود تيار عربي مضاد لثورة الشريف حسين حدد موقفه نتيجة لشعوره الإسلامي اتجاه دولة الخلافة .

فهذا مصطفى كامل يقول « ... ولذلك رأت إنجلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر وأن خير وسيلة تضمن لهم البقاء في مصر ووضع يدهم على وادي النيل هي هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة العثمانية إلى أيدي رجل يكون تحت وصاية الانجليز وبمشابة آلة في أيديهم . ولذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤمنين به استماله العرب لهم حتى يقوموا بالعصيان في وجه الدولة العلية^(٢) .

ويقول شوقي من قصيدة ضجيج الحجيج التي رفعها إلى السلطان عبد الحميد في ١٤ ابريل ١٩٠٤ شاكياً فيها اضطراب الأمن في ربوع الحجاز بسبب تمرد شريف مكة :

ضج الحجيج وضج البيت والحرم	واستصرخت ربهـا في مكة الأمـم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها	خليفة الله أنت السيد الحكم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها	ألشريف عليها أم لك العلم
أدبه أدب أمير المؤمنين فما	في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما	بين البغاة وبين المصطفى رحم
في كل يوم قتال تقشعر له	وفتنـة في ربوع الله تضطرم
من الشريف ومن أعوانه فعلت	نعمى الزيادة ما لا تفعل النقم
عز السبيل إلى طه وترتبه	فن أراد سبيلاً فالطريق دم

إلى أن يقول :

(١) راجع فلسفة التاريخ العثماني ج ٢ ص ٧٦ .

(٢) المسألة الشرقية مصطفى كامل ص ١٩ .

رب الجزيرة أدركها فقد عبثت
أزرى الشريف وأحزاب الشريف بها
فجرد السيف في وقت يفيد به
بها الذئباب وضل الراعي الغنم
وقسموه كإرث الميت واتقسموا
فإن للسيف يوماً ثم ينصرم^(١)

هذا ولا يعقل أن يكون الشريف حسين راضياً عن قطع الطريق على الحجاج وإنما
هو ضعف سلطة الشريف على أطراف الحجاز بالإضافة إلى مبالغات الشعراء .

ويقول حافظ إبراهيم بنىء السلطان عبد الحميد في عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يشير إلى
ما يضره شريف مكة من عصيان :

مني على دار السلام تحيية
وعلى الأولى سكنوا إلى الحسنى سوى
ما للشريف المنتهي حسباً إلى
أسمى عائلته وينصرغيه
والله لو جندنا رمل النقا
وغرستنا أرض الحجاز أسنة
وأقمتنا فيها المعازل منعة
لدهنا ورماكا وذراكا
أن تأتي طوعاً وإلا فأتيا
وعلى الخليفة من بني عثمان
ذاك الذي يدعو إلى العصيان
خير البرية من بني عدنان
وضلاله بختالة العربان
ونزلنا بمواطن العقيان
وأسلتنا بحرماً من النيران
من أرض نجد إلى خليج عمان
ماحى الحصون وماسح البلدان
كرهاً بلا حول ولا سلطان^(٢)

ويقول محرم في قصيدة له في حرب طرابلس سنة ١٩١٢ :

ألا أن من شق العصا لمنهم
ومن كان يأبى أن يوالي إمامه
سيعلم من خان الخليفة أنه
أطاع هواه واستزلته فتنة
له الويل ماذا هاج من نزواته
تباركت ربي كيف يعصيك مسلم
وإن الذي يبغى الفساد لآثم
طواعية والاه والأنف راغم
مواقع أمر سره متفناقم
عضوض تلوى في لهاها الأراقم
قثار يرامي ربه ويراجم
فيوقع بالإسلام ما أنت عالم

(١) الشوقيات ج١ ص ٢٦٢-٢٦٦ .

(٢) الديوان ج١ ص ٤٩ .

تباركت إن المسلمين كما ترى تقاريرق منها مستطير ورازم^(١)

ويقول الكاشف من قصيدة قالها في عيد الدستور العثماني :

ما أختص أحمد في الخلافة أمة علماً بأن الدائرات تدور
أولى بها من صانها من بعد ما عبثت مقادير بها وعصور^(٢)
ويقول من قصيدة أخرى هيء الخديوي إثر عودته من الديار الحجازية حاجاً سنة
: ١٩١٠

يا ناصر الإسلام كيف مكانه من عرب تلك البيد وهو العادل
أينازعون على الخلافة قادة لولاهم غال الخلافة غائل
الله قدرها لهم وأعزهم ما دام فيهم قانت ومقاتل
فليسكن العرب الكرام إليهم ولير بأن بنفسه المتطاول
هل يفقدها والخطوب جلائل من لم يصنها والخطوب قلائل^(٣)

ولعل في هجمات كرومر الدائمة على المسلمين في بعض تقاريره وفي كتابيه الذين
ظهرأ بعد مغادرته مصر «مصر الحديثة» و«عباس الثاني» وتصويرهم في صورة المممج
المتخلفين ومهاجمة الإسلام وتصويره ديناً رجعيأ لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام
اجتماعي راق^(٤) كل هذا قد مكن كراهية الانجليز في قلوب المسلمين خصوصاً في مصر التي
اكتوى شعبها بالاحتلال الانجليزي ، ولذلك لم تجد ثورة الشريف حسين تأييداً لها في
مصر كما وجدته في بلاد الشام وربما كان ذلك لأن مصر لم تكن تحت الحكم العثماني مباشرة
بل خرجت منه منذ زمن بعيد أو لأن المصريين بقوا على فطرتهم وإيمانهم حيث لم تنشط
بينهم المدارس التبشيرية ومؤثرات الحضارة الغربية ليستسيغوا الوقوف ضد الدولة
العثمانية في جانب دولة أجنبية بالإضافة إلى المشائق التي نصبت لوجهاء البلاد في الشام
على يد الوالي العثماني أحمد جمال باشا مما أوغر الصدور وجعلهم أحوج الناس ليمدوا أيديهم
لكل من ينقذهم . كما أن هناك علماء الدين من المسلمين الذين لا يحتاجون إلا لما عيس

(١) الديوان ج٢ ص ٢٧ مستطير من الطهران رازم : البعير يعجز عن النهوض من الأعباء والضعف مستطير ورازم :
كناية عن تفريق الكلمة وتشيت الرأي .

(٢) الديوان ج٢ ص ٢٨ .

(٣) الديوان ج٢ ص ٦١ .

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج١ ص ٦١ .

دينهم ولا يرون من يستطيع أن ينهض بعبء الذود عن الإسلام غير تركية لأنها أقواها وأقدرها على مواجهة مطامع الدول المسيحية بالإضافة إلى ورود الأحاديث العديدة التي تنهى بل وترجر عن الخروج على السلطان . علماً بأن نوايا الاتحاديين الخفية ضد الخلافة الإسلامية في تركية لم تكن قد ظهرت بعد فما كاد الاتحاديون ينجحون بثورتهم عام ١٩٠٩ ويظهروا مقدمات نواياهم حتى واجهتهم الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ مما اضطرهم إلى اعلان الجامعة الإسلامية من جديد والدعوة إلى الجهاد الديني وتقريب العرب بل والتودد إليهم كما ذكرنا .

ومن هؤلاء العلماء الشيخ يوسف النبهاني والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان الذي يقول « لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية سوف تصبح نهياً مقسماً بين إنجلترا وفرنسة وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود »^(١) . وهناك عامة الناس الذين لا يرضون لهم راعياً غير الخليفة إمام المسلمين كانوا لا يعرفون ما الوطن وما الوطنية فهذا والذي الذي جاوز الخامسة والثمانين من عمره ما سمعته مردداً في دعائه إلا « اللهم انصر الإسلام » أو « اللهم انصر المسلمين » وما سمعته قط يدعو « اللهم انصر العرب » أو « اللهم انصر العروبة » .

وقد ذكر الأستاذ رشيد رضا من محاسن الحديوي « أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى في عرف العصر بالوطنية »^(٢) .

ويذكر الأستاذ محمد الفرحاني ما دار من حديث له مع المغفور له رمضان باشا الشلاش الذي كان من أوائل الملتحقين بالثورة العربية يقول الأستاذ الفرحاني سائلاً رمضان باشا : « وماذا تقول في الشهداء الذين أعدمهم الطاغية السفاح جمال باشا؟ » فأجابني رمضان باشا بكل رضاء وهدوء « جمال باشا يا ولدي ليس طاغية ولا سفاحاً والشهداء ليسوا شهداء بل خونة مجرمين لقوا جزاءهم العادل ولو كنت مكان جمال باشا لما كنت فعلت غير ما فعل ... بل ما كان جمال باشا يستطيع أن يوجه إليهم من الأذى قيد أنملة وفيهم النواب وفيهم الوجوه البارزة في المجتمع لو لم يجد في الوثائق التي وقعت في

(١) الحروب الصليبية الأوروبية التاسعة ص ١٣٥ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٥١٢ راجع أيضاً كتاب عبد العزيز جاويز الأستاذ أنور الجندي ص ١٥ حيث يوضح أوليات «الوطنية» و«القومية العربية» .

يديه ما يدينهم » وهتفت وشريف مكة يا باشا فقال « لقد أغري بالذهب ... نعم ...
أغري بالذهب الكثير ولا حول ولا قوة إلا بالله »^(١).

ويقول الأستاذ الفرحاني أيضاً « وجلست يوماً إلى الرئيس السوري الجليل السيد
الحكيم فقلت له : « هل هناك من وعود وعهود مكتوبة غير الرسائل المتبادلة بين شريف
مكة ومكاهون فأجابني بالنفي ثم قال « الواقع لقد وُجدنا أطفالاً في السياسة » ويضيف
الأستاذ الفرحاني فيقول ومثل هذا الكلام نسب إلى النجل الأكبر لصاحب رصاصة مكة
حيث قال « لم نكن سوى بداء بسطاء لم يسبق لنا قبل الثورة أن دخلنا في الحياة الدولية
أو عاملنا الأجانب أو اتصلنا بهم من قريب أو بعيد ولقد جاءنا الانجليز إلى الحجاز ولم
نذهب إليهم ، جاءونا بورقة بيضاء في ذيلها ختم الامبراطورية وقالوا لنا هذه ورقة
فاكتبوا فيها ما تشاؤون ونحن مستعدون للتنفيذ والتلبية فصدقناهم وقتلنا إلى جانبهم
ولكنهم ما لبثوا أن خانونا وغدروا بنا »^(٢).

ولكنني أعود لأؤكد ما قلته في السابق من أن شريف مكة بقي ينتظر وذلك
بالإضافة إلى ما كان قد أعلنه الاتحاديون من عدااء العرب والإسلام وسلب الخليفة كل
سلطانه حتى الختم ولم يكن الشريف حسين يقصد ابدال «الطغيان العثماني» بـ«طغيان
فرنسي أو بريطاني» ولم يكن انتصار الحلفاء بسبب مساعدة الشريف حسين لهم فقد
ارتدت جيوش جمال باشا مع الألمان مرتين عن قناة السويس قبل أن يعلن الشريف
ثورته والحقيقة كما أعلنها النجل الأكبر للشريف أنهم كانوا على الفطرة صادقين ليس لهم
ممارسة بالسياسة الدولية والأعبيها وموقف شريف مكة من الحرب يشبه موقف تركية
من الحرب أيضاً . يقول الأستاذ دروزة « إن عدم دخول الدولة العثمانية الحرب كان
الأفضل ولكنه ليس ممكناً لأنه لا بد أن تكون الدولة الحيادية مسلحة وأن تسد المضائق
وهذا وذاك ليس في مقدورها »^(٣). كذلك تقول إن مساعدة الشريف حسين للحلفاء لم
تكن هي الفيصل في الحرب وقد كان من الطبيعي أن ينضم للحلفاء للحصول على
الاستقلال من الحكم التركي كما وعدت بريطانيا في تجربتها الأولى مع الشريف حسين .
والحقيقة أننا لا نستطيع أن نحكم على الأحداث بعد وقوعها فقد كان الرأي العام ضد

(١) الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ص ١٣٦ .

(٢) للرجع السابق ص ١٣٦-١٣٧ .

(٣) تركيا الحديثة محمد عزت دروزة ص ٢٥ .

تركية ولو انضم الشريف حسين إلى تركية ثم خسرت الحرب لكان اللوم عليه لأن الحلفاء كانوا يتظاهرون بالحرص على مساعدة العرب نحو الأخذ بأسباب المدنية الحديثة عن طريق بعثاتهم التعليمية والتبشيرية وإبراز كياناتهم القومي المستقل مما حدا ببعض أن يستدعي فرنسة لحكم سورية كما قدمنا أما القلة المتبصرة فقد كان لسان حالهم يقول :

مخطيء من ظن يومئذ أن للشعب ديناً

وأخيراً استسلمت تركية ووقعت معاهدة الصلح في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٨^(١) وبذلك خرجت سورية والعراق من الحكم العثماني لتدخل في حكم جديد فقد أصبحت فلسطين والأردن والعراق تحت الاستعمار البريطاني^(٢) وسورية ولبنان تحت الاستعمار الفرنسي . وكانت حال العرب الذين وقفوا مع الحلفاء لمساعدتهم على التخلص من الحكم العثماني كما قال الشاعر :

والمستجير بعمر عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ضياع فلسطين :

الحقيقة أنه كان هناك عقبتان أمام إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين العقبة الأولى وجود السلطان عبد الحميد ولذلك عملوا على إسقاطه ونجحوا عن طريق تغفلهم في جمعية الاتحاد والترقي بعد أن أعيتهم كل السبل للتحايل على السلطان عبد الحميد حتى ضاق بهم ذرعاً ونفذ صبره وقال للوسطاء (على رواية هرتزل في مذكراته) « انصحوا الدكتور هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه فليحتفظ اليهود بملايينهم . إذا مزقت امبراطوريتي فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، ولكن يجب أن يبدؤوا ذلك التزريق أولاً في جثثنا فإني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة »^(٣).

أما العقبة الثانية فهي وجود روسيا القيصرية فقد كانت الحكومة الروسية في العهد

(١) المرجع السابق ص ١١ .

(٢) راجع أثر اليهود في صياغة صك الانتداب البريطاني على فلسطين وهو من وضع المستر فيلكس فارنكفوتر الصهيوني الأمريكي قضية فلسطين العربية ص ٢٠ .

(٣) الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية قسطنطين خمار ص ٢٨-٣٩ .

القيصري شديدة التمسك بالتقاليد المسيحية الأرثوذكسية وكان الكثيرون من الروس يربون إلى الأماكن المقدسة في فلسطين بعيني الإيمان العميق والخشوع الشديد ومنهم من كان يحج إليها سيراً على الأقدام وهذا ما جعلهم يؤمنون بأن تحويل فلسطين إلى دولة يهودية يندس الأراضي المقدسة ولذا كانت الحكومة القيصريّة تقاوم أي مشروع يرمي إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين ولا ريب أن هذه المقاومة كانت عاملاً في تأخير صدور تصريح بلفور إلى ما بعد انهيار الحكم القيصري مباشرة ولهذا يقول المؤرخ البريطاني «آرنولد تونبي» في كتابه (دراسة التاريخ) ما معناه «إن انهيار حكم آل رومانوف الامبراطوري الروسي قد أزال بالفعل حماية أخرى عن العرب الفلسطينيين»^(١). لذلك أسهم اليهود في إسقاط أسرة رومانوف القيصريّة وقيام الثورة الشيوعية في روسيا في ٢٤ أكتوبر ١٩١٧ . يقول الجنرال جواد رفعت أتلخان نقلاً عن كتاب المؤامرة اليهودية «إن الحفل الأمريكي الماسوني الذي يدير الماسونية الكونية وكل أعضائها من أعظم زعماء اليهود عقد مؤتمراً قرر فيه خمسة من اليهود أصحاب الملايين خراب روسية القيصريّة والذين تبرعوا بالمال هم إسحق موتير ، مشتر ، ليفي ، وروق ، وشيف وكان المال مرصوداً للدعاية وإثارة الصحافة العالمية على أثر المذابح الدائرة ضد اليهود حوالي نهاية القرن التاسع عشر»^(٢) ونتيجة للجهود المكثفة التي بذلها زعماء اليهود وأنصارهم أمثال هرتزل ، وايزمان ، لويد جورج ، بلفير ، هيرت صموئيل ، سكوت مارك سايكسي ، موسى جاستر ، جيمس مالكولم ، برانديز وغيرهم استطاع اليهود أن يحصلوا على وعد من الحكومة البريطانية للعمل على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود وهو ما عرف بـ«وعد بلفور» الذي وجهه إلى اللورد ولتر روتشيلد في ٦ تشرين الثاني ١٩١٧ هذا نصه :

« عزيزي اللورد روتشيلد : يسرني أن أثقل إليك بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالي متضمناً العطف على الأماني الصهيونية اليهودية وكان هذا التصريح قد رفع إلى المجلس الوزاري فوافق عليه » إن حكومة جلالته تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية وعلى أن يكون مفهوماً بصورة واضحة أنه لا يجوز القيام بأي عمل من شأنه أن يكون محجفاً بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين . ولا بالحقوق

(١) الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية ص ٢٩ .

(٢) كتاب أسرار الماسونية ص ٥٧-٥٨ طبع دار المختار الإسلامي القاهرة .

والأوضاع السياسية التي يتمتع بها اليهودي في أي قطر آخر وسأكون شاكراً إذا أنبأتم الاتحاد الصهيوني بهذا التصريح » . أما عن دوافع بريطانيا من جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود فمنها الظاهر والمباشر مثل مكافأة الدكتور وايزمن على اختراعه مادة الأسيتون لانتاج مادة ت.ن.ت. والذي رفض المكافأة الشخصية بالإضافة إلى الجهود المكثفة التي بذلها زعماء الصهيونية والمحافل الماسونية . أما عن الدافع الحقيقي الذي دفع لويدي جورج رئيس وزراء بريطانيا للموافقة على صدور وعد بلفور فيما أشار إليه الأستاذ أنيس الصايغ إذ يقول « ولكن الواقع أن رئيس الحكومة البريطانية لم يكن يهتم باليهود كثيراً ولم يكن يحبه يعترف مؤرخ في حياته وصديق سكوت بأن لويدي جورج لم يأمر بإصدار الوعد إلا ليحصل على فلسطين البريطانية وقد أثبتت الأحداث العسكرية التي سبقت الوعد أن مركز بريطانيا الحربي كان قد أخذ يتحسن فكانت القوات الحليفة قد أنقذت السويس ودخلت فلسطين وانضمت الولايات المتحدة إلى الحلفاء وبدأت القوات الألمانية والتركية تتراجع في بعض الجهات »^(١) وكما جاء في رسالة وايزمن إلى صحفي يناصر الصهيونية « إن إقامة دولة يهودية قوية إلى جانب مصر يصنع حاجزاً ضد أي خطر يستهدف مصر من الشمال »^(٢) وكانت الخطوة العملية لتحقيق وعد بلفور هي وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية وانتزاعها من الوطن الأم سوريا وقد وضعت فلسطين تحت الحكم العسكري البريطاني خلال عام ١٩١٩-١٩٢٠ وكانت وزارة الحربية البريطانية تصدر تعليماتها إلى قوادها العسكريين مؤكدة لهم أن الحكومة البريطانية متمسكة بتصريح بلفور ومن واجبهم تقديم المساعدة الفعالة للصهيونية وكثيراً ما كانت تستبدلهم بآخرين من ذوي الميل الأكثر تأييداً للحركة الصهيونية . يقول الأستاذ قسطنطين خمار : « بعد كل هذا تأكد عرب فلسطين أن مخاوفهم من تصريح بلفور أصبحت حقيقة واقعة فهبوا يعتقدون المؤتمرات الوطنية والاجتماعات السياسية ويؤلفون الجمعيات القومية للإعراب عن استنكارهم للحركة الصهيونية وعزمهم على مناهضتها »^(٣) فقد ابتدأت المظاهرات العنيفة والاضرابات الشاملة ونشبت الاصطدامات الدامية في غزة والقدس وطبرية خلال ١٩١٩ وكانت الثورة اللاهبة صباح ٤ نيسان ابريل ١٩٢٠ في مدينة القدس حيث اصطدم فيها العرب مع اليهود والشرطة وقامت (لجنة بالن) بالتحقيق وأدانت اليهود في تقريرها الذي

(١) الهاشميون والقضية الفلسطينية أنيس الصايغ ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٣) الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية ص ٥٧ .

لم ينشر ثم استبدل الحكم العسكري لفلسطين بالحكم المدني في تموز ١٩٢٠ تلبية لرغبة اليهود وعين اليهودي الصهيوني السير هريوت صموئيل مندوباً سامياً لفلسطين وحاكماً مطلقاً لجميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وكان وايزمن يدعو دائماً «صموئيلنا» فلاً الوظائف الكبرى باليهود حتى بلغ عدد الموظفين اليهود أربعة أمثال الموظفين العرب وقام بتسهيل الهجرة حتى وصلت إلى ٣٠ ألف يهودي في العام ولهذا يمكن حسابه بسهولة «الباني الحقيقي والمؤسس الفعلي للدولة اليهودية» وتخوف العرب من النفوذ اليهودي وكانت ثورة ١٩٢١ في صبيحة أول مايو حيث أخذ شبان اليهود وشاباتهم يسرون في الشوارع وهم ينشدون الأناشيد الطائفية فاصطدم فريق من الشبان العرب بهم وبالقوات البريطانية وراح فريق آخر يهجم على بلدة تل أبيب ثم هجموا على المستعمرات اليهودية الواقعة بين يافا وطولكرم وامتدت الثورة إلى سائر المدن الفلسطينية واستشهد فيها من العرب ٣٨ شهيداً وجريحاً وبلغ عدد قتلى اليهود ٤٧ وجرحاهم ١٤٦ وقد استخدمت السلطات البريطانية الحاكمة أبشع وسائل الانتقام من فرض الغرامات واتلاف المأوى وحرق المزارع وانتصر وزير المستعمرات ونستن تشرشل للصهيونيين وسمى ثورة عرب فلسطين هذه الاضطرابات القذرة ثم شكلت لجنة تحقيق برياسة قاضي القضاة «توماس هيكرافت» واكتشفت المجرم الحقيقي «الصهاينة» ولكن بدلاً من الحكم عليهم طلبت منهم الاعتدال والرفقة وجعلت توصي العرب واليهود أن يتفقوا .

وفي ٢٢ حزيران عام ١٩٢٢ أصدرت الحكومة البريطانية كتاباً سماه العرب الكتاب الأسود وقد اشتمل على دستور وسياسة عامة لفلسطين على أساس تصريح بلفور والانتداب مؤكداً أنها لا يقبلان التغيير وقد رفضه العرب رفضاً باتاً مع أنه ينص على أن يكون لهم في المجلس التشريعي ١٠ أعضاء من بين ٢٣ عضواً مع إنهم يؤلفون ٩١٪ من سكان فلسطين آنئذ . وقد رحبت الجمعية الصهيونية بالكتاب الأبيض وتعهدت بتسيير أعمالها وفقاً للسياسة المبسوطة فيه وقد اعترف وايزمن في مذكراته أن الحكومة البريطانية عرضته على الجمعية الصهيونية قبل إصداره للاطلاع عليه وإبداء وجهات النظر التي يراها اليهود بشأنه . وقد عقد العاملون في حقل الحركة الوطنية بين عامي ١٩١٩-١٩٢٢ خمسة مؤتمرات كانوا في كل منها يؤكدون تمسكهم بالوحدة السورية ورفضهم لتصريح بلفور . والمطالبة بحكومة وطنية في فلسطين وهي :

المؤتمر الأول : في مدينة القدس - رفض تصريح بلفور والهجرة اليهودية

والانتداب البريطاني وطالب بالوحدة وبتسمية فلسطين (سورية الجنوبية) .

المؤتمر الثاني : دعت إليه «الجمعيات الإسلامية المسيحية» ولكنه منع بأمر السلطة البريطانية فلم يعقد .

المؤتمر الثالث : في حيفة أكد مطالب المؤتمر الأول مع المطالبة بقيام حكومة وطنية مستقلة .

المؤتمر الرابع : أكد فيه المطالب السابقة وأرسل وفداً إلى لندن فأكد تشرشل وزير المستعمرات للوفد أن الحكومة البريطانية مصممة على الوفاء بعهودها للشعب اليهودي .

المؤتمر الخامس : في نابلس قرروا بإجماع الآراء رفض الكتاب الأبيض وعدم التعاون مع حكومة الانتداب على أساسه .

ثم دعت حكومة الانتداب في فبراير سنة ١٩٢٣ لإجراء انتخابات للمجلس التشريعي فقاطعها الشعب الفلسطيني مقاطعة إجمالية . ووقعت اضطرابات في يافة ١٩٢٤ لتهمك اليهود على الشعائر العربية أثناء احتفالهم بعيد «المساخر» وفي عام ١٩٢٥ زار اللورد بلفور القدس لافتتاح الجامعة العبرية فأضربت البلاد اضرباً شاملاً . ولما سافر بلفور إلى دمشق تظاهرت في وجهه بشدة فخرج إلى ميناء بيروت حيث ركب الباخرة رأساً إلى إنجلترا حتى جاء عام ١٩٢٩ وقامت دائرة الأوقاف الإسلامية باصلاحات حول حائط البراق في حزيران ١٩٢٩ فثارت ثائرة اليهود وأخذت صحفهم تنشر مقالات مهيجة تدعو فيها إلى أعمال العنف والثورة وقاموا بحملة دعائية في الصحف العالمية على أوسع نطاق يتهمون فيها العرب بالاعتداء على مقدساتهم وفي ٤ آب أغسطس سارت مسيرة من ستة آلاف يهودي في تل أبيب تصيح «الحائط حائطنا» وفي ١٥ آب أغسطس سارت حشود اليهود محترقة الأحياء العربية نحو البراق وهناك قاموا برفع العلم اليهودي وإنشاد نشيدهم الطائفي صاحبين هاتفين «الحائط حائطنا» وقد كانت هذه المسيرة هي السبب المباشر للاضطرابات كما أقرت (لجنة شو) فيما بعد .

وقد واصل اليهود مسيراتهم الاستفزازية مقترفين الأعمال العدوانية مما أثار الشعور العربي الفلسطيني إلى أقصى الحدود وكان اليوم التالي ١٦ آب ١٩٢٩ عيد المولد النبوي الشريف فخرج المصلون من الحرم الشريف في صلاة نحو البراق حيث قلبوا منضدة

للسلماسي اليهودي ، ودفنوا به جانباً وأحرقوا بعض الكتب والاستراحات^(١) وفي الأيام التالية هجموا على اليهود في القدس وضواحيها وقامت السيرات في معظم المدن الفلسطينية ووزعت الحكومة السلاح والعصي على المدنيين اليهود ثم هجم عرب الخليل على الحي اليهودي فقتلوا ٦٠ شخصاً وقام أهل نابلس بالهجوم على مخفر الشرطة بغية الاستيلاء على السلاح وهجم أهل بيسان على بعض المستعمرات اليهودية وهجم العرب على يهود صفد فقتل منهم ٤٥ شخصاً وقام اليهود بقتل إمام جامع في ضواحي يافة مع أفراد عائلته الستة ومثلوا بجثثهم تتيلاً فظيماً كما قاموا بتدنيس قبور الصحابة فاستقدمت بريطانية بعض قواتها من قناة السويس ومالطة وقبرص واستعملت أشد الأساليب وأعنفها للقضاء على الثورة . وفي آخر آب (أغسطس) كانت حصيلة الاضطرابات ١٣٣ قتيلاً و٢٣٩ جريحاً من اليهود ومن العرب ١١٦ شهيداً و٢٣٢ جريحاً . وأخيراً صدرت الأحكام من قبل المحاكم البريطانية على الوجه الآتي :

- ١ - حكم على عشرين عربياً بالإعدام وتم تنفيذ الحكم في ثلاثة منهم ، وحُول الحكم على السبعة عشر الباقين إلى السجن المؤبد .
- ٢ - حكم على ٨٠٠ عربي بالسجن لعدة سنوات .
- ٣ - حكم على يهودي واحد بالإعدام (قاتل إمام الجامع وعائلته وهو شرطي نظامي ثم خفض الحكم عليه إلى عشر سنوات قضى بعضها في السجن ثم أطلق سراحه) .
- ٤ - فرضت الحكومة غرامات باهظة على بعض المدن العربية وقامت بتحصيلها بشق الوسائل .

وفي النهاية قرر العرب مقاطعة اليهود على أن السلطات الحكومية أخذت في التشدد في معاقبة كل من يشرف على تنفيذ هذه المقاطعة أو يحرض عليها . وألفت الحكومة المنتدبة لجنة (شو) كعادتها وكتبت توصيات لصالح العرب ولم تنفذ بريطانية منها أي شيء كما قضت لجنة ثلاثية وافقت عليها عصبة الأمم بملكية المسلمين لحائط البراق وملكية الرصيف الذي أمامه ثم ألفت الحكومة البريطانية ثلاثة لجان هي لجنة سيمسون - لجنة فرنش - لجنة كروسبين فجاءت تقاريرها كلها مؤيدة للحق العربي .

فأصدرت الحكومة البريطانية بياناً عن خطتها السياسية عرف بـ(الكتاب الأبيض)

(١) الاستراحات هي أوراق دعوات كان اليهود يلفونها ويسونها في ثوب جدران حائط المبكى .

سنة ١٩٣٠ فثارت ثائرة اليهود لأنه لم يتضمن تحيزاً ظاهراً لهم فسخروا الصحافة العالمية خصوصاً الانجليزية والأمريكية للهجوم على الكتاب الأبيض واستقال الدكتور حاييم وايزمن من رئاسة الوكالة اليهودية فاضطرت الحكومة البريطانية إلى التراجع فأصدر رئيس وزرائها مكدونالد في ١٧ شباط ١٩٣١ رسالة إلى الدكتور وايزمن فيها تراجع بل نسخاً للكتاب الأبيض وقد أطلق عليه اسم (الكتاب الأسود) لأنه وثيقة شؤم وخزي وعار في تاريخ السياسة البريطانية .

وقد كان عام ١٩٣٣-١٩٣٦ سلسلة متتابعة من الاضطرابات والمظاهرات حتى كان اضراب عام ١٩٣٦ الذي استمر ١٨٢ يوماً ابتداء من ١٩ نيسان ١٩٣٦ وأخيراً أنهى الاضراب بواسطة الساسة والحكام العرب . وأخيراً تم لليهود تحقيق أملهم في إنشاء وطنهم القومي في فلسطين وصدقت بريطانيا في وعدها لهم ونفذت المادة الثانية من صك انتدابها على فلسطين التي نصها « تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي^(١) ».

وأخيراً استجابت الدول العربية لقرار مجلس الأمن ووقعت الهدنة الدائمة بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا والأردن ولبنان وفي « آيار قَبِلَتْ إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة باعتبار معظم الدول ومعارضة الدول العربية الست وأفغانستان وباكستان والهند وإيران وسورية والحبشة وأرتيرية . وبذلك نجحت الصهيونية وعملاتها في إقامة دولة إسرائيل . وما كانت الصهيونية تنجح لولا اصرار وتصميم بريطانية الدولة المنتدبة الحاكمة على قيام هذه الدولة حتى إذا انتهت مدة انتدابها وأوشكت الجيوش العربية على تخليص فلسطين رأينا الدول الغربية مجتمعة تضغط على الساسة العرب لقبول الهدنة الأولى والثانية وأخيراً الهدنة الدائمة ورأينا دول المعسكر الاشتراكي تقدم الأسلحة والرجال لليهود كان هذا تآمراً مشتركاً لدول المعسكرين الشرقي والغربي على قيام دولة إسرائيل وقد أفصح الدكتور ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي في محاضرة له في مدينة مونتريال في كندا عام ١٩٤٧ قال « ولم يختر اليهود فلسطين لعناها التوراتي والديني بالنسبة إليهم ولا لأن مياه البحر الميت تعطي بفعل التبخير ما قيمته ثلاثة آلاف مليار دولار من المعادن وأشباه المعادن وليس أيضاً لأن مخزون أرض فلسطين من البترول يعادل عشرين مرة مخزون

(١) راجع قضية فلسطين وضع الهيئة العربية العليا من ٢٠ راجع أيضاً حاضر فلسطين تأليف الياهو جراندي من ٣٠-٢٤ .

الأمريكتين مجتمعتين - بل لأن فلسطين هي ملتقى طرق أوروبا وآسية وأفريقية ولأن فلسطين تشكل في الواقع نقطة الارتكاز الحقيقية لكل قوى العالم ولأنها المركز الاستراتيجي العسكري للسيطرة على العالم؛^(١) ﴿سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾^(٢).

(١) تاريخ فلسطين القديم ظفر الإسلام خان ص ٧ .

(٢) سورة مريم آية ٢٥

« الخاتمة »

مما سبق يتبين لنا أن فلسطين قد عاشت في ظروف اقتصادية وسياسية وثقافية أوصلتها إلى ما انتهت إليه من ضياع أرضها وتشتت شعبها ، إن القوى التي ساندت قيام إسرائيل أقوى بكثير من القوى التي دافعت عن فلسطين وأهم مظاهر هذه المفارقة أن القوى العربية لم تكن حرة في حركتها لذلك كانت تتحرك إلى الخلف في حقيقتها كما نلاحظ أن الأوضاع التي تعيشها أمتنا اليوم هي نفس الأوضاع التي عاشها الشعب الفلسطيني والتي أدت إلى فشله في بقائه في أرضه وهي نفسها ستوصل الأمة للفشل في الوصول إلى أي عمل إيجابي لأن المعادلات واحدة لم تتغير ومن يفكر - من واقع هذه المعادلات - في أوضاع أمتنا اليوم يستولي عليه القنوط واليأس في مقدرة هذه الأمة أن تعيد حقاً لأهلها وستبقى فلسطين هي الميزان الذي تقاس به نهضة الأمة وتقدمها . أذكر عندما استولت إيران - زمن حكم الشاه - على الجزر العربية الثلاث في الخليج العربي عام ١٩٧١ طنب الصغرى وطنب الكبرى وأبي موسى ، كنت طالباً في معهد البحوث والدراسات العربية - في القاهرة - تابع لجامعة الدول العربية وكان الدكتور سيد نوفل السكرتير العام للجامعة العربية - وقتها - يدرسنا مادة العمل العربي المشترك وكان الطلاب متلهفين لسؤاله عما ستعمله الجامعة العربية لإعادة الجزر الثلاث المقتصة قال الأستاذ الجليل بلغة الواقع « ما دامت فلسطين محتلة فلن يعمل أحد شيئاً » وهو يريد أن يقول ليست الجزر الثلاثة بأفضل من فلسطين أرض الأنبياء التي باركها الله فما دام العرب لم يعملوا شيئاً لإعادتها فلن يعملوا شيئاً لإعادة غيرها والحرب العراقية الإيرانية شاهد على ذلك واليوم في ١٧/١/١٤٠٦^(١) نقلت الأخبار قيام إسرائيل بتدمير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في تونس ومعسكر للقوات الفلسطينية أيضاً واكتفى العرب بالإيعاز إلى مندوبيهم في هيئة الأمم المتحدة في نيويورك لتعبئة الرأي العام العالمي ضد إسرائيل وكأنه هناك رأي عام عالمي ، والعرب ما زالوا يذكرون عام ١٩٦٧ لما احتلت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة - ما تبقى من فلسطين - أن مندوب إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة قال أمام اجماع الأعضاء على انسحاب إسرائيل وعودتها إلى حدودها :

(١) أثناء كتابة هذه السطور .

« لو أن جميع الأعضاء صوتوا ضد إسرائيل إلا صوتاً واحداً وهو صوت إسرائيل لما انسحبت إسرائيل » .

وهذا شاهد ثانٍ على صدق كلام الدكتور سيد نوفل والشواهد كثيرة في هذا المجال .
ولكن ما الحل ؟ وكيف الخلاص ؟

وهنا يفتح لنا القول في أن ما حدث لفلسطين لم يكن خارجاً عن القدرة الإلهية فهي ملك لله عيب ملكه لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء . ونحن عبيد الله فإذا لم يرض علينا فليس لنا منه أن يمتنعنا بملكه ولو أعدنا كل ما استطعنا من قوة للاحتفاظ به ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ .

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلغة العرب وجعل إعجازه بلغته وبذلك شرف العرب بهذا الاختيار كما حملهم مسؤولية تبليغه للناس كافة لأنهم أقدر الناس على فهمه والتأثر بإعجازه والإيمان به ولذلك قيل « أفصح العرب أكثرهم إيماناً » وشهد التاريخ على صحة ذلك لما ارتد العرب عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ قامت مكة والطائف - مع المدينة المنورة تقاتلان المرتدين مع قرب عهدهما بالإسلام ويجمع أهل اللغة أن قريشاً أفصح العرب ونلاحظ أن كبار الصحابة من قريش وعليه فإن العرب أصحاب رسالة ساوية ومسؤوليتهم الأساس هو تبليغها للعالم لأنهم أقرب الناس إليها وأكثرهم فهماً لها فإذا ابتعدوا عن مسؤوليتهم - هذه التي اختارهم لها وشرفهم بهذا الاختيار فليس لهم عند الله عهد فيما فضلهم به ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ويظهر أثر ذلك بأن يجعل الله بأسهم بينهم ويقذف الوهن في قلوبهم وتتداعى عليهم الأمم كما يتداعى الأكلة على قصعة ، وتفشل جهودهم في كل ما يسعون إليه إذ لو حسن حالهم وهم بعيدون عن الإسلام لما أصبح الإسلام معجزاً لأن مفهوم الإعجاز هو أن لا يصلح غيره مكانه في كل زمان ومكان . ولعل هذا المفهوم يكون تفسيراً لفشل البشرية اليوم في الوصول إلى ما تبغيه من سعادة مع توفر آلتها بما تملكه من وسائل الانتاج . ولا شك أن القارئ الكريم يلاحظ المفارقة الواضحة اليوم بين أمتنا والأمم الكبرى مما يجعله يستبعد نهوض هذه الأمة للدعوة إلى دينها ويجعله ضرباً من المستحيل ، ولنا أن نقول إنها قضية إيمانية أولاً وأخيراً وليست قضية إمكانيات فقد نهض الرسول ﷺ يدعو إلى الإسلام وقال (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر أو أهلك دونه) ... وأخيراً جاء عام الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً وجاءت وفود العرب من مختلف أنحاء

الجزيرة العربية تباع الرسول ﷺ وخرج العرب من جزيرتهم في قلة من عَدَدِهِمْ وَعَدَدِهِمْ يقاتلون الفرس والروم في وقت واحد ولو أن العرب فكروا بمفهوم المعادلات المادية بين قوتهم وقوة أعدائهم لأصابعهم الوهن ولحسبوا أن فعلهم هذا ضرباً من الجنون ولكنهم آمنوا وصدقوا في إيمانهم وباعوا أنفسهم لله فإن أقصى درجات الفشل هو الموت وهو ما يطلبونه مفتاحاً لملاقاة ربهم وهذا درس تعلموه من حياتهم مع رسول الله فقد صدّقه في كل ما أخبر به من مغيبات ولم يرتابوا لأنه من لوازم الإيمان ففي غزوة الخندق يحدثنا ابن كثير: «أن رسول الله ﷺ خط الخندق بين كل عشرة أربعين ذراعاً قال: اختص المهاجرون والأنصار في سلمان فقال رسول الله ﷺ - سلمان منا أهل البيت قال عمر بن عوف فكنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً فحفرنا حتى إذا بلغنا المدى ظهرت لنا صخرة بيضاء مروة^(١) فكسرت حديدنا وشقت علينا فذهب سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو في قبة تركية ، فأخبره عنها فجاء فأخذ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيتها - يعني المدينة - حتى كأنها مصباح في جوف ليل مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها الثانية فكذلك ثم الثالثة فكذلك . وذكر ذلك سلمان والمسلمون لرسول الله ﷺ وسألوه عن ذلك النور فقال : لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمّتي ظاهرة عليها ومن الثانية أضاءت القصور المحر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمّتي ظاهرة عليها ومن الثالثة أضاءت قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمّتي ظاهرة عليها فابشروا واستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعود صادق . قال ولما طلعت الأحزاب^(٢) قال المؤمنون : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . وقال المنافقون : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزل فيهم ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾^(٣) .

وفي القرآن الكريم عِبَرٌ كثيرة من أخبار الأنبياء ومن أرسلوا وكلها تحكي عوامل النصر

(١) اللروة : الأصمعي المرو حجارة بيض براقه تعد منها النار الواحدة مروة (الصالح مادة مرا) .

(٢) يقصد جيوش الأحزاب .

(٣) سورة الأحزاب آية ١٢ البداية والنهاية ج٤ ص٩٩-١٠٠ لقد ورد هذا الخبر في عدة روايات أخرى .

والخذلان وهي واحدة في كل زمان ومكان ، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وكيف يسر الله له السير في البحر لموسى وقومه فضرب بعصاه البحر فانفلق ونجا موسى عليه السلام وقومه وغرق فرعون والعبرة في جعل الماء الذي نجا منه موسى عليه السلام هو نفسه قد هلك فيه فرعون .

يقول سبحانه وتعالى ﴿ وَأُنَجِّنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾^(١) إِنْ مَعْجَزَاتِ اللَّهِ وَقُدْرَاتِهِ لَنْ تَنْتَهُ وَمَا نَخَافُهُ مِنْ عَدُوْنَا مِنْ كَثْرَةِ عَدَدِهِ وَعُدْدِهِ قَدْ يَجْعَلُهُ اللَّهُ نَكَالًا عَلَيْهِ وَسَبَبِ هَزِيمَتِهِ وَقَدْ تَكْفُلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ بِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) وَلَنْ نَكُونَ مُؤْمِنِينَ حَتَّى نُنَاجِيَنَّكَ اللَّهُ يَنْبُنَا يَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَحْكُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾^(٣) وَقَدْ شَرَطَ سُبْحَانَهُ نَصْرَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِهِمْ لِلَّهِ وَذَلِكَ بِطَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ أَوَّلًا حَتَّى تَتِمَّثَلَ فِيهِمْ صِفَةُ الْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ لِأَنَّ الْعَبْدَ مُلْتَزِمٌ بِأَوَامِرِ سَيِّدِهِ فَإِذَا خَرَجَ عَنْهَا تَحَرَّرَ مِنْ هَذِهِ الْعِبَادِيَّةِ بِمَقْدَارِهَا فَهُوَ إِمَّا أَنْ يَتَلَقَّى أَوَامِرَهُ وَقَوَانِينَهُ مِنْ نَفْسِهِ فَيَكُونُ عَبْدًا لِنَفْسِهِ أَوْ مِنْ مَخْلُوقٍ غَيْرِهِ فَيَكُونُ عَبْدًا لِهَذَا الْمَخْلُوقِ . وَقَدْ نَبِهَ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَنَّ النِّصْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ﴿ وَمَا النِّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٤) وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾^(٥) وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ وَكُلُّهَا تَدُورُ حَوْلَ مَعْنَى وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّ النِّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِذَا نَصَرَ الْكُفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهَذَا نَكَايَةٌ بِالْمُسْلِمِينَ وَتَذْكِيرٌ لَهُمْ لِيَعُودُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، وَلَعَلَّ قَضِيَّةَ فِلَسْطِينَ تَكُونُ مَنبَهًا لِلْقُلُوبِ الْعَقْلُ لَتَفْهَمُ سَبَبَ هَزِيمَتِهَا وَنَصْرِهَا وَإِنِّي أَرَى أَنَّ هُنَاكَ تَوَافُقًا بَيْنَ الْبَعْدِ عَنِ اللَّهِ وَالْهَزِيمَةِ وَلَوْ حَصَلَ غَيْرُهَا لَكُنْ اسْتِدْرَاجًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِيَزْدَادَ ضَلَالَتَنَا فَتَزِيدَ عَقُوبَتُنَا : إِنْ ارْتِفَاعَ دَرَجَةِ حَرَارَةِ الْمَرِيضِ وَأَلَمُهُ تَعَدُّ ظَاهِرَةً صَحِيَّةً لِأَنَّهَا يَنْبَهَانَهُ لِيُبْحَثَ عَنِ الْعِلَاجِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَفْجَلَ الْمَرَضُ وَنُو سَأَلْنَا أَنْفُسَنَا أَمَامَ كُلِّ مَصِيبَةٍ تَحُلُّ بِأَمْتِنَا مِنْ أَعْدَائِنَا هَلْ نَسْتَحِقُّ النِّصْرَ وَنَحْنُ نَجْهَرُ بِالْمَعَاصِي وَالْمُؤَيَّقَاتِ؟! عَلَى آيَةِ حَالٍ مِنْ يَسْتَعْرِضُ الْأَحْدَاثَ الْمَعَاصِرَةَ الْيَوْمَ يِلَاحِظُ أَنَّ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بَدَأَتْ تَفْتِيقَ وَتَحَاسِبَ نَفْسَهَا .

ونسأل الله أن يرحمنا ويقبل توبتنا ورجاءنا إنه سميع مجيب .

(٣) سورة النساء الآية ٦٥

(٢) سورة الروم آية ٤٧

(١) سورة الشعراء آية ٦٦

(٥) سورة آل عمران آية ١٦٠

(٤) سورة الأنفال آية ١٠

« فهرس المراجع »

ممسلسل	اسم المرجع
١	القرآن الكريم .
٢	إبراهيم طوقان شاعر الوطن المفصوب ، زكي المحاسني ، مصر ١٩٥٦ .
٣	الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثالثة .
٤	أسرار الماسونية ، جواد رفعت أتلخان ، منشورات المختار الإسلامي ، القاهرة ١٩٧٥ .
٥	الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني محمد عمارة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة .
٦	افتراها الصهاينة وصدقها العرب ، فهد المبارك ، الطبعة واسم المطبعة ومكان الطبع وتاريخه غير موجود .
٧	أم القرى عبد الرحمن الكواكبي ، حلب ١٩٥٩ م .
٨	أوليات سلاطين تركيا ، محمد جميل بيهم ، مطبعة العرفان ، صيدا ١٩٣١ .
٩	بلادنا فلسطين ، مصطفى مراد الدباغ ، دار العودة ، الطبعة الأولى ، بيروت .
١٠	بوشكين أمير شعراء روسيا ، نجاتي صديقي ، سلسلة أقرأ رقم ٢٨ ، القاهرة ١٩٤٥ .
١١	تاريخ الأستاذ الإمام السيد رشيد رضا ، دار المنار بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٠ هـ .
١٢	تاريخ الجمعية الأرثوذكسية ، شكري خليل سويدان ، القدس ١٩١٠ .
١٣	تاريخ الدولة العلية ، محمد فريد ، مطبعة التقدم بمصر ، الطبعة الثالثة ١٩١٢ م .
١٤	تاريخ العرب ، مطول فيليب حتى وجماعة ، مطابع غندور ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٦٥ .
١٥	تاريخ الصحافة العربية ، فيليب طرازي ، المطبعة الأدبية ١٩٢٦ ، بيروت .
١٦	تاريخ فلسطين ، تحليل طوطح وعمر صالح البرغوثي ، مطبعة بيت المقدس ، القدس ١٩٢٣ .
١٧	تاريخ الناصرة ، أسعد منصور ، مصر ١٩٢٤ .

- ١٨ تركيا الحديثة ، محمد عزة دروزة ، مطبعة الكشاف ، بيروت ١٩٤٦ .
- ١٩ التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني ، نبيل أيوب بدران ، سلسلة الدراسات الفلسطينية رقم ٦٣ .
- ٢٠ تقرير اللجنة التي عُينت لدرس حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين ، أصدرته حكومة فلسطين ، القدس .
- ٢١ تقرير سمبسون القدس ١٩٣٠ .
- ٢٢ التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ، محمد رفعت ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .
- ٢٣ الثورات ، سلامة موسى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٥ .
- ٢٤ الثورة العربية الكبرى ، أمين سعيد ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .
- ٢٥ جغرافية فلسطين ، محمد سلامة النحال ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- ٢٦ الجذور التاريخية للقومية العربية ، د. عبد العزيز الدوري ، سلسلة الدراسات القومية ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- ٢٧ الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة ، محمد الفرجاني ، بيروت ١٣٩٣ هـ .
- ٢٨ حسر اللثام ، المؤلف مجهول ، القاهرة ١٨٩٥ .
- ٢٩ حقيقة الماسونية ، محمد علي الزعبي ، مؤسسة معتوق اخوان ، بيروت ١٩٧٤ .
- ٣٠ حولة الثقافة العربية ، ساطع الحصري ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ .
- ٣١ حول الحركة العربية الحديثة ، محمد عزة دروزة ، صيدا ١٩٥٠ .
- ٣٢ حياة الأدب الفلسطيني حتى النكبة ، عبد الرحمن ياغي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت .
- ٣٣ حياة الشرق دوله وشعوبه وماضيه وحاضره ، محمد لطفي ، جمعية دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٣٢ .
- ٣٤ ديوان شكيب أرسلان ، مطبعة المنار ، القاهرة ١٩٣٥ .
- ٣٥ ديوان مشاهد الحياة ، اسكندر الحوري ، القدس ١٩٢٧ .
- ٣٦ الشعر الحديث في مأساة فلسطين والأردن ، ناصر الدين الأسد ، طبع معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة .
- ٣٧ الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين ، محمد توفيق جانا ، دمشق ١٩٣٧ م .
- ٣٨ الشوقيات ديوان أحمد شوقي ، مطبعة مصر ، القاهرة .

- ٣٩ الصراع بين الموالي والعرب ، د. محمد بديع شريف ١٩٤٥ .
- ٤٠ ضياء السالك إلى أوضح المسالك ، ابن هشام ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار ، القاهرة ١٩٧١ .
- ٤١ طبائع الاستبداد ، عبد الرحمن الكواكبي ، حلب ١٩٥٦ .
- ٤٢ عبد العزيز جاويز ، أنور الجندي ، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٤ ، القاهرة .
- ٤٣ العروة الوثقى ، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، المكتبة الأهلية ، القاهرة ١٩٢٧ .
- ٤٤ فلسفة التاريخ العثماني ، محمد جميل بيهم ، مطبعة الفرقان ، صيدا ١٩٣٨ .
- ٤٥ فن التمثيل في خلال قرن ، يوسف أسعد داغر ، بيروت ١٩٤٩ .
- ٤٦ في الأدب الحديث ، عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
- ٤٧ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، محمد عزة دروزة ، مطبعة الاتحاد ، دمشق .
- ٤٨ قضية فلسطين ، وضع ونشر الهيئة العربية العليا ، مطبعة السعادة ، القاهرة .
- ٤٩ القومية العربية ، مصطفى الشهابي ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ٥٠ قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور ، محمد جميل بيهم ، شركة فرج الله للمطبوعات ، بيروت ١٩٤٠ .
- ٥١ كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الانجليزية ، محمد عزة دروزة ، مطبعة دار الأيتام الإسلامية في القدس .
- ٥٢ كتاب المؤتمر العربي الأول ، القاهرة ١٩١٣ م .
- ٥٣ كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ، جمع سليم فارس الشديان ، مطبعة الجوائب ، الآستانة طبعة ١٢٩٥ هـ .
- ٥٤ مستقبل العربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية ، عبد القادر يوسف ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ٥٥ محب الدين الخطيب ، صلاح الدين القاسمي ، القاهرة ١٩٧٤ .
- ٥٦ المسألة الشرقية ، مصطفى كامل اللواء ، القاهرة ١٩٠٩ ، الطبعة الثانية .
- ٥٧ مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر ، يوسف صغير ، بعبدا ، لبنان .
- ٥٨ للماسونية في العراق ، محمد علي الزعبي ، مؤسسة معنوق اخوان ، بيروت ١٩٧٢ .
- ٥٩ مصطفى كمال ، جوبرت فون ، تعريب كامل مسيحة ، بيروت ١٩٣٣ .
- ٦٠ مذكرات أحمد الشقيري «حوار وأسرار» ، دار العودة ، الكويت .
- ٦١ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، مصطفى صبري

- مطبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ١٩٢٥ .
- ٦٢ من تاريخنا ، محمود العابدي ، المطبعة التعاونية ، عمان ١٩٦٤ .
- ٦٣ محمد عبده ، عباس محمود العقاد ، سلسلة أعلام الإسلام ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
- ٦٤ مصطفى كامل ، عبد الرحمن الرافعي ، مطبعة الشرق ، القاهرة ١٩٣٩ .
- ٦٥ مذكرات أحمد عرابي ، كتاب الهلال ، فبراير مارس ١٩٥٣ ، القاهرة .
- ٦٦ النظام الاقتصادي في فلسطين ، سعيد حمادة ، الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٣٩ .
- ٦٧ الوحدة العربية ، محمد عزة دروزة ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ١٩٥٨ .
- ٦٨ وحي الشاطئ ، مصطفى درويش ، نابلس ١٩٥٩ .
- ٦٩ ولاية بيروت ، محمد رفيق ومحمد بهجت ، بيروت ١٩٣٥ .

فهرس الدوريات

- ١ - مجلة الأديب تصدر في بيروت .
- ٢ - صحيفة الأهرام ، أنشأها سليم وبشارة تقلا في القاهرة .
- ٣ - مجلة ثمرات الفنون ، أصدرها الشيخ عبد القادر القباني في بيروت عام ١٨٦٠م .
- ٤ - صحيفة الجوائب ، أنشأها أحمد فارس الشديان في الآستانة عام ١٨٦٠ .
- ٥ - مجلة الزهرة ، أنشأها جميل البحري في حيفا .
- ٦ - مجلة الطريق ، أنشأها عمر فاخوري في بيروت .
- ٧ - مجلة الطليعة ، أنشأها رشوان عيسى في بيروت .
- ٨ - مجلة العربي ، أنشأتها حكومة الكويت في الكويت .
- ٩ - مجلة الفتح ، أنشأها الشيخ محب الدين الخطيب في القاهرة .
- ١٠ - مجلة الشرق ، أنشأها لويس شيخو في بيروت .
- ١١ - مجلة المقتطف ، أنشأها الدكتور يعقوب صروف وفارس نمر في بيروت ثم انتقلت إلى القاهرة .
- ١٢ - مجلة المنار ، أنشأها السيد رشيد رضا في القاهرة .
- ١٣ - مجلة النفائس العصرية ، أنشأها خليل بيدس في حيفا .
- ١٤ - مجلة النفيير ، أنشأها إيليا زكا في القدس .
- ١٥ - هيئة الإذاعة البريطانية في لندن .
- ١٦ - مجلة الهلال ، أنشأها جورجى زيدان في القاهرة .

17 – Impact International Fortnight , London.

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

٣	الاهداء
٥	قبس من أي الذكر الحكيم
٧	المقدمة

الفصل الأول : المؤثر الاقتصادي

١٩	الثروة النباتية ، الثروة الحيوانية
٢٠	الثروة المعدنية ، الثروة الصناعية
٢٠	التجارة
٢١	التجارة الداخلية
٢٢	الاقتصاد الفلسطيني قبل الاحتلال الانجليزي
٢٣	الاقتصاد الفلسطيني بعد الاحتلال الانجليزي
٢٩	مقاييس بين ميزانيات سوريا ولبنان وبين فلسطين
٣٠	أسباب الفروق بين ثققات سوريا ولبنان وبين فلسطين

الفصل الثاني : المؤتمر الثقافي

٣٧	أولاً : التعليم
٤٧	التعليم في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني
٤٩	نظرية التعليم في مدارس المعارف
٥١	ثانياً : الطباعة
٥٣	ثالثاً : الصحافة
٥٤	رابعاً : الأندية والجمعيات

٥٧ خامساً : الإذاعة
٦١ سادساً : الترجمة
٦٦ أثر الإرساليات التبشيرية على الحياة الثقافية في فلسطين

الفصل الثالث : المؤثر السياسي

٦٩ النظام الإداري
٧٢ المسألة الشرقية
٧٨ الجامعة الإسلامية
٨٦ السلطان عبدالمجيد - مفتاح شخصيته
٨٨ المؤثر الخارجي على سياسة السلطان عبدالمجيد
٩٠ سياسة السلطان عبدالمجيد الداخلية
٩٢ الخلافة والاتحاد الإسلامي
٩٧ السلطان عبدالمجيد ضحية فلسطين وشهيدها الأول
١١٤ الحركة العربية الحديثة
١٣٠ ضياع فلسطين
١٣٨ الخاتمة
١٤٣ فهرس المراجع
١٤٧ فهرس الدوريات
١٤٨ فهرس الموضوعات

مكتبة المعلم الكويت

ص.ب : ١٩٦٧٣ خيطان 83807 الكويت

تلفون : ٤٧٣٧٨٢٨